ديوان الوقف السني
مركز البحوث والدراسات الاسلامية

سلسلة الدراسات الاسلامية المعاصرة
(٦٠)

التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة ال عمران



تأليف
شاكر نعمة بكري الكبيسي

١٤٣٠هـ الطبعة الأولى ٢٠٠٩م

جمهورية العراق
ديوان الوقف السني
مركز البحوث والدراسات الإسلامية



سلسلة الدراسات الاسلامية المعاصرة
(٦٠)

التفسير التحليلي

للشطر الأول من سورة آل عمران

شاكر جمعة بكري الكبيسي

١٤٣٠هـ الطبعة الأولى ٢٠٠٩م

MBDAW
مركز البحوث والدراسات الاسلامية
الايداع في دار الكتب والوثائق العراقية
برقم ٦١
لسنة ٢٠٠٩
جميع مطبوعات المركز محكمة علمياً
العراق - بغداد - سبع أبكار - ديوان الوقف السني
e-mail: mabdaw@yahoo.com
صندوق البريد ٥٣٠٠٠٨ باب المعظم

الإهــداء

إلى من تلقاني بكرم الضيافة وقربني بصلة الأخوة وشجعني في مواصلة البحث أخي وزميلي الدكتور صالح كرامة قمزاوي عميد كلية التربية في المهرة.

أقدم بحثي هذا وفاءً وحباً.

الباحث

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمين، وعلى آله وأصحابه حماة الدين، وعلى من اهتدى بهديهم إلى يوم الدين.

وبعد:

فأقدم لطلبة القرآن هذا البحث المتواضع في تحليل الشطر الأول من سورة آل عمران المباركة بعد أن عشت معها ما يزيد على ثلاثة أشهر: شوال وذي القعدة وذي الحجة.

جلست إلى آل عمران أولاً، لأستمع ما تتلوه عليَّ من بيِّنات، وما ترويه من أخبار، وما تحكيه من قصص، حتى إذا استبانت حدودها، واستعلنت ملامحها، وظهرت صورتها، وتميزت قسماتها. حاورت نصوصها بلو ولماذا وكيف ثم أردفتها بلعل وأخواتها، طامعاً في اكتشاف سر الجمال فيما أظهرت وروعة البيان حيث تعطرت ثم استأذنتها للسمر معها، فإذا بها تكني عن سر مكتوم خلف الرسوم، وأومأت لي إلى مفتاح أبوابه فإذا هي حروف المعاني وآثارها وصياغة الأفعال وأستارها وتقديمها وتأخيرها إلى غير ذلك من أدوات العربية وآلاتها فدعاني الولع بها أن أخلو وإياها في ساعات من الليل آخره، توسلت إليها بمن أنزلها أن تدخلني في محارمها لتلقي حجابها، وتكشف سترها وبعد أن أخذ مني الطمع كل مأخذ، سارقتها النظر، فكلما وقعت عيني على طرف من زينتها، قلت: باسم الله، وتناولت ما وصلت إليه يدي، وأسعفت فيه آلتي، واحتالت عليه حيلتي، فجمعت ما التقطت في هذا المجموع مما زعمت فيه أنه نهاية جهدي وغاية أمري وحسبي أني أعترف أنَّ في قرائي من هو أطول يداً وأكمل آلة وأوسع حيلة.

طريقتي في تحليل النصوص

أجمل لقرائي طريقتي في تحليل النصوص في النقاط الآتية:

أولاً: تركتُ الحديث عن أسباب النزول إلا فيما مست إليه الحاجة أو دعت إليه الضرورة لأن أسباب النزول غير ما أنا بسبيله من قانون التحليل.

ثانياً: ألقيت جميع ما عندي من أفكار وآراء مسبقة عن النص، وطرحت نفسي أمامه، يخاطبني خطاب من لم يسمع عنه شيئاً، وفتحت له آفاق نفسي كلها، فإذا تأدى إليَّ معنىً أو أكثر من معانيه عارضت ذلك بما تأدَّى إلى من سبقني حسب ما يسمح به الزمان والمكان وسجلت ما أحسب أنه راجحاً بعد ذكر ما تأدَّى من المعاني إلى غيري إن رأيت في ذلك مصلحة.

ثالثاً:عمدت إلى إعادة الكلم إلى جذورها، أستقصي حقائقها؛ مجردة ومزيدة لأتعلم سر نقلها وانتقالها.

رابعاً: رزت حروف المعاني مع عمالها في سياقها فأثبتُّ ما عنَّ لي أنه الأقرب إلى تأدية المعنى وأنا على يقين أن ذلك من مطارح العراك لغة وبياناً.

خامساً: أجهدني تقليب كلمات الجمل تقديماً وتأخيراً ،صلة وحذفاً، عطفاً وذكراً، لأقرر سر العدول عن جميع هذه الوجوه إلى صورة النص في صياغته.

سادساً: كنت آخذ ما تأدى إليَّ من المعنى وأحاول صياغته في صورة أخرى لأضع يدي على سر الإعجاز في الإيجاز فأثبته.

سابعاً: حضرت بما عندي من الموروث الثقافي، أستعين به في اكتشاف مخزون النص، فكانت معارفي على تواضعها لا تبخل عليَّ في الإيماء إلى معنىً أو الإشارة إلى سرٍ أو إلى الاثنين معا.

ثامناً: سافرت إلى عصر نزول النص أستقرئ أثره النفسي والاجتماعي والعسكري يوم نزوله والإعلان به وسجلت بعض ذلك تدريباً للطالب وجلاءً لوجه من وجوه التحليل بعد أن تراكم عليه غبار الزمن.

تاسعاً: كثيراً ما كانت تضعف أدواتي في فتح كنوز النص فأطلب العون من كل ما أتوهم فيه معيناً فإذا أعياني الطلب طرحت نفسي بين يدي ربي بالافتقار والعجز وبالاستغفار والإنابة متوسلا ضارعا، فكانت أحياناً تشرق على روحي وعقلي بعض أنوار المعاني في النص أحسُّ أنها كانت قريبة مني فلم أرها فأسارع إلى تدوينها مخافة احتجابها ثانية.

عاشراً: نظمت ما قصدت إلى تحليله من آي آل عمران في أربعة عشر فصلاً يحتوي كل فصل من الآيات ما أتوهم أن بينها آصرة، وأوسعت لها صدر الفصل لتكون أول ما يباشرها النظر ويعانقها اللقاء .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

التمهيد

في معنى التفسير التحليلي

نقدم فيه تعريفاً باسم الكتاب وعنوانه من الناحيتين اللغوية والاصطلاحية ليكون القارئ على بينة مما قصدنا إليه في هذا الكتاب، ونتبعه بتمهيد حول سورة آل عمران عموماً.

أولاً: التعريف اللغوي:

اسم الكتاب مركب من كلمتين ــ التفسير والتحليل ــ ومعرفة المركب متوقفة على معرفة أجزائه لهذا جعلنا لكل كلمة منهما تعريفها الخاص بها.

أ- كلمة التفسير:

التفسير: مصدر الفعل المضعف ــ فسّرــ فهو من باب التفعيل جاء في المغني في تصريف الأفعال:" أن الأغلب في فعّل أن يكون للتكثير إما في الفعل نحو: جوّلتُ وطوّفتُ أي أكثرت الجولان والطواف أو أن يكون في الفاعل نحو: موّتتْ الإبل أي كثر فيها الموت أو يكون التكثير في المفعول نحو: غلّقت الأبواب أي الأبواب الكثيرة ولهذا لم يجز: غلّقت الباب"(١)، وعلى هذا فكلمة التفسير فيها دلالة على الكثرة في الفعل والكثرة في المفعول ولا تدل على كثرة الفاعل إلا بتكلف، هذا هو المعنى الصرفي للكلمة، وإليك المعنى القاموسي، يقال: فسّر الشيء أي أبانه، والفسر: البيان وكشف المغطى؛ويقال:"فسرتْ الحبة أي ظهرت إذا نبتت وبانت على وجه الأرض"(٢).

ب- كلمة التحليل:

التحليل: مصدر الفعل المضعف ــ حلّل ــ وهو من باب التفعيل أيضاً فيأتي

(١) المغني في تصريف الأفعال:ص:١٠٧-١٠٨.

(٢) اللسان ج١، ٢٦١.

فيه ما ذكرنا في التفسير فأغنى عن إعادته، وأما المعنى القاموسي لكلمة التحليل فهو التجزئة والتفكيك تقول: "حلّ العقدة أي فتحها ونقضها"[١] فإذا أردت التكثير قلت: حلَّل العقد أي فككها.

ثانياً: التعريف الاصطلاحي:

"التفسير التحليلي" هو تبيين معاني الكلم القرآني إفراداً وتركيباً بواسطة تفكيك الآيات والجمل والكلمات إلى أجزائها ليعطى كلُّ جزء ما تستحقه من البيان.

ثالثاً: **سورة آل عمران:** مدنية وآياتها مائتان

أسماء سورة آل عمران: "الزهراء، الأمان، الكنز، المعينة، المجادلة، سورة الاستغفار، طيبة"[٢]

سبب نزولها عند الجمهور: "أنه وفد على رسول الله ﷺ وفد نجران وكانوا ستين راكباً فيهم أربعة عشر من أشرافهم منهم ثلاثة إليهم يؤول أمرهم: أميرهم؛ العاقب عبد المسيح، وصاحب رحلهم؛ السيد الأيهم، وعالمهم؛ أبو حارثة بن علقمة، أحد بني بكر بن وائل، وذكر من جلالتهم وحسن شارتهم وهيأتهم وأقاموا بالمدينة أياماً يناظرون رسول الله ﷺ في عيسى عليه السلام ويزعمون تارة أنه الله وتارة أنه ولد الإله، وتارة ثالث ثلاثة ورسول الله ﷺ يذكر لهم أشياء من صفات الله تعالى وانتفائها عن عيسى عليه السلام وهم يوافقونه على ذلك ثم أبوا إلا جحودا ثم قالوا: يا محمد ألست تزعم أنه كلمة الله وروح منه؟ قال "بلى" قالوا: فحسبنا فأنزل الله فيهم صدر هذه السورة إلى نيف وثمانين آية منها، إلى أن دعاهم رسول الله ﷺ إلى الابتهال"[٣].

---

(١) اللسان: ج٣،ص:٣٠٠.

(٢) البحر المحيط:ج:٣، ص:٩.

(٣) المصدر نفسه:ج٣،ص:٩.

الفصـــل الاول

في أدلة الوحدانية

والرسالة

الفصل الأول
في أدلة الوحدانية والرسالة

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ الآيات(١-٦)

﴿الٓمٓ﴾

الحروف المقطعة جميعها لا يدخلها التحليل بأي شكل من أشكاله فلا مجال لإدخالها في موضوعنا هذا لذا رأينا أن نتخفف الحديث عنها.

﴿ٱللَّهُ﴾

أكثر المفسرين على أن لفظ الجلالة اسم علم للذات الإلهية لأنه لو كان اسماً مشتقاً من أله يأله كما يذهب إليه بعض المفسرين لكانت دلالته على الذات الإلهية من باب دلالة المجمل على أفراده فلا يمتنع صدقه على غير الذات الإلهية وذلك يبطل دلالة كلمة الوحدانية على وحدانية الله تعالى، ضرورة صدق المشتق على المفهوم الكلي من غير تعيين[١]، ويؤيد القول بالعلمية: أن الاسم ـ الله ـ "يجوز وصفه بجميع الأسماء الحسنى والصفات العليا بدون العكس"[٢]، ولو قلنا ان

---

(١) التفسير الكبير ج:١، ص:١٤٣-١٤٤.

(٢) المصدر نفسه.

الاسم ــ الله ــ ليس علماً على الذات لم يبق بأيدينا اسم أخص منه في الدلالة عليها، وبذلك ينبغي أن يكون للذات الإلهية اسم علم يدل عليها وهذا يتعارض مع نص القرآن الكريم قال تعالى:﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴾[١] ولفظ الجلالة ــ الله ــ هو "الاسم الوحيد الذي لم يتسمَّ به غير الله"[٢]، وأقرب أقوال القائلين بالاشتقاق: أنه من إلِه يأله، تقول: ألِه إلى فلان إذا سكن إليه.

وعلى رأيهم أن كلمة -الله - أصلها: الإله، فحذفت الهمزة للتخفيف فصار: الله ولو كان ما يذهبون إليه صحيحا لكان نظم الآية مرتبكاً فكيف يصح النظم فيها على هذا المعنى: الإله لا إله إلا هو، وسواء قلنا إن الألف واللام للجنس أو للعهد فلا يخرجنا من هذا الارتباك.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾

من المتفق عليه عند علماء اللغة، إن الإثبات بعد النفي هو من أقوى صيغ الحصر وذلك أن النفي للجنس فيكون المعنى: لا اله موجود إلا هو أو لا إله في الوجود إلا هو.

﴿ٱلۡحَيُّ﴾

أصل حيٍّ: حَيْيٌ بياءين فأدغمت الياء في الياء وقيل أصلها: حَيْوٌ فاجتمعت الياء والواو وكان السابق منهما ساكناً فقلبت الواو ياءً وأدغمت الياء في الياء[٣].

---

(١) مريم:٦٥.

(٢) التفسير الكبير: ج١، ص:١٤٣-١٤٤.

(٣) المصدر نفسه ج٣، ص:٨.

وتطلق الحياة على كل من يصح منه أن يعلم ويقدر هذا قول المتكلمين وذكره الرازي رحمه الله واعترض عليه بأن هذا المعنى لا يصح أن يكون صفة مدح يمدح بها الله تعالى لأن هذا المعنى للحياة تتصف به الحيوانات بله الإنسان فكيف يمدح به الخالق جل شأنه؟ وأجاب رحمه الله تعالى بما يأتي:"إن الحي في أصل اللغة ليس عبارة عن هذه الصحة بل كل شيء كان كاملاً في جنسه فإنه يسمى حياً ألا ترى أن عمارة الأرض الخربة تسمى: إحياء الموات. قال تعالى: ﴿يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآ﴾ [١]، إلى أن قال رحمه الله:"لأن المفهوم من الحي: هو الكامل ولما لم يكن مقيداً..دل على أنه كامل على الإطلاق والكامل في الحياة أن يكون غير قابل للعدم لا في ذاته ولا في صفاته.."[٢].

والحياة صفة معنوية يتصف بها الخالق والمخلوق نقول عن الخالق إنه حي ونقول عن المخلوق: إنه حي ولكن لما كان الخالق ﷻ واجب الوجود كانت حياته واجبة ولما كان قديماً كانت حياته قديمة ولما كان باقياً كانت حياته باقية وهذا على خلاف اتصاف المخلوق بالحياة فلما كان وجوده جائزاً كانت حياته جائزة ولما كان فانياً كانت حياته فانية ولما كان حادثاً كانت حياته حادثة، وهذا شأن الصفات المعنوية المنسوبة إلى الخالق جل اسمه والتي يصح نسبتها إلى المخلوقين يجب ملاحظة هذا الفارق فيها، ولعل تحلية الاسم – حي- بالألف واللام الدالان على الكمال هي التي جعلت هذه الصفة من الصفات التي مدح بها الخالق نفسه.

---

(١) الروم:٥٠.

(٢) التفسير الكبير ج:٣،ص:٩.

﴿ٱلْقَيُّومُ﴾

قيوم: صيغة من صيغ المبالغة أصلها: قيووم فقلبت الواو الأولى ياءً وأدغمت في الياء،قال مجاهد: القيوم: "القائم بتدبير أمر الخلق إيجاداً ورزقاً وغير ذلك"[1]، ويأتي في القيوم ما ذكرناه في الحي من أن الألف واللام فيه للكمال وأن هذا الإسم يدل على قيومية الحق أزلاً وأبدا وأن قيوميته واجبة لذاته ﷻ بخلاف اتصاف المخلوقين بهذه الصفة، وجاء في قراءة ــ القيَّام ــ وهي أيضاً من صيغ المبالغة ولكنها أقل من القيوم ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾

﴿نَزَّلَ﴾

من المزيد على الثلاثي: نَزل بحرف واحد الذي هو التضعيف وإنما جاءت هذه الزيادة لتعذر نسبة النزول إلى القرآن نفسه فلا يقال: نزل القرآن، وإنما اختيرت نزّل على أنزل وكلتاهما تفيد التعدية لأن نزّل تفيد التكثير ومن المعلوم أن القرآن أنزل منجماً في ثلاث وعشرين سنة وللدلالة على مكانة القرآن الكريم وشدة حمله وإنزاله كما نقول حمَّلت زيداً كذا إذا كان ما حملته ثقيلاً ومنه قوله تعالى:﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾، وللتفريق بين القرآن الكريم وبين الكتابين ــ التوراة والإنجيل ــ لأن الثلاثة جاء ذكرهم في هذه الآية.

وقد يزاد على هذا أيضا أنّ أنزل تعني مصاحبة المُنزِل للمُنزَل بخلاف نزل، والقرآن لا يتأتى فيه ذلك لعدم تحمل الطاقة البشرية حمله مرة واحدة

---

(١) التفسير الكبير: ج:٣، ص:٩.

ومصداق هذا قوله تعالى:﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ ومصداقه أيضاً ما كان يطرأ على النبي ﷺ حين يتلقى القرآن من الشدة والضيق حتى إنه ليتفصد عرقاً في اليوم الشديد البرد كما حكت ذلك أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

﴿عَلَيْكَ﴾

قدم الجار والمجرور للاختصاص أي نزّل عليك لا على غيرك، وفيه رد على الغلاة الذين يقولون إن القرآن أنزل على علي ﷺ ولكن جبريل انحرف فيه إلى محمد ﷺ والشيعة الإمامية يتبرءون من هذا القول ومن قائله.

و(على) من حروف الجر التي تفيد الاستعلاء ولا يخفى ما يفيده هذا الحرف في هذا الموقع حيث التنزيل من الخالق إلى المخلوق ومن الكلام الإلهي إلى لغة البشر، والكاف فيها كاف المخاطب، والخطاب مباشرة من الخالق إلى محمد ﷺ وهي تفيد التخفيف من ظل الوسيط ــ جبريل ﷺ ــ وتوصل المخاطَب بالمخاطِب.

﴿الْكِتَابَ﴾

الفعل الثلاثي كَتَبَ يكتُبُ من باب نَصرَ ينصُرُ، والمصدر كَتباً وكتاباً وكتابة قال في المختار: والكتاب أيضا: "الفرض والحكم والقدر"[1]، والكتاب هنا: القرآن لأن أل فيه للعهد والمعهود إنما هو القرآن لا غير.

﴿بِالْحَقِّ﴾

يميل أكثر المفسرين الى أن هذه الكلمة ــ بالحق ــ صفة للقران مثلها مثل

(١) مختار الصحاح: ص ٢٣٦

الكلمة التي تليها "مصدقاً"، يقول الإمام الرازي: "واعلم أنه تعالى وصف القرآن المنزل بوصفيـــن: **الوصف الأول:** قوله ــ بالحق ــ قال أبــو مسلم إنــه يحتمل وجوهاً: **أحدها:** أنه صدق فيما تضمنه من الأخبار عن الأمم السابقة.

وثانيها: أن ما فيه من الوعد والوعيد يحمل المكلف على ملازمة الطريق الحق في العقائد والأعمال ويمنعه عن سلوك الطريق الباطل.

وثالثها: أنه حق بمعنى أنه قول فصل وليس بالهزل.

ورابعها: قال الأصم: المعنى أنه تعالى أنزله بالحق الذي يجب له على خلقه من العبودية وشكر النعمة وإظهار الخضوع، وما يجب لبعضهم على بعض من العدل والإنصاف في المعاملات.

وخامسها: أنزله بالحق لا بالمعاني الفاسدة المتناقضة كما قال ﴿ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴾ وقال: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾.

وهم يميلون إلى اعتبار الباء زائدة ويؤولون الآية على معنى: محقاً مصدقاً، وكلمة حق مصدر حقَّ يحقُّ حقاً ومعناها ثبت ومنه الحديث:(حق الغريم وبرئت ذمة الميت) والحق ضد الباطل والحق: الثابت والواقع،والإخبار عن الحق يقال له صدق.

والذي أراه في معنى هذه الكلمة ــ بالحق ــ أن الباء ليست زائدة وأن المعنى على تقدير ــ حاكماً بالحق ــ لا سيما وأن دلالة الحكم مأخوذة في لفظ الكتاب كما ذكرنا سابقاً.

﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾

يقال: صدق زيد إذا أخبر عن حق وواقع، ويقال: صدَّق زيد خالداً؛ إذا نسب خالداً إلى الصدق فيما أخبره به، ويقال: صدَّق زيدٌ لخالدٍ ما أخبر به؛ إذا أثبت زيد أن ما قاله خالد صدقاً، أي أن القرآن نزل ليحكم بالحق ويثبت صدق الأنبياء والمرسلين وصدق ما أنزل عليهم من ربهم في وقت يعجز المنسوبون إلى الديانات السابقة عن إثبات صدق أنبيائهم ورسلهم وكتبهم المنزلة من عند الله.

وبذلك يكون القرآن هو الحجة الوحيدة الباقية أبد الدهر لجميع الأنبياء والمرسلين ولجميع ما أنزل عليهم من كتاب، كل ما وقع من معجزة لأي نبي أو رسول لا يمكن قيام الحجة به الآن على أحد من الناس إلا عن طريق القرآن والقران وحده، ولهذا كان القرآن شاهداً على الكتب كلها وكان محمد ﷺ شاهداً على صدق الأنبياء والرسل جميعاً وكانت أمة محمد ﷺ شاهدة على الأمم قـال تعالـى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ .

﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾

الخطاب خطاب الحق ﷻ أرسل الرسل قبل محمد ﷺ وأنزل الكتب قبل تنزيل القرآن ، ولهذا صح أن يقال عنها وعنهم بين يديه.

﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾

أنزل وليس نزّل، بالنسبة للتوراة والانجيل، وكأنها طريقة القرآن الكريم عندما يذكر النزول للقران ولغيره من الكتب في آية واحدة يستعمل نزّل للقران وأنزل لغيره، ولكنه عندما يتحدث عن القرآن فقط يستخدم صيغة أنزل وليس نزّل كما في قوله تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾.

﴿ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾

قال الزمخشري في الكشاف:" إسمان أعجميان، وتكلف اشتقاقهما من الوري والنجل ووزنهما بـــ(تفعلة وإفعيل) إنما يصح بعد كونهما عربيين قال: وقرأ الحسن: الأنجيل بفتح الهمزة وهو دليل على العجمة لأن أفعيل بفتح الهمزة عديم في أوزان العرب" قال الرازي: واعلم أن هذا القول هو الحق الذي لا محيد عنه".

﴿مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾

﴿مِن قَبْلُ ﴾

أي من قبل أن ينزل القرآن، وفي ذلك إقامة الحجة على النصارى كأن الله يقول لهم: هذه سُنّتنا في هداية الناس ننزل الكتاب بعد الكتاب ونرسل النبي بعد النبي ولو كانت حجتكم مقبولة في عدم إنزال كتاب بعد كتابكم لسرى ذلك إلى دحض حجتكم في إثبات كتابكم فإن أهل التوراة سيقولون لكم ما تقولون عن إنزال القرآن، فإفادة هذه الكلمة ــ من قبل ــ مع نصيِّتها على الزمن تدل على هذا المعنى، وهكذا جاءت إضافة القبلية إلى الزمن فقط كأنه يقول: من قبل ذلك، ولو قال من قبله لأمكن استشعار قبلية الرتبة على القرآن وهذا لا يتناغم مع ما قاله قبل ذلك ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ لتنصيص هذه على حاكميته على الكتابين وتصديقه لهما فهما بحاجة إليه في كلا الأمرين.

﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾

هدىً: أي دلالة لمن يريد أن يستدل أن الكتب ترسم الطريق وتضع عليه السيما والعلامات؛ إنها تشير إلى الخطأ وتسميه باسمه، وتنصح بالصدق والعدل

وتحضٌ عليه، إنها هادية فعلاً فمن أراد الهداية اهتدى ومن أراد الأخرى فلا يلومنّ إلا نفسه.

﴿هُدًى﴾

لأنه ﷻ الهادي ومن يمكنه أن يهدي المخلوق إلا خالقه!!؟ وهل يحرص على هداية المملوك إلا مالكه!!؟. فهو هدىً خاص بهم أنزل بلغاتهم وأعرافهم وتقاليدهم ولو تقدمت اللام على كلمة هدى لضاع هذا المعنى.

﴿لِّلنَّاسِ﴾

فهو ملك لهم وخاص بهم وهم المقصودون به أولاً قبل غيرهم، قال صاحب المختار: النّوس تذبذب الشيء، وبابه: قال. وأناسه غيره. وهذا يعني أن الفعل: ناسَ فعل لازم تقول: ناس فلان إذا تذبذب وتقول: أناس زيدٌ خالداً إذا كان زيد هو الذي جعل خالداً يتذبذب، وقال صاحب المختار: ناس أصله أناس مخفف، ولما كانت هذه التسمية تدل على مطلق التذبذب قال صاحب المختار: والناس قد يكون من الأنس ومن الجن[1] فالكتب تهدي وتدل وترشد الجميع والناس هم الذين يختارون ويقررون انطلاقاً من إيمانهم بالكتاب الهادي وعدم إيمانهم به.

﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾

اختلفت كلمة المفسرين في المراد هنا بالفرقان وكما يأتي:

أ- أن الفرقان هنا هو الزبور قال تعالى﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾.

ب- أنه القرآن وإنما أعاده تعظيما لشأنه أو أن الله أعاد ذكره ليؤكد ما سبق من

---

(١) مختار الصحاح: ص:٢٨٥

أنه الحاكم بالحق بين الكتب فيما اختلفت فيه وأنه هو الذي يصدقها ويثبت إنزالها من الله.

ج- أنه شامل للكتب الثلاثة لأنها فرقت بين الحق والباطل.

واستبعد الإمام الرازي كل هذه الأقوال بدليل أن الزبور ليس فيه شيءٌ من الشرائع والأحكام بل هو مقتصرٌ على المواعظ، وحمل الفرقان على القرآن ترده قواعد اللغة إذ من ضرورة عطف الفرقان على القرآن مغايرة المعطوف للمعطوف عليه، وهذا الدليل يبعد القول الثالث لأن كون الكتب الثلاثة فارقة بين الحق والباطل صفة لهذه الكتب وعطف الصفة على الموصوف بعيد عن وجه الفصاحة والبلاغة اللائقة بكلام الله تعالى ثم تمخض الإمام عن رأي رابع فقال:

د- والمختار عندي في تفسير هذه الآية وجه رابع وهو أن المراد من هذا الفرقان المعجزات التي قرنها الله تعالى بإنزال هذه الكتب. قال رحمه الله: "وهب أن أحداً من المفسرين ما ذكره إلا أن حمل كلام الله تعالى عليه يفيد قوة المعنى"(١) وهذا يمكن القول به فيما يخص التوراة والإنجيل لأن المعجزات التي دلت على صدقها خارجة عنها ــ إذا كان ذلك مسلما به ــ أما القرآن الكريم فإعجازه صفة من صفاته فيكر عليه دليله السابق بالإبطال.

﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾

جاءت هذه الكلمة في القرآن الكريم في المواضع الآتية:

١. في سورة البقرة آية ٥٣ قال تعالى:﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

---

(١) التفسير الكبير: ج٣،ص:١٣٣-١٣٤.

٢. وفيها أيضاً آية ١٨٥ قال تعالى :﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ...﴾ .

٣. الآية التي معنا في سورة آل عمران.

٤. في سورة الفرقان الآية الأولى قال تعالى :﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾.

٥. في سورة الأنفال آية ٤١ قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

٦. في سورة الأنبياء الآية ٤٨ قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾.

٧. في سورة الأنفال الآية ٢٩ قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾.

وبعد أن أحصينا مواضع الكلمة في الكتاب الكريم ينبغي لنا أن نتبين معناها في معاجم اللغة، قال في المختار: فَرق بين الشيئين من باب نَصَرَ، فيكون المصدر من فرق كالمصدر من نصر وهو ـــ فرقا. وقال: وفرقاناً أيضاً[(١)]. وبهذا يتبين لنا أن كلمة فرقان مصدر ومعلوم بداهة أن المصادر كالعلم والحياة من الأمور المعنوية التي لا وجود لها في الخارج إلا من خلال الأشخاص المتصفين

(١) مختار الصحاح: ص:٢١١.

بها فيقال فلان عالم وحي ولا يقال فلان علم وحياة إلا على ضرب من ضروب المجاز، ويقال بناءً على ذلك أن التوراة والإنجيل والقران كلاً منها فارق بين الحق والباطل باعتبار ما فيها من الحكم بالحق وإقامة العدل والميزان فالحكم بالحق جزء من كل منها وليس كلها، وإذا كان ما نذهب إليه صحيحاً كان معنى كلمة الفرقان في هذه الآيات أقرب مأخذاً وأبعد عن مواطن الضعف والله أعلم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾

تقول كفرت الشيء إذا سترته فالكافر الساتر ولهذا يقال لقشر الطلع: كُفُرَّى لأنه يستر ما تحته ويسمى الزراع كُفاراً لأنهم يسترون الحب في الأرض ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾[1]، وهذه الآية تهديد لأهل الكتاب ولا سيما النصارى الذين نزلت هذه الآيات بسببهم.

والآية: العلامة والمقصود هنا الآيات الموجودة في كتبهم الدالة على نبوة محمد ﷺ.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾

لهم: التعبير باللام في هذا الموقع جاء ليدل على أن هذا النوع من العذاب الشديد من اختصاصهم فكأنه لهم دون غيرهم، وهو لهم ثابت متحقق في الدنيا والآخرة على السواء فالكاذب يكفيه من العذاب والألم علمه أنه كاذب أوَّلاً وتخوفه على كذبه ثانياً ورد أقواله وحتى الصحيحة منها لاختلاط صدقه بكذبه ثالثاً وهي مراحل من ظلمات النفس بعضها فوق بعض.

﴿عَذَابٌ﴾

---

(١) النمل: ١٤.

يقال عذب الماء إذا زالت الأخلاط العالقة به والعذاب على هذا هو زوال الأخلاط[1]، والعقوبة كما يقول أرباب القانون الجنائي هدفها الإصلاح والتقويم وليس الانتقام أو إيقاع الأذى على الجاني. فتسمية عقوبة الذين يكفرون بآيات الله بالعذاب تقرب من هذا المعنى وتلك سنة الله في أجزية المنحرفين عن الطريق القويم.

﴿شَدِيدٌ﴾

يقال :شيء شديد إذا كان بالغ القوة، ومنه قوله تعالى:﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ ﴾[2]، أي قوته، ويقال: شدَّه إذا أوثقه[3] ووصف العذاب بالشدة دليل على أن هؤلاء الذين كفروا بآيات الله يحيط بهم الأذى من كل جهة من داخل أنفسهم ومن خارجها فهم موثقون به وثاقاً شديداً.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾

خالف بين الوصفين فالعزيز صفة ذات ولهذا قال: والله عزيز ولم يقل: والله عزيز منتقم لأن الانتقام صفة فعله وليس صفة ذاته فلا ينسب هذا الاسم للرب تعالى مثل نسبة العزيز فليس هو جل جلاله بدائم الانتقام حتى يصح أن يقال في صفته إنه منتقم، والعزيز الغالب "ذو انتقام" أي صاحب انتقام. يقال: نقم عليه أي

---

(١) لسان العرب: ج:٩، ص:١٠٠.

(٢) الأحقاف ١٥.

(٣) مختار الصحاح: ص:١٤٣.

عاتبه ونقمه أي كرهه وانتقم منه أي عاقبه[١] فجاء الحق ﷻ بهذه الصيغة لتشمل الوجوه الثلاثة فهو يعتب عليهم ويكرههم ويعاقبهم.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾

﴿ إِنَّ ﴾

حرف تأكيد وإنما جيءَ به هنا لأن الذين كفروا بآيات الله تصرفوا تصرف الجاهل بعلم الله فنزّل عدم اكتراثهم بعلم الله بهم منزلة المنكر.

﴿لَا يَخۡفَىٰ﴾

لا: قال الجوهري: حرف نفي لقولك يفعل ولم يقع الفعل[٢]، ولا النافية إذا دخلت على الفعل المضارع يمكن أن يراد به نفي الفعل في جميع أجزاء المستقبل أو يكون المراد به نفي الفعل في بعض أجزاءه ، فلو قال لك شخص: قم، فقلت: لا أقوم. كان النفي صالحاً لتأبيد النفي ولعدم تأبيده[٣]، ويتعين التأبيد من عدمه بالقرائن، وذلك لأن الفعل المضارع بحسب وضعه يكون شائعاً ثم يعرض له التخصيص بحسب ما يلحق به[٤].

﴿عَلَيۡهِ﴾

يقال خفي عليه إذا طلبه فلم يجده، وهو معنى الاستعلاء في الخفاء.

﴿شَيۡءٞ﴾

---

(١) انظر مختار الصحاح: ص:٢٨٣.

(٢) لسان العرب ج١٢، ص:٢٠٨

(٣) محيي الدين عبد الحميد على أوضح المسالك ج:٤، ص:١٤٩-١٥٠.

(٤) نفس المصدر ج٤، ص:١٤٥.

نكرة بل أنكر النكرات فتدل على كل موجود صغيراً كان أو كبيراً.

﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾

في يدل على الظرفية في كل شيء بحسبه، فلا يتخصص بما بطن في الأرض أو في السماء.

﴿وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ كررت لا في هذا الموضع للدلالة على عدم إمكان الخفاء في أي منهما، ولو لم يقل ولا في السماء لأمكن تفسيرها بأن النفي وارد على المجموع لا على كل منهما[١].

﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾

جاءت هذه الآية دليلاً للآية التي قبلها ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٌ ﴾ فإذا كان هو ﷻ يصورنا في الأرحام فكيف يخفى عليه شيء في الأرض أو في السماء؟! والتعبير بـــ- هو- في افتتاح الآية وهو من ضمائر الفصل يدل على الحصر في هذا التصوير. فيكون المعنى: هو الذي يصوركم في الأرحام..... لا غيره، وكلمة الذي بعد ضمير الفصل جاءت كذلك لتؤكد هذا الحصرـــ هو الذي ـــ يصوركم: الفعل الثلاثي المجرد صار ـــ وأصله، صور، من باب قال أو صَوَرَ يَصْوِر من باب باع. يقال: صَوَّر الطين إبريقاً إذا جعله على صورة الإبريق .

ويقال أيضاً :صار الطين ابريقا ،اذا تحول الى صورة ابريق،ولكن صار هنا من اليائي فأصلها صَيرَ يَصْيِرُ الدالة على الإحالة[٢]، فيصورنا هو ﷻ لأننا لا يمكن أن نصير على صورة دون أخرى بدون مصور يقوم بتصويرنا على كيفية

(١) لسان العرب ج١٢، ص:٢٠٨.

(٢) مختار الصحاح ص:١٥٩.

من الكيفيات الممكنة، فلا يقال: صار زيدٌ نفسه طويلاً أو أبيضَ أو غير ذلك من الكيفيات ضرورة انتساب الأثر إلى مؤثر.

ومن المعلوم أن الفعل المضارع يدل على الحال والاستقبال، والمخاطبين قد تم تصويرهم فكان الظاهر أن يأتي الفعل على صيغة الماضي – هو الذي صوركم – فلماذا هذا العدول من صيغة الماضي إلى المضارع؟ فنقول في الجواب:

أولاً: لتدل الآية على التجدد في كل لحظة لأنه ما من فرد من أفراد الزمن إلا ويتم فيه تصوير جنين في بطن أمه.

ثانياً: لتكون الكلمة دليلا على أن ذلك سنة من سنن الله الدائمة مثل قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

ثالثاً: أن الخطاب الإلهي أزلي ونحن كنا من جملة المعلومات بالنسبة للعلم الإلهى فكأنّ الله يخاطب معلوميتنا له بهذا الخطاب قبل أن نأخذ صورتنا الخارجية.

﴿فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾

أي أن الأرحام هي الظرف لهذا التصوير.والأرحام جمع رحم. وسمي الرحم رحما لأن الذين ينزلون من رحم واحدة يكونون متراحمين فيما بينهم.

﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾

الكيف يعم جميع الأحوال الخلقية وعلقت عملية التكييف بالمشيئة الإلهية والمشيئة الإلهية لها عموم الحكم والنفوذ فليس بمقدور شيءٍ أن يعارض هذه المشيئة فما شاء الله أن يكون كان وما شاء الله أن لا يكون لم يكن، وما شاء الله فيه خيرة عبده ومشيئته كان موكولا لمشيئة عبده وخيرته.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾

لا: لنفي الحقيقة مطلقاً أي أن حقيقة إلهٍ غير الله غير موجودةٍ أصلاً ولهذا لا يصح أن يتوجه النهي إلى شيءٍ أن لا يكون إلهاً لعدم إمكان أن يكون شيءٌ إلهاً غير الله الإله الواحد الأحد؛ وإعادتها للتأكيد.

﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

العزيز: الغالب الذي لا يغلبه شيءٌ هو خالقٌ كلَّ شيءٍ فكيف يغلبه شيءٌ ؟ والحكيم في هذا التصوير فلا أحكم منه، لأنه القادر على أن يعطي كلَّ مخلوقٍ صورته التي لا يشترك معه فيها غيره ممن مضى ولا ممن يأتي هو مصور الجميع فلا تختلط المخلوقات لتمايز صورها فلو كان المصور غيره لاحتاج استحضار صور العالم كله منذ بدايته إلى حين نهايته ليختار صورةً جديدةً تمتاز عن غيرها.

وفي هذه الآية بكل فقراتها ردٌّ على النصارى في عقيدتهم المنحرفة بعيسى عليه السلام فالذي صُوِّر في رحم أمه على الكيفية التي أرادها الله لا يصح له يصح له منازعة الألوهية في أحكامها.

الفصل الثاني

في المحكم والمتشابه
وموقف أهل الأيمان وأهل
الزيغ منهما

الفصل الثاني

في المحكم والمتشابه وموقف أهل الأيمان وأهل الزيغ منهما

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ ال عمران: ٧ -٩.

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ﴾

﴿أَنزَلَ﴾

من الثلاثي المزيد همزة من أجل التعدية لأن الفعل الثلاثي ــ نزل ــ فعلٌ لازم فلا يصح تعديته إلا بالزيادة في بنائه إما بالتضعيف أو بالهمزة، وإنما جاء هذا التلوين في التعبير عن إنزال القرآن الكريم حيث جاء مرةً ــ نزّل ــ بالتضعيف ومرة بالهمزة ليدلّ على أنّ هذا الكتاب لا يصح أن ينزل بنفسه بل لا بدّ من مُنزلٍ له فقال :أنزل وليدل على شدة التنزيل وثقله قال: نزّل وفيه إشارةٌ إلى اختلاف طرق التنزيل وصوره وأشكاله فجاء بالطرق الجائزة في تلوين الفعل والله أعلم.

﴿عَلَيْكَ﴾

أي لا على غيرك، وفيها ردٌّ على الطوائف الشاذة التــي تتوهم المشاركة في التنزيل أو أن الأولى كان إنزاله على كذا الــى غيــر ذلك ممــا يختلقه أعداء

الإسلام قديماً وحديثاً، والخطاب يزيل الوحشة بين المخاطِب و المخاطَب لإشعاره بالقرب.

﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾

أي القرآن باتفاق المفسرين[1].

﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ﴾

مبتدأ وخبر و"من" هنا للتبعيض أي بعضه محكمٌ والآخر متشابهٌ.

﴿مُّحْكَمَٰتٌ﴾

المحكم مأخوذٌ من قولك :أحكمت الشيء إذا أتقنته.

﴿ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾

أي متقناتٌ في دلالتها على معناها بحيث لا يختلف اثنان في دلالتها على المعنى الذي سيقت له.

وهذه الآيات تمثل ضروريات الإسلام في كل باب من أبوابه المختلفة فلا يختلف المسلمون في وجوب الصلاة ولا في وجوب الزكاة ولا في وجوب الحج إلى غير ذلك من واجبات الإسلام التي علمت من الدين علماً ضرورياً ومثل الواجبات جميع المحرمات في الإسلام مما يستوي في العلم بها الجاهل والعالم.

قد يختلف العلماء في تكييف حكم شرعي ولكنهم لا يختلفون في النص الحاكم لأنه محكمٌ كوجوب الصلاة والزكاة والحج وقطع يد السارق وتحريم الربا و..و.. إلى جميع فرائض الإسلام فانظر هل أنت واجدٌ بين علماء المسلمين من يختلف فيها؟ كلهم يقول:حكم الله في السارق قطع اليد مثلاً والخلاف إنما هو في

(١) التفسير الكبير ج٣، ص:١٤٢،. البحر المحيط ج:٣، ص:١٦.

تكييف الحكم لا في النص الحاكم، إن هذا الاختلاف أمرٌ تقتضيه طبيعة اللغة الإنسانية والطبيعة البشرية والقدرة على الإحاطة بكل محتملات النص كل قوانين البشرية فيها جانب محكم وجانب غير محكم ولا يمكن أن يكون الأمر إلا هكذا.

﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾

أمُّ الشيء أصله ويقال لمكة أم القرى لأنها الأصل لجميع القرى التي حولها(١).

﴿أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾

لما كانت الآيات المحكمات معلومة الدلالة على معانيها والمتشابهات ليست كذلك وجب الرجوع إلى الأصل المتفق عليه إذا حصل أي اختلاف في فهم المتشابه لأن المحكمات هُنَّ الأم التي يُرجع إليها أو هي كالأم للمتشابه.(٢)

﴿هُنَّ﴾

استخدم القرآن ضمير العاقل ــ هن ــ للآيات المحكمات تنزيلا لهنَّ منزلة من يعقل لإتقانهن وإحكامهن.

﴿وَأُخَرُ﴾

جمع أخرى وأخرى تأنيث آخر و(آخر) أصلها:أأخر على صيغة أفعل التفضيل، وأفعل التفضيل يستعمل إما مع من أو مع الألف واللام فيقال:زيد أفضل من عمروٍ أو زيد الأفضل فكان القياس أن يقال: زيد آخر من عمروٍ أو زيد الآخر بمعنى: الأكثر أو الأشد آخريةً إلا أنهم حذفوا منه لفظ مِن لأن لفظ آخر يقتضي

---

(١) مختار الصحاح:ص:١٨.

(٢) التفسير الكبير ج٣ ص١٤٢.

معنى مِن فاسقطوها اكتفاء بدلالة لفظ آخر عليها وبما أن الألف واللام يتعاقبان مع من على الدخول على آخر فسقط الألف واللام أيضا فلما جاز استعمال آخر بدون الألف واللام صار أُخر فترك جمعه فصارت هذه اللفظة معدولةً عن حكم نظائرها في سقوط اللألف واللام عن جمعها ووحدانها[١] .

﴿مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾

هي جمع متشابه يقال:تشابه كذا وكذا اذا كان كلٌّ منهما يشبه الآخر فلا تقال صيغة تفاعل إلا بين اثنين فأكثر ويأتي ما بعدها معطوفاً ومعطوفاً عليه مثل:تخاصم زيدٌ وعمرو أو مثنى أو مجموعا مثل تخاصم الرجلان و تخاصم الرجال وأقرب مثال للمتشابه هو آيات الصفات مثل "يد الله فوق أيديهم"[٢]" فكلمة اليد سواءٌ أُبقيت على ظاهرها أو أُولت بمعنى القوة لن تخرج عن معنى المتشابه لأننا مضطرون في العودة إلى قوله تعالى" ليس كمثله شيء"[٣] فنقول له يد ليست كأيدينا أو له قوة ليست كقوتنا.

ولعل أغرب آيةٍ في باب المتشابه هي قوله تعالى"نسوا الله فنسيهم"[٤] لأن المعنى الظاهر من النسيان هو فقدان العلم والمعنى المرجوح للنسيان هو الترك فلما رجعنا إلى المحكم وجدنا قوله تعالى"وما كان ربك نسيّا"[٥] فعلمنا أن معنى الآية الأُولى تركوا أوامر الله وشرعه فتركهم من حفظه ورعايته ولقد أكثر المفسرون

---

(١) التفسير الكبير ج٣ ص١٤٣.

(٢) الفتح: ١٠.

(٣) الشورى:١١.

(٤) التوبة: ٦٧

(٥) مريم: ٦٤

من سرد الأقوال المختلفة في معنى المتشابه والمحكم ولكن ذلك لا يعنينا ونحن قد وضعنا أنفسنا في دائرة التحليل وسرد الأقوال ليس منه في سبيل ولا قبيل

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾

﴿زَيْغٌ﴾

الميل، يقال: زاغت الشمس أي مالت[1]، في قلوبهم زيغ: إنما يحصل الزيغ بشكٍّ أو جهلٍ ويمكن القول أن القلوب لا تزيغ إلا بعد أن يكون العمل بالخطيئة ديدنا وسلوكا، ومصداقه قوله تعالى: ﴿فلمّا زاغوا أزاغَ اللّهُ قلوبَهُمْ﴾ [2]، وزيغٌ نكرةٌ تصدق على القليل والكثير، والقرينة هنا دالةٌ على أن الزيغ في القلوب مهما كان قليلاً تكون أضراره كبيرةٌ وخطيرةٌ واختلف المفسرون في تحديد الطائفة التي في قلوبها زيغ فقال الربيع هم وفد نجران وقال الكلبي هم اليهود والأصح أنها تعم جميع من يصدق عليه الوصف لأن اللفظ عامٌّ يشمل الجميع وورود الآية على سببٍ لا يقصرها على ذلك السبب فالعبرة كما يقول الأصوليون بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾

اتبع يتبع: تدل هذه الصيغة على التصرف باجتهادٍ ومبالغةٍ وتعملٍ في تحصيل أصل الفعل مثل اكتسب واجتهد[3] فهؤلاء ليس من غرضهم إتباع الكتاب

(١) مختار الصحاح ص:١٢٢.

(٢) الصف:٥.

(٣) المغني في تصريف الأفعال ص:١٢١.

كله بل هم يجتهدون في إتباع المتشابه فقط وأما المحكم فليس مما يهمهم اتباعه بله الرد إليه في بيان المتشابه.

﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾

أي لابتغاء الفتنة أو لطلب الفتنة بجدّ واجتهاد ومبالغة كما تدل عليه صيغة افتعل كما مر بنا في اتبع.

﴿ٱلْفِتْنَةِ﴾

الإختبار والإمتحان تقول: فتنت الذهب إذا أدخلته النار لتنظر ما جودته ولهذا يسمى الصائغ ـ الفتان ـ[1]، وهذا هو الهدف الأول من إتباع المتشابه بل هو الهدف الأصيل في حياتهم يطلبون الضلال والإضلال وإفساد الناس في دينهم والتلبيس عليهم.

﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾

هذا هو الهدف الثاني لاتباعهم المتشابه يتبعون ما تشابه من القرآن بالحرص الشديد وكدّ الأذهان ويبتغون التأويل بنفس الحرص والكد فالصيغة واحدةٌ إتبع وابتغى من المزيد على الثلاثي بالألف والتاء ـ افتعل ـ وقد تأتي هذه الصيغة لتدل على أن معمولها لا يصلح لما عمل من أجله مثل قوله تعالى:﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء﴾[2]، فالكافر لا يكون ولياً للمؤمن لأنه لا تصح ولايته له لاختلاف مسيرة الفريقين وعقيدتهما التي إليها يعودون.

﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾

---

(١) أنظر مختار الصحاح ص:٢٠٧.

(٢) آل عمران:٢٨.

أي يبتغون تأويل المتشابه.

﴿تَأْوِيلِهِۦ﴾

التأويل مأخوذة من: آل بمعنى رجع وأصل آل: أوَلَ والمصدر منه أولاً وكلمة التأويل مصدر أوّل المضعف[١]، لأن إعادة المتشابه إلى المحكم، وتعيين واحد من محتملاته بالترجيح على المحتملات الأخرى فيه مشقةٌ على الباحث تفوق المشقة التي يتحملها من يعاني التبر مما اختلط به من أخلاط،أضف إلى ذلك عناء الباحث في بيان المتشابه في حصر جميع المعاني التي يحتملها اللفظ على جميع مستوياته الإفرادية والتركيبية هذا هو المعنى المناسب لكلمة التأويل في سياق الآية وأما المعاني الأخرى فلها مواقع تناسبها في سياقات أخرى في القران الكريم.

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾

الراسخ معناه الثابت يقال: رسخ الشيء إذا ثبت ورسخ الوتد في الأرض إذا ثبت فيها والراسخون في العلم: الثابتون فيه لمعرفتهم بما يحتويه المتشابه من معانٍ وقدرتهم على تخليص المعنى المراد من السياق الذي وقع فيه المتشابه ولولا ذلك لما صح إطلاق وصف "الراسخون" عليهم على أن الواقفين على لفظ الجلالة في هذه الآية تردهم المكتبة التفسيرية للقران الكريم فإنك غير واجدٍ كلمةً ولا حرفاً في القران الكريم لم تتناوله أنوار التفسير والتأويل من جميع جهاته وهذه الحروف المقطعة المفتتح بها جملة من سور القرآن هل سلم منها حرف لم يتكلم العلماء على تأويله أو على بيان بعض وجوهه؟! وإذا علمنا ذلك نستطيع أن نطمئن إلى القول ان جميع القرآن مُفسرٌ ومؤولٌ من مجموع المسلمين تختلف كلمة العلماء على

(١) مختار الصحاح:ص: ٢١.

تعيين المحكم والمتشابه في القرآن الكريم يقول الإمام الرازي رحمه الله:(إن القانون المستمر عند جمهور الناس أن كل آية توافق مذهبهم فهي المحكمة وكل آية تخالفهم فهي المتشابهة)[١] وهذا ما أدانا إلى القول بأن التأويل تناول جميع الآيات وأن الذي يؤديه الوقف على كلمة الجلالة ـ الله ـ كان بحثاً تراثياً ينبغي أن تغمض عليه أجفان التاريخ لعدم وجود الخط الفاصل بين ما يسمى بالمحكم وبالمتشابه عند جمهور المسلمين.

وأما ما ذكر عن بعض الصحابة كابن عباس وعن بعض الأئمة ﷺ من أن في القران مالا يعلمه الا الله فذلك يمكن حمله على ما حكاه الله سبحانه وتعالى عن نعيم الجنة وعن نوع الحياة فيها على أي صورة تكون وذلك لا يعارض ما ذهبنا إليه بأننا نريد ما وراء محتوى النص ولنضرب لذلك مثلاً لو قال لك زميلك: أنت مدعو للعشاء عندي كان الأمر واضحا بينا عندك فيما يخص مدلول اللفظ ـ دعوتك لتناول العشاء عند زميلك ـ ولكنك إذا سمحت لخيالك أن يسأل ما هو العشاء؟ من أي لون أو جنس؟ وفي أي مكان؟ومن سيكون معك في الدعوة؟؟ ويمكن للخيال أن يولد العشرات من الأسئلة ولكن هذه الأسئلة ليست حول مدلول النص بل في أمور أخرى قد نقول عن مثل هذه الأمور لا يعلمها إلا الداعي لأنه هو الذي سيقوم بإعدادها،على هذا اللون من المعرفة تتنزّل كلمة ابن عباس أن في القرآن ما لا يعلم تفسيره الا الله ولهذا كان قول ابن عباس ومجاهد والربيع بن أنس أن الوقوف على قوله تعالى "والراسخون في العلم"[٢].

﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾

---

(١) التفسير الكبير، ج:٣، ص:١٤٤.

(٢) التفسير الكبير، ج:٣، ص:١٤٥.

﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾

أي صدقنا به وهنا يجب أن نطرح سؤالاً: هل يصح الإيمان بالمجهول؟المجهول بالنسبة للجاهل به عدمٌ محضٌ فكيف يمكن أن يؤمن به؟ قلنا أن الأمور هنا قد اختلط فيها الحق بالوهم، هل يمكن أن يخاطب الخالق المخلوق بما يكون المخلوق جاهلا به؟ كل كلمة بل كل حرف تناوله العلماء تفسيراً وتأويلاً وحتى الحروف المقطعة حاول العلماء أن يفيدوا منها فأين الذي لا نعرفه وآمنا به؟آمن المسلمون بالقران كله عن علم بمعاني الخطاب العربي الذي خاطبهم به الحق ﷻ في كتابه الكريم ولم يكن الجهل في يوم من الأيام عند علماء اللسان العربي إلا بما لا يدل عليه نص الخطاب وهذا خارجٌ عن مطلوب الإيمان(١).

وجملة يقولون تكون على ما ذهبنا إليه جملةً مستأنفةً والتقدير:هؤلاء الراسخون يقولون آمنا به وحاول الرازي عليه الرحمة أن يرد هذا التوجيه بقوله:"إن تفسير كلام الله تعالى بما لا يحتاج معه إلى إضمار أولى من تفسيره بما يحتاج معه إلى إضمار"(٢)وهذا غير مقبول على إطلاقه لأن مبنى الخطاب العربي البليغ على العدول عن التصريح إلى التلويح وعن الحقيقة إلى المجاز فكيف إذا كان هذا الحذف أو الإضمار يقتضيه إجماع العلماء على تأويل جميع القران والعلم بمعاني خطابه؟ ويمكن أن تكون جملة "يقولون" حاليَّةً من قوله-والراسخون في العلم- ومحاولة دفع الرازي لهذا الوجه بأن الآية ناطقة بلفظ الجلالة قبل لفظ -

(١) أنظر الفتاوى الكبرى لشيخ الإسلام ابن تيمية ج١٣ ص:٣٣١-٣٣٢ كتاب التفسير.

(٢) الرازي ج٣ ص:١٤٧.

الراسخون- ومن حق الحال أن تأتي نلأول غير سليم [١] فان قرينة مجيء جملة الحال دالةٌ على الجمع تمنع من انصراف الحال إلى نفظ الجلالة-الله-لأنه مفرد.

﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾

تقول:هذا من فلان إذا كان منه مباشرة وتقول:هذا من عند فلان إذا كان وصوله إليك بواسطة، فمجي كنمة -عند-في هذا الموقع للدلالة على ذلك.وأما القول بأنها تفيد التوكيد فليس بوجيه فيما أحسب[٢]. والمعنى أنّ كلاً من المحكم والمتشابه من عند ربنا. والتعبير بالاسد الرب وإضافته إليهم ترشح معلوميتهم بما خاطبهم به مربيهم لأن مناهج التربية تقتضي أن لا يخاطَبَ من يربّى ألا بما هو في مستوى قدرته وفهمه. وإليه الإشارة بقوله تعالى:وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه"[٣]وبقوله تعالى ولو جعلناه قرانا أعجميا لقالوا لولا فُصِّلت آياته"[٤] وهذا معنىً يتجلى للقارئ في كتاب الله في كثير من الآيات والمعنى المجهول في النص الخطابي دليل على عجمة النص.

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

﴿يَذَّكَّرُ﴾

أصلها يتذكر فقلبت التاء ذالا لتقارب مخرجيهما وأدغمت الذال في الذال، والتذكر بذل الجهد في أن يذكر المرء ما نسيه أو غفل عنه بعد تذكيره به ولا

---

(١) التفسير الكبير، ج٣ ص:١٤٧ .

(٢) المصدر نفسه، ج٣ ص:١٤٧ .

(٣) سورة إبراهيم آية ٤.

(٤) سورة فصلت آية ٤٤.

يصح إطلاق الذكر والتذكر إلا على الموجود المعلوم أما المعدوم والمجهول فلا يصدق عليه الذكر ولا التذكر، فالتذكر نتيجة للتذكير تقول:ذكّرته فتذكر مثل علمته فتعلم.

﴿أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

وهم أصحاب العقول المستنيرة وهم الراسخون في العلم بما حباهم الله من كمال العقل واستنارته لأن اللُّبّ في كل شيء يعني الأصل في ذلك الشيء، وهذا أيضاً يرشح الوقف على– والراسخون في العلم – لأنه لو كان في القرآن ما لم يُعلم لما صحّ التعقيب بقوله – وما يذكر إلا أولو الألباب – ولكان التعقيب بالإسم العزيز فيما أحسب أولى وأبلغ.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ هذا هو الموقف الثاني للراسخين في العلم، وهذا الموقف يعرض علينا حالة لهؤلاء الراسخين تنتجها الحالة الأولى أو الموقف الأول، فبعد إنابتهم إلى الله والتسليم لأمره والرضى بما أنزل من كتابه محكماً أو متشابهاً – يقولون آمنا به كل من عند ربنا– فخافوا على أنفسهم لمعرفتهم بما يعتريهم من ضعفٍ أولاً وبما يتطلبه المتشابه من دقة التفكير ومشقة في الترجيح ثانياً، وبما يقع منهم من تقصير في عبادة الله والإخلاص له مما يضعف نور الإيمان ويجعلهم تحت طاولة الحساب والمؤاخذة على سيئاتهم ثالثاً.

هذا الخوف هو الذي جعلهم يفزعون إلى الله ليقوي عزائمهم وينير عقولهم ويغفر لهم ذنوبهم وتقصيرهم في عبادة سيدهم ومالكهم ﷻ فيقولون:ربنا...الخ فينادونه باسم الرب لا بغيره من الأسماء ثم يضيفونه إلى أنفسهم – ربنا – ليتقربوا إليه بالانتساب إليه ﷻ في تربيتهم وما تلزمه هذه التربية من العطف والرحمة ربنا لا تزغ قلوبنا جزاء تقصيرنا وضعفنا فأنت الرب لا ربَّ غيرك وتمشياً مع هذا

المساق في الإنابة إلى الله والشعور بالتقصير يقولون ـ بعد إذ هديتنا ـ ولم يقولوا بعد أن اهتدينا فأنت الذي هديتنا فلا تسلبها منا إذا فرط منا بحقك تقصير فإن الكريم لا يعود في هديته وإن قصر المهدى إليه مع المهدي، وإذا فهمنا هذا المعنى بان لنا السر في طلبهم الآخر:

﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾

فالهبة هي العطية دون مقابل، فكأنهم يقولون: لولا هدايتك لنا على أيدي رسلك لما اهتدينا إلى معرفتك وعبادتك فهدايتنا هبة منك وهي أعظم هدية يقدمها المالك لمملوكه والخالق لمخلوقه فأكمل نعمتك علينا بهبة الرحمة من لدنك جل جلالك فانك أنت الوهاب وهبتنا وجودنا وهدايتنا فهبنا من لدنك رحمة تغفر بها ذنوبنا وتنير عقولنا وتقوي بها عزمنا وتجعلنا مرحومين رحماء فيما بيننا نحسن الظن بغيرنا وإن فهم غير فهمنا.

﴿مِن لَّدُنكَ﴾

من لدنك أنت رحمة خاصة من اسمك الرب أو بانتسابنا إليك فأنت ربنا وكذلك إضافتك إلينا، ومن المعلوم أن كلمة ـ من لدنك ـ أخص من كلمة ـ من عندك ـ لأن اللدن يعني الخاص به(١) أي الخاص باسم الرب من حيث أنه الرب هذا هو فهمنا لتحليل النص وقد كان علماؤنا السابقون قد مالوا بالنص إلى غير وجهته فبينما أولها الزمخشري بما يقتضيه مذهب المعتزلة ذهب الرازي يلبسها لباس الأشاعرة فكلٌ منهما ينظر للآيات وتأويلها من خلال ألوان مذهبه أو فرقته(٢)

(١) انظر لسان العرب ج:١٢/ص:٢٢٦.

(٢) البحر المحيط ج:٣/ص:٣٢.

قال الزمخشري في كشافه:" لا تزغ قلوبنا" لا تبلنا ببلايا تزيغ فيها قلوبنا [١] لأنه لا يجيز نسبة الإزاغة إلى الله علت كلمته[٢] وتعقبه أحمد بن محمد المالكي بقوله: أما أهل السنة فيدعون الله بهذه الدعوة غير محرفة[٣] وقال الإمام الرازي:" وفي هذه الآية اختلف كلام أهل السنة وكلام المعتزلة قال: أما كلام أهل السنة فظاهر لأن القلب صالح لأن يميل إلى الإيمان وصالح لأن يميل إلى الكفر ويمتنع أن يميل إلى أحد الجانبين إلا عند حدوث داعية وإرادة يحدثها الله تعالى"[٤] وهكذا يذهب بهاء الدعوات ويخفت نورها ويستعلن الخلاف بين الفريقين في تفسير آيات كتاب الله على حساب المعاني الإيمانية وخشوع القلوب وإنابتها لخالقها ﷻ نسأل الله السلامة.

﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ هذا آخر أدعية الراسخين في العلم أو آخر ما قالوه فإنهم يعبرون به عن سبب القلق والخوف والاضطراب في حياتهم وهم يشاهدون جلال الله الخالق لكل شيء والمالك لكل شيء ــ ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه ــ بيدك الأمر كله نعود إليك ونحن نحمل أخطاءنا وخطايانا نؤمن بذلك إيمان الشاهد الذي لا يعتريه شك ولا ريبة، نفهم عنهم هذا الإيمان العميق من هذه التأكيدات المتعددة في خطابهم فقد استخدموا النداء وإن وكاف الخطاب الذي دلّ على حضورهم مع ربهم

---

(١) الكشاف ج:١/ص:٤١٣.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) التفسير الكبير، ج:٣/ص:١٤٨.

واستخدموا الجملة الإسمية فإذا أضفت إلى ذلك مناداته باسمه الرب وإضافته اليهم اعترتك الخشية والإجلال لله وعرفت أين يكون الإيمان من قلوبهم.

﴿إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ﴾

لو قالوا: في يوم لكان اليوم ظرفا لجمعهم فقط فلما قالوا: ليوم كان المعنى أن جمعهم من أجل هذا اليوم بما يكون فيه من الحساب للعباد جميعاً[1].

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾

الريب لا يصدق إلا إذا بذل الشاك جميع وسعه في الحصول على العلم واليقين فيما يشك فيه، فإذا بذل جهده ولم يصل إلى أحقية ما كان يشك فيه دخلته الريبة من أحقيته وثبوته فيقال عنه عند ذلك أنه مرتاب[2] فهذا هو الفارق بين الشك والريب والله أعلم.

والضمير من فيه يجوز أن يعود إلى المصدر المستفاد من اسم الفاعل "جامع" أي لا ريب في جمعهم ويجوز أن يعود إلى اليوم فيكون المعنى: لا ريب في ذلك اليوم أو لا ريب في الحساب في ذلك اليوم أي لا يرتاب المحاسب في شيءٍ مما يحاسب بــه لأن كل شيء يحاسب عليــه يراه ويسمعــه عنــد الحساب ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ[3]﴾ و﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ[4]﴾ و﴿إِنَّا كُنَّا

---

(١) انظر التفسير الكبير، ج:٣/ص١٥٠.

(٢) انظر حاشية الصاوي على الجلالين ج:١/ص:٦.

(٣) سورة ق:١٨

(٤) سورة يس: ١٢.

نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[1] فهذا اليوم هو يوم الحق فلا خطأ ولا باطل فيه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾

تحتمل أن تكون هذه الجملة من كلام الراسخين فهذا هو إيمانهم أن الله لا يخلف الميعاد نادوه باسم الربوبية لحاجتهم إلى رحمة الرب ﷻ والرب من كمال ربوبيته الرحمة بمربوبيه فلما تكلموا عن الإيمان عنونوه باسم الله لأنه الاسم الجامع لجميع الأسماء والصفات والذي يقتضيه ذلك اليوم للقضاء والفصل بين الناس، وتحتمل أن تكون من كلام الله فعندما قالوا:" رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ...الخ" قال نعم: إن الله لا يخلف الميعاد".

﴿لَا يُخْلِفُ﴾

بضم الياء فالماضي أخلف من المزيد على الثلاثي .

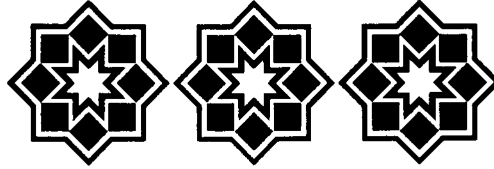
﴿ٱلْمِيعَادَ﴾

الوعد يستعمل في الخير والشر يقال: وعَدَ يَعِدُ وعداً.قال الفراء: يقال: وعدته خيراً ووعدته شراً فإذا أسقطوا الخير والشر قالوا في الخير الوعد والعدة وفي الشر الإيعاد والوعيد، والميعاد: المواعدة والوقت والموضع وكذا الموعد[2].وعلى هذا فالتعقيبة هنا تحتمل الحمل على المواعدة وعلى الوقت الذي عُيِّن للوعد وعلى مكان هذا الوعد، وقد ذهب بها الزمخشري بعيداً كعادته في توهم رأي الاعتزال وأهله في كلِّ ما يقرأ من كتاب أو سنة فقال: "إن الإلهية تنافي خلف

(١) الجاثية ٢٩.

(٢) مختار الصحاح ج:٢/ص:٣٠٣.

الميعاد"[1]مما اضطر الرازي للرد على مذهب الاعتزال مع أن الميعاد ليس نصاً في الوعيد[2] ،ونكتفي بهذا القدر على الحديث من الفصل الأول من السورة الشريفة.



(١) الكشاف ج١/ص:٤١٤.

(٢) التفسير الكبير، ج:٣/ص:١٥١.

الفصل الثالث

في مصير الذين كفروا

الفصل الثالث

في مصير الذين كفروا

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ
وَقُودُ ٱلنَّارِ ١٠ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ
شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١١ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٢
قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ يَرَوۡنَهُم
مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾
آل عمران: ١٠ ـ ١٣

في هذا الفصل يعرض القرآن الكريم للحديث عن مصير الذين كفروا وهم يتكاثرون في الأموال والأولاد ناسين الله وراء ظهورهم فأعلن أن آخرهم كأولهم هم جميعاً وقود النار في الدنيا وفي الآخرة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾

صُدِّرت هذه الآية بـ "إن" لإفادة التأكيد وجيء بعدها بالذين لتدل على العموم في كل من كفر من أي لسان أو لون ثم جاءت ـ كفروا ـ بدون ذكر المفعول ولا ذكر أي متعلق بها لتشمل من يصدر منه هذا الفعل فلم يقل: كفروا من كذا ولا كفروا بمن.

﴿لَن تُغۡنِيَ﴾

لن تفيد النفي المؤبد عند الإطلاق والمقيد بزمن إذا قُيِّدت بوقت معين[١] وهي هنا جاءت مطلقة فلن تغني عنهم أموالهم ولا غيرها شيئاً في وقت من الأوقات ومجيء: كفروا قبلها بالإخبار عن الماضي يجعل حكم الآية ممتداً من الأزل إلى الأبد، وفيها وجه آخر وهو اعتبار ابتداء حكمها من يوم نزولها أو من يوم نزول القرآن بالنظر إلى أن الخطاب إنما يحكم من حين صدوره أو وقوع ما تعلق به الخطاب من سبب نزوله.

﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾

عُدِّيت "تغني" بـــ "عن" لأنها ضُمِّنت معنى تدفع لأن الفعل تغني لو بقي على معناه الأصلي كان متعدياً بنفسه ولجاء النص: لن تغنيهم وأما قوله تعالى: من الله فهو على حذف المضاف والتقدير: من عذاب الله[٢] وخالف هذا ما جاء في الكشاف حيث قال الزمخشري: "من" في قوله من الله مثله في قوله تعالى:"وإن الظن لا يغني من الحق شيئا" والمعنى: لن تغني عنهم من رحمة الله أو من طاعة الله شيئاً أي بدل رحمته وطاعته[٣]

﴿شَيْـًٔا﴾

منصوب على أنه مصدر كما تقول: ضربت شيئاً من الضرب أو على أنه مفعول به أي لن تدفع شيئا.

---

(١) انظر شرح محي الدين عبد الحميد على أوضح المسالك، ج:٤، ص:١٤٩-١٥٠ حيث عدها مثل لا وفيه نظر واضح.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ج:٤، ص:٢١، والبحر المحيط، ج:٣، ص:٣٤.

(٣) الكشاف: ج:١/ص:٤١٤.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾

اسم إشارة للبعيد ليدل على بعدهم عن الله وعن المؤمنين الذين هم محل الإخبار وليقع الذين كفروا موقع المنقطع عن أهل الإيمان فلا تأسى نفوسهم عليهم.

﴿هُمْ﴾

الضمير المنفصل لإفادة التخصيص والتأكيد أنهم هم لا غيرهم.

﴿وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾

الوقود بفتح الواو اسم للحطب وبضمها مصدرٌ مِن وَقَدَ يقِدُ وقوداً إذا اشتعلت أي أن النار إنما تشتعل بهم أولا(١).

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾

قال ابن عطية: الدأب بسكون الهمزة وفتحها مصدر دأب يدأب إذا لازم فعل شيء ودام عليه مجتهداً فيه، ويقال للعادة: دأب(٢) قال القرطبي: واختلفوا في الكاف: فقيل في موضع رفع تقديره: دأبهم كدأب آل فرعون أي صنيع الكفار معك كصنيع آل فرعون وقيل هي متعلقة بـــ"أخذهم الله" أي أخذهم أخذاً كما أخذ آل فرعون وقيل: هي متعلقة بقوله: لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم أي: لم تغن عنهم غناءً كما لم تغنِ الأموال والأولاد عن آل فرعون(٣).

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ج:٤/ص:٢٢.

(٢) البحر المحيط ج:٣/ص:٣٧.

(٣) الجامع لأحكام القران ج:٤/ص:٢٣.

وقال أبو حيان:"لما ذكر الله ﷻ أن من كفر وكذب بآيات الله مآله إلى النار ولن يغني عنه ماله ولا ولده، ذكر ﷻ أن شأن هؤلاء في تكذيبهم لرسول الله ﷺ وترتب العذاب على كفرهم كشأن من تقدم من كفار الأمم أُخذوا بذنوبهم وعذبوا عليها ونبه ﷻ على آل فرعون لأن الكلام مع بني إسرائيل وهم يعرفون ما جرى لهم حين كذبوا بموسى من إغراقهم وتصييرهم آخراً إلى النار"(١)" ثم قال رحمه الله " ففي هذا بشارة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن آمن به أن الكفار مآلهم في الدنيا إلى الاستئصال وفي الآخرة إلى النار كما جرى لآل فرعون أُهلكوا في الدنيا وصاروا إلى النار "

﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾

قال أبو حيان: "المقصود بآياتنا: إما الآيات المتلوة وإما الآيات المنصوبة للدلالة على الوحدانية"(٢).

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾

شبَّه إحاطة عذابه بهم بالمأخوذ باليد المتصرف فيه بحكم إرادة الآخذ والأخذ بالذنب معناه العقاب عليه والباء في قوله تعالى: بذنوبهم للسبب أي أن ذنوبهم هي السبب الذي أخذهم الله به.

﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾

---

(١) البحر المحيط ج:٣/ص:٣٦

(٢) البحر المحيط ج:٣/ص:٣٨.

يقال: شيءٌ شديد أي بيِّن الشدة بكسر الشين وشدَّ عضُده: قواه.وشدَّه: أوثقه[1] والعقاب: العقوبة[2].

﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾

أي عقوبته بيِّنة واضحة فهي من صفات الأفعال لا من صفات الذات فلا يسمى الله ﷻ باسم "شديد" ولا باسم "معاقب".

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾

يقال أن سبب نزول هذه الآية أو المناسبة التي نزلت فيها أن يهود بني قينقاع قالوا بعد وقعة بدر: إن قريشا كانوا أغمارا ولو حاربتنا لرأت رجالاً فجاء هذا الإعلان الإلهي "قل للذين كفروا ستغلبون" المخبر هو الله تعالى والمعلن والمبلغ هو محمد ﷺ وإذا تناولنا الحدث من جانب الذين كفروا فالإعلان والإخبار من جانب محمد ﷺ لأنهم لا يؤمنون بهذه العلاقة بين محمد صلى الله عليه وسلم وبين الله جل جلاله وبهذا يكون التحدي للذين كفروا أقوى وأعنف وعلى نفوسهم أمرَّ وأدهى.

ومن المعروف أن السين للاستقبال وهي موضوعة لما يقع قريباً وبهذا يبدو لنا موقف المعسكرين وما يعتلج في نفوس كلٍّ منهما من الأمل الموقن في جانب المؤمنين والتوتر والشعور بالتحدي في نفوس الكافرين.وقرئت هذه بالياء بدل التاء سيُغلبون عند حمزة والكسائي[3] وهي قراءة لا تغير من تحليل الموقف

---

(١) مختار الصحاح ص:١٤٣.

(٢) المصدر نفسه ص:١٨٩.

(٣) البحر المحيط ج:٣/ص:٣٤.

شيئا إلا أن في تاء الخطاب مزيّةً ظاهرة ويقال: غلب عدوه إذا قهره وانتصر عليه، وهذا الإعلان يعد من جملة الأسلحة في غلبة العدو وقهره فهو على أقل تقدير يجعل في أنفسهم هذا الهاجس عند لقاء المؤمنين لاسيما وقد خاضوا تجربة المعركة في بدر.

﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾

كذلك قرأ حمزة والكسائي بالياء[1] وهي قراءة لا تغير من شيء في ملامح الموقف لكلا الجانبين.

ويحشر الجميع من المشركين واليهود والنصارى يحشر كل من كفر برسالة النبي محمد ﷺ ولم يؤمن بها يحشرون الى جهنم جميعاً إلى جهنم المكان المظلم حتى لا يستأنس أحد بأحد ولا يعرف أحد أحدا وهذه الكلمة ينفر منها كل فرقاء الكافرين فالمشركون العرب واليهود والنصارى كل فريق منهم يزعجه هذا الإعلان وهو لا يزعجهم لأنهم يصدقونه أو يؤمنون به فهم يكفرون به ولكنه يزعجهم لأنهم يرون عدوّهم لا يفرق بينهم في الحديث ولا في الخصومة ولا في ما لكل منهم، وهم مع ما هم عليه من الاجتماع لحرب الإسلام يستنكف كل منهم أن يُعدّ مع الآخرين وأن يحشر معهم.

﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾

كلمة بئس موضوعة للذم وهذا الذي لم يتوجه إليهم بل إلى المكان الذي سيحلون فيه فهم ليسوا بالضيوف الكرماء فتمتهد لهم المفارش بل هم المساقون للعقاب فكانت دارهم المعدّة لهم تناسب ذلك ولم يذكر المخصوص بالذم لوضوحه

---

(١) البحر المحيط ج:٣/ص:٣٤.

يحشرون إلى جهنم وبئس المهاد هي أي جهنم وينبغي الانتباه إلى العلاقة بين حال الكافرين في عماهم عن الهدى وبين ما يوحي به اسم جهنم من الظلام وعدم الرؤية.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾

"الفئة"

الطائفة ذات الشوكة كأن كل واحد من أفراد الجماعة يفيء إليها فهي بمثابة الظل يحتمي بها من حر الشمس.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾

الخطاب في لكم يرجح قراءة من قرأ ــ ستغلبون ــ بالتاء ومعنى قد كان لكم: قد ثبت لكم لتمحُّض كان الناقصة في الدلالة على ثبوت الحدث ثم أُكد هذا الثبوت بقد التي تفيد التحقيق والخطاب بـــ "لكم" صالح لتناول جميع الذين كفروا من مشرك أو كتابي ولا يخصص هذا العموم سبب النزول وإن كان مجمعاً عليه عند المفسرين لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما يقول الأصوليون.

﴿ءَايَةٌ﴾

أي دلالة وعلامة على انتصار الإيمان وغلبة أهله مع قلتهم وضعف ما بأيديهم من سلاح مقارنة بعدد أهل الكفر وقوة ما بأيديهم من عتاد.

﴿فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾

هذا النص يبعث الرعب والشك والقلق والاضطراب في جميع فرقاء الكفر على تعدد ألوانهم وأديانهم التي ينتمون إليها لأن كل فرقة من المشركين واليهود والنصارى يذكر ما جرى لأهل الإيمان مع من عاداهم من النصر والغلبة فإذا كان المشركون من العرب يذكرون معركة بدر فإن اليهود والنصارى يذكرون أيضاً ما جرى بين طالوت وجالوت وانتصار المؤمنين مع قلة عددهم على جالوت مع كثرة الكافرين معه حتى أن بعض الآراء ذهبت إلى أن عدد المؤمنين الذين مع طالوت يساوي عدد المؤمنين الذين كانوا مع محمد ﷺ يوم بدر.

ستُغلبون أيها الكافرون وفي ذاكرتكم نموذج ودليل وبرهان على هذه المغلوبيَّة لكم إنها فعلاً ذكرى تثير الفزع في صفوف أهل الكفر كما تثير الأمل في صفوف أهل الإيمان وكأنه قانونٌ إلهيّ وسنة طبيعية يخضع لها الناس وتسير نحوها الشعوب.

﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾

الفئة المؤمنة تقاتل في سبيل الله ولنصرة دينه وإرساء بناء الرسالة التي تؤمن بها فهي فئة تعرف ما لديها وتعلم فيمن تقاتل وأخرى كافرة موقفها الإصرار على الكفر والعناد لأهل الأيمان.

﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾

بهذه الصيغة أوصل القرآن البيان إليهم ليزعزع ثقتهم بكل ما هم عليه كأنها لا تقاتل، لأنها لا تعرف لمن تقاتل ليست هي على بينة من أمرها والتحدي يعصف بها من كل جهاتها، وهي كافرة فقط ليس لديها ما تؤمن به، وتعصف البيانات الإلهية بالمشركين قائلة: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ

﴿مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[١] وتعصف بأهـــل الكتاب: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[٢]،وتعصف وتعصف بهؤلاء وهؤلاء في الكثير من البيانات فتزلزل الأرض تحت أقدامهم.

﴿يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ﴾

جاء النص البياني مطلقاً ليس فيه شيءٌ من التقييد إلا في جهة بيان تمييز الرؤية وأنها رؤية بصرية.

﴿يَرَوۡنَهُم﴾

مَن الرائي؟ ومن المرئي؟

أحسب أن هذا البيان جاء بهذه الصياغة المطلقة ليستوعب جميع أحداث التأريخ وأن الله يُرِي المسلمين لله الكافرين به حسب ما تقتضيه مصلحة المسلمين في كل موقف فإن كانت المصلحة تقتضي تكثير عدد الكفار أو تقليلهم فعل الله لهم ذلك وكذلك لو كانت مصلحة المؤمنين تقتضي تكثير عددهم في أعين الكافرين أو تقليلها فإن الله يدافع عن الذين آمنوا بما يحقق نصرهم على أعدائهم.

وهذا التلوين في الرؤية كثرةً وقلة عُمل به في معركة بدر قال تعالى:﴿ إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ

(١) سورة البقرة: ٢٣.

(٢) سورة البقرة:١١١.

قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [1].

قرأ نافع ويعقوب وسهل ترونهم بالتاء على الخطاب وقرأ باقي السبعة بالياء على الغيبة وقرأ ابن عباس وطلحة بضم التاء على الخطاب وقرأ السلمي بضم الياء على الغيبة نقل ذلك كله أبو حيان[2].وقراءة الضم كالتفسير لقراءة الفتح إذ الذي يريهم غير ما هو موجود في حالة التكثير ولا يريهم الموجود في حالة التقليل إنما هو الله لأنه هو القادر على ذلك وحده وحجب الموجود عن الرؤية يدل له أيضاً ما كان ﷺ يعتصم به من رؤية الكفار له ﷺ كما في خروجه عند الهجرة من بيته وكذلك حادثة وجوده مع أبي بكر في غار ثور وكذا احتجابه صلى الله عليه وسلم عن رؤية زوجة أبي لهب بعد نزول سورة اللهب ومجيئها إلى الكعبة للتفتيش عنه ﷺ فاحتجب عنها في تلك الساعة[3]. وهو يقرأ قوله تعالى ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾ [4].

﴿رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾

قال أبو حيان:" والرؤية في هاتين القراءتين بصرية تتعدى لواحد وانتصب "مثليهم" على الحال قاله أبو علي ومكي والمهدوي ويقوي ذلك ظاهر قولــه:" رأي

---

(١) الأنفال:٤٣-٤٤.

(٢) البحر المحيط ج:٣/ص:٤٦.

(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن ج١٠/ ص:٢٦٩-٢٧٠، مع ما وقــع لــبعض العلمــاء ومــنهم القرطبي من مثل ذلك.

(٤) الإسراء:٤٦-٤٧.

العين" وانتصابه على هذا انتصاب المصدر المؤكد.

﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ﴾

أي يقوي وأيده: قواه.وتأييد الله لأهل الإيمان إما بالنصر والغلبة في المعركة وإما بالحجة والبرهان في المجادلة أو بكليهما.

﴿مَن يَشَاءُ﴾

أي من يشاء الله تأييده بنصره بسبب ظاهر أو باطن أو بالاثنين معاً ومجيء خبر المبتدأ الذي هو لفظ الجلالة بصيغة الفعل المضارع ـ يؤيد ـ ليفيد التجدد والدوام فكأنه هو السنة الدائمة والطريقة الثابتة.

وتحتمل الآية وجهاً آخر وهو أن يكون فاعل يشاء ضميراً يعود إلى "من" أي أن الله يؤيد بنصره من يشاء النصر ومذهب أهل السنة: أن الله يخلق لعبده ما يريده ذلك العبد كما يقول الإمام الرازي(١) وهذه القضية قامت عليها نظرية من أعز النظريات الحديثة في علوم الباراسيكولوجي فضع في نفسك ما تريد بإصرار وعزم ويقين تجده أمامك إن الله يكون معك على ما تكون معه مصداق هذا الحديث الصحيح عن رب العزة ﷻ :"أنا عند ظن عبدي بي"(٢).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً﴾

العبرة: مأخوذة من العبور مما وقع في الماضي من التأييد بالنصر للمؤمنين ومن الخذلان بالهزيمة لأهل الكفر لا يحتاجون في ذلك إلى تدقيق نظر ولا إلى كدّ ذهن إن الحقائق ماثلة للعيان إنها سنة الله ومنهج الحياة.

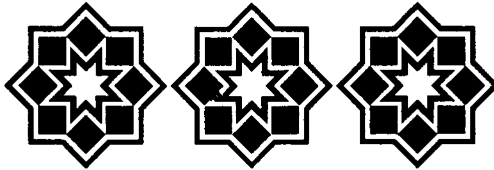
---

(١) التفسير الكبير ج:٣/ ص:٢٨٤.

(٢) الحديث رواه الشيخان: الأحاديث القدسية للشيخ الدكتور أحمد فارس ص:٥١-٥٢.

﴿لِأُوْلِي الْأَبْصَارِ﴾

لمن ليس أعمى فالشواهد تخص العين ولا تحتاج إلى فكر والذهاب في تفسير الأبصار إلى البصر العقلي يبعد النص عن موضوعه ويحمّل الألفاظ ما تنوء بحمله فمساق الآية وسباقها في الحديث عن رؤية العين وذلك ما أفقد الكافرين رشدهم ونزع الثقة من نفوسهم حتى من أبصارهم وماذا عسى أن يكون حال من يرى غير الموجودِ أو يجد غير ما رأى؟!!



الفصل الرابع

في زينة الدنيا وزينة الآخرة

الفصل الرابع

في زينة الدنيا وزينة الآخرة

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ آل عمران: ١٤ ــ ١٧.

هذا الفصل من الآيات يستهدف الفصل بين زينة الدنيا وزينة الآخرة والقضاء بين عشاق الحياتين ونعيمهما والموازنة بين مصيرين مصير أهل الدنيا ومصير أهل الجنة.

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ ﴾

جاء الفعل: زُين بالبناء للمجهول في القراءات الصحيحة وفي قراءة ضعيفة زَيَّن بالبناء للمعلوم والفاعل ضمير يعود إلى لفظ الجلالة في قوله تعالى:"والله يؤيد بنصره" وجماهير النحاة لا يجيزون ذلك لأن الضمير سيعود على سابق بعد الفصل وتمام الكلام والفاصل قوله:" والله عنده حسن المآب".

اختلف المفسرون في تعيين الفاعل فمن قائل: هو الله ونسب إلى عمر بن الخطاب ﷺ وعليه جمهور أهل السنة ومن قائل: هو الشيطان وهو مروي عن

الحسن ﷺ وهو الذي ذهب إليه الجمهور من المعتزلة وقال أبو علي الجبائي: الذي زين الخير هو الله والذي زين الشر هو الشيطان وهذا فيما أحسب هو الحق الذي لا مرية فيه وهو الذي تدل عليه نصوص القرآن واعتراض الإمام الرازي بأن أبا علي سكت عن المباح فلم يقل من زينه(١) وهو اعتراض بارد لا قيمة له لأن المباح من الخير أو أن المباح لا يحتاج إلى تزيين لأنه زين بنفسه ودليل أبي علي الكبير قوله تعالى:"حبَّب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم" نسب إلى نفسه تحبيب الإيمان وتزيينه في قلوب المؤمنين والإيمان يشمل المباح والواجب والمندوب لأنك وأنت تعمل المباح لا تعمله إلا وأنت تعلم أن الله أباحه لك بينما السوء والمعاصي نسبت في القرآن الكريم إلى الشيطان ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٢).

وهذا التقسيم في التزيين هو الداعي إلى بناء الفعل للمجهول في مثل هذا الخطاب فإن من عادة العرب في كلامها أن الفعل إذا أُسند إلى كثيرين يمكن أن يكون لكل واحد فاعل، جاءت بالفعل مبنيا للمجهول لضرورة اختلاف الفاعلين ومثال ذلك: زينت الحدائق ليوم العيد؛ وزُينت البضائع للمشترين ؛وزينت الشوارع والدور والدكاكين لقدوم الملك أو الزعيم؛ فبما أن المُزيِّن يختلف جيء بالفعل مبنيًا للمجهول اعتمادًا على معرفة السامع بالمزين لكل منها فكيف إذا كان المتكلم قد ذكر للمخاطَبين من الذي زين في كل فرد بل في كل حال من أحوال هذا الفرد؟!

---

(١) التفسير الكبير ج:٣/ ص:١٦٠-١٦١.

(٢) النحل:٦٣.

ثم نعود إلى الكلمة لنستفصل معناها: فان الله ﷻ اكتفى بذكر التزيين للناس:"زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ" ولم يذكر هل أحبَّ الناس ما زين لهم حبه أم لا فان ما كل معروض بزينة يراه الناس زيناً، وكذلك نسبة التزيين إلى الحب لا إلى الشهوة فهل كانت كذلك لأن الشهوة لا تحتاج إلى التزيين؟ أو أنها لا تقبل التزيين لقبحها في نفسها؟ لم أر من أجاب عن هذه الأسئلة وأحسب أن الله ﷻ لم ينصَّ لنا على ذلك لاختلاف الناس في تقدير الزينة في كثير من الأشياء وكذلك النظر إلى الشهوات وتقدير الناس لها من حيث الزينة والقبح فقد تجد فريقاً من الناس ينظرون إلى الشهوات بعين الزينة بينما تجد فريقا آخر لا يرى أي جمال وزينة في الشهوة بل يراه هبوطاً إلى السفاسف من الأعمال ،لكل هذا جاءت الآية بهذا الإطلاق فيما أحسب.

وأضيف الحب إلى الشهوات ويذهب أكثر المفسرين إلى تأويل الشهوات بالمشتهيات(١) يقول أبو حيان:"وعبر عن المشتهيات بالشهوات مبالغة إذ جعلها نفس الأعيان"(٢) والذي دعاهم إلى هذا التأويل أمران:

الأول: أن الله ذكر المشتهيات من النساء والبنين.... الخ وهذا إنما يصح إذا قلنا ان "من" جنسية وهو قول ضعيف والصحيح أن الجار والمجرور في موضع الحال(٣).

والثاني: أن الشهوة معنىً لا وجود لها في الخارج إلا في أشخاص المشتهيات ولهذا يكون تأويل الشهوات بالمشتهيات أنسب ويكون تقدير الآية: زين

---

(١) انظر التفسير الكبير ج:٣/ ص:١٦١، والبحر المحيط ج:٣/ ص:٥٠.

(٢) البحر المحيط ج:٣/ ص:٥٠.

(٣) روح المعاني ج٣/ص:١٦٠.

للناس حب المشتهيات من النساء والبنين... الخ.وأحسب أن مقابلة الحب بالشهوة أولى من مقابلته بالمشتهى لأن مقابلة المعاني ببعضها أولى من مقابلتها بالأشخاص على أننا يمكننا القول ونحن مطمئنين أن الحب إنما يتعلق بالمعاني التي في الذوات لا في الذوات أنفسها والله أعلم.

﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾

أي حال كون الشهوة من النساء فالذي حُبِّب إنما هو حب الشهوة منهن لا الشهوة نفسها وقدم النساء على غيرهن لتكتمل الهيئة البشرية كلها. زُين للناس أي للرجال منهم من النساء فاكتملت الصورة وبما أن هيئة الاجتماع هي السبب لكل ما ذكر الله بعد النساء قدم النساء في النص القرآني فقد قامت المرأة من الرجل مقام الطبيعة لله في إنشاء التكاثر والتوالد وهو سبب بقاء النوع البشري، والقول بأن سبب التقديم لأنهن حبائل الشيطان[١] للرجل يرده عكسه وهو أن الرجل من حبائل الشيطان أيضاً في إغواء المرأة.

﴿وَٱلْبَنِينَ﴾

أي زُين للناس حب الشهوة من البنين لأنهم النتاج ويجد كل من الزوج وزوجته صورته في نتاجه والنتاج هو ضمانة الخلود وإنما لم يذكر القرآن البنات لأن ذكر البنين يشملهن بالتغليب ولأن البنات يدخلن في النساء فكما يحب الرجل الشهوة لنفسه من امرأة كذلك يحبها لولده من البنات وبذلك تستمر عجلة الحياة، فصار ذكر البنين كاف عن ذكر البنات ولو ذكر البنات ولم يذكر البنين لما كان في ذكرهن ما ينبه إلى الزينة في حب الشهوة من البنين والله أعلم.

(١) انظر البحر المحيط ج٣/ ص:٥٠.

﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾

التزيين في حب شهوة القناطير المقنطرة من الذهب والفضة من تمام نعمة الله على عباده ولست بواجد نصاً في القرآن الكريم يحرم جمع القناطير المقنطرة إذا كان هذا الجمع من الطريق المأذون به في دين الله والمزاعم الباطلة في كراهة الإسلام للمال وجمعه وإن كان من الطريق المشروع من أباطيل المنتسبين إلى التصوف من جهلة المتعبدين لا ينبغي الوقوف معها ولا محاولة توجيهها ويكفينا أنها أقوال الجاهلين ولا يرفع من مكانتها عبادة وإخلاص قائليها فالعلم شيء وإخلاص العبادة شيء آخر ويكفي في تقدير المال قول الله تعالى:﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا ﴾ (١).

﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ﴾

: جمع قنطار والقنطار يطلق على المال الكثير وذكر السلف له حداً من باب التمثيل فقط فقال بعضهم: ألف ومائتا أوقية وآخر: إثنا عشر ألف أوقية(٢) وهناك تقديرات أخرى أقل وأكثر أضربنا عن ذكرها لعدم غنائها.

﴿ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾

مُفعللة أو مفيعلة من القنطار ومعناها: القناطير المجتمعة كما يقال ألوف مؤلفة(٣).

﴿مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾

---

(١) ألنساء:٥.

(٢) البحر المحيط ج:٣/ ص:٥١.

(٣) المرجع السابق.

بيان للقناطير وهو في موضع حال منها أي كائنة من الذهب والفضة والنص على الذهب والفضة لأن النقود لم تكن آن ذاك إلا منها وليس لخصوصيةٍ فيها كما هو ظاهر النص.والذهب والفضة ولحد زماننا هذا يعدان من أحسن الأموال ادخاراً وقنطرة.

﴿وَٱلْخَيْلِ﴾

الخيل من أعز الأموال العربية وهـي إلى جانب ماليتها تمثـل زهواً غريباً وإعجاباً مهيباً قال النبي ﷺ "الخيل معقود في نواصيها الخير"[1].

﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾

معنى المسومة الراعية من الكلأ المباح. يقال: سامت أي سرحت وأخذت سومها من الرعي: أي أخذت غاية جهدها وطاقتها من الرعي في المروج والكلأ.

﴿ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾

مأخوذة من الفعل المضعف سوّم يسوّم فهي مسوّمة[2].

﴿وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾

الأنعام: جمع النعم وهي الإبل والبقر والغنم من الضأن والماعز ولا يقال لجنس منها على الإنفراد نَعم الا للإبل خاصة.

﴿وَٱلْحَرْثِ﴾

أي الزرع ولم يأت بالحرث على صيغة الجمع مثل ما أتى في الباقيـات

(١) الحديث : متفق عليه البخاري: ٢٨٢٥ ومسلم: ١٨٧٣.

(٢) البحر المحيط ج:٣/ص:٥٢. ومسلم:

لأن الحرث مصدر وهو يصدق على الكثير والقليل وقيل يراد به المفعول أي المحروث.

﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾

أي المذكور أو المتقدم ذكره ومجيء الإشارة بنبأ البعد فيه وجهان:

الأول: أن هذه الأمور التي تم تزيينها تمثل أعلى المعتبر في الحياة عند الناس.

والثاني: أن الخطاب من حضرة الحق مع حبيبه ﷺ أو مع عباده المؤمنين الجالسين في حضرته فهم في هذا المجلس بعيدون عن الدنيا ومتاعها لشهودهم الحق وسماعهم خطابه فحدثهم عنها حديث البعد وفي ذلك لذة يتذوقها أهل مجالسته ويُحرَم منها الغرباء.

﴿مَتَٰعُ﴾

يطلق المتاع ويراد به الزاد اليسير الذي يستصحبه المسافر في سفره وإن كانت الكلمة بوضعها اللغوي تدل على مطلق ما يستمتع به.

﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾

أي الحياة القريبة أو الحياة الأدنى أي الأقرب وكأن القرآن يريد أن يقول للإنسان إنك لو ملكت كل ما تطمح إليه نفسك من النساء زوجات وبنات من البنين ومن الأموال سواء كانت نقوداً أو عدة حرب وزينة أو كانت أنعاماً بكل أجناسها أو مزارع وجنات لو ملكت هذا كله فهو قليل بحقك لا ينبغي أن يكون منتهى طموحك أو نهاية غرضك لماذا؟ لأن متاع الحياة لا يمكنه أن يملأ منطقة الفراغ في خيالك فتشعر دائماً بالنقص وبتمنيات ما بعد لو إن وضع الحياة غرضاً أسمى وهدفاً أعلى

يجعل الإنسان قيمةً أقل من الحياة وهو أعلى منها لأن خياله أوسع منها فلا يمكن أن يسعد فيها.

﴿وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾

تقليل القرآن بين متاع الحياة الدنيا وبين حسن المآب عنده وهذا يومئ إلى أن الدنيا ليست بدار قرار ولا موطن إقامة إنّ حياة كل إنسان تشبه فترة سفر وكما يعود المسافر إلى موطنه وداره يعود الإنسان بعد قضاء فترة الحياة الدنيا إلى موطنه وداره.

﴿وَاللَّهُ عِندَهُ﴾

أي في الآخرة بدليل المقابلة وإلا فالدنيا عنده ومن عنده ،الله خالق الدنيا والآخرة والله عنده الدنيا وعنده الآخرة.

﴿حُسْنُ الْمَآبِ﴾

حسن مصدر مضاف وهو من إضافة المصدر إلى فاعله أي حَسُن مآبهم وفائدة الإضافة شمول "حسن المآب" جميع أنواع الحسن في المآب فهو ليس أحسن مآب ولا أن مآبهم حسُن وإنما يريد القرآن الكريم أن يمنحهم كل حسن في المآب وذلك لأن كلمة حسن مفرد وأضيفت إلى المآب فعمت كل حسن ولو قال: والله عنده المآب الحسن أو وأولئك حسن مآبهم لضاع العموم الذي دلت عليه الإضافة إنها العربية وإنه القرآن.

﴿الْمَآبِ﴾

أي المرجع و"أل" في المآب للجنس فتدل أيضاً على العموم فيكون التقدير: والله عنده كل حسن في كل مآب فليس عند الله إلا كُلُّ مآبٍ فيه كلُّ حُسنٍ.

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ في هذه الآية الكريمة يأتي الأمر الإلهي للنبي ﷺ أن يقول للناس الذي زين لهم حب الشهوات في الحياة الدنيا أن هناك شهوات أخرى في دار أخرى شهوات أكثر سعة من شهوات هذه الدنيا وفي حياة أطول عمراً وأكثر شباباً، المقارنة بين شهوات معدودة وشهوات غير معدودة شهوات يضبطها الحس وشهوات يطلقها الخيال وبين دار وحياة تنتهي إلى أمد وحياة ودار لا نهاية لها ولا فناء.

﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾

هذه واحدة من زينة الآخرة "خالدين فيها" وهذه ثانية "وأزواج مطهرة" وهذه ثالثة "ورضوان من الله" هذه هي الرابعة ويمكن اعتبارها ستةً إذا حسبت الجنات وجري الأنهار أخرى وكذلك لو حسبنا الأزواج واحدة وتطهيرهن أخرى فتكون ستة تقابل ستة.

وهذا عرض من عروض زينة الآخرة أيضاً لتقابل زينة الحياة الدنيا أضف إلى هذه الفوارق أن زينة الحياة الدنيا لا تأتي إلا بما يقابلها من الجهد والتعب ثم بإضافة جهد آخر إذا أُريد استمرارها وبقاؤها ثم الخوف المتواصل من زوالها أو نقصانها على أن النقصان من ضروريات بعضها كالنساء والبنين وغيرها أما زينة الآخرة فالعمل الذي يُقدَّم في تحصيلها أيسر بكثير ولو أراد الواحد منا أن ينسب ما هو من عمل الآخرة في حياته إلى ما هو من عمل الدنيا لما تجاوز نسبة العشرة بالمائة على أكثر تقدير.

﴿أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾

إلى هنا ينتهي الاستفهام وأما قوله تعالى: "للذين اتقوا" إلى آخر الآية فهو بتقدير الجواب ومن المفسرين من يذهب إلى أن منتهى للسؤال عند قوله تعالى: "عند ربهم"(١)

﴿أَؤُنَبِّئُكُم﴾

يذهب الكثير من المفسرين إلى تفسير النبأ بالخبر فهم يقولون: معنى أنبئكم أخبركم والصحيح أن النبأ غير الخبر بدليل أن القرآن الكريم استخدم للنبأ ومشتقاته في جميع المواضع التي يكون فيها إعلام عن أمر كان مخفياً عمن يراد إعلامه به أو كان من خصوصياته وتكررت هذه الكلمة "نبأ" ومشتقاتها حتى قاربت المائة والخمسين موضعا في القرآن الكريم مع العلم أن كلمة الخبر لم تستخدم في القرآن الكريم بمعنى الإعلام ولا مرة واحدة وإليك المواضع التي استخدمت فيها هذه الكلمة من القرآن الكريم.

في سورة الكهف استخدمت مرتين ففي الآية ٦٨ قال تعالى:﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ وكذلك في الآية ٩١ قال تعالى:﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾

وفي سورة النمل الآية ٧ قال تعالى: ﴿ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ وفي سورة القصص الآية ٢٩ قال تعالى:﴿ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ وفي سورة التوبة الآية ٩٤ قال تعالى:﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾ وفي سورة محمد الآية ٣١ قال

(١) التفسير الكبير ج:٣/ص:١٦٤.

تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ وفي سورة الزلزلة الآية ٤ قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾.

فإذا تمعنت في هذه الآيات ازددت يقينا فيما ذهبنا إليه ففي الآيتين من سورة الكهف كان معنى الخبر العلم المسبق وفي آيتي موسى كان يريد أن ينبئهم عن خبر النار بعد أن يذهب إليها ويعرف خبرها وآية التوبة واضحة الدلالة بالتفريق بين دلالة اللفظتين لأن فيها الإنباء عن الأخبار فالأخبار هي المعلومات والإعلام عنها يقال له إنباء وإعلام لا إخبار وكذلك الآية من سورة محمد والآية من سورة الزلزلة فيكون معنى الآية هل أنبئكم عن خبر ما للمتقين عند الله...؟

﴿بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾

أي بخير مما زين في الحياة الدنيا وكلمة خير هنا بمعنى أفعل التفضيل أي أكثر خيراً وبذلك ينتفي ما درج عليه كثير من المفسرين من أن ما زُين من حب الشهوات مذموم كيف وقد تمَّت المفاضلة بينه وبين نعيم الجنة ، كل الناس أو أكثرهم يركضون وراء نعيم الدنيا ويحرصون عليه وليس المذموم هذا إذا أُخذ من حِلّه بل المذموم أن يعتنوا بنعيم الحياة الدنيا وينسوا أنفسهم من نعيم الدار الآخرة مع الفارق الكبير بين الدارين والنعيمين.

﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾

الذي يستفاد من مجموع النصوص الشرعية وما أثر عن السلف في تفسير التقوى أنها العمل بما يرضي الله والترك لما يسخطه أي عمل الطاعة وترك المعصية وذلك لأن التقوى مأخوذة من الوقاية وإذا أطاع العبد ربه في اتباع ما أمر به واجتناب ما نهى عنه فقد اتقى.

﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾

أي في الدار الآخرة بقرينة خالدين فيها لأن الحياة الدنيا لا بقاء فيها ولا بقاء لها ولكن لماذا يسمى نعيم الجنة ــ عند الله ــ أو ليست الدنيا ونعيمها عند الله أيضا؟ الظاهر ان التعبير بعند في مثل هذا الموقع لإفادة الالتزام والتأكيد عليه فلو قلت من رد إليَّ ضالتي أو من شفى مريضي فله مني كذا وكذا أي أنك متبرع بهذا وما تريد عطاءه لمن يقوم لك بالعمل لا زال ملكا لك وأما عندما تقول: من رد ضالتي أو شفى مريضي فله عندي كذا وكذا، فقد سميت ما تريد دفعه لمن يقوم لك بالعمل أنه من الآن هو له أو هو ماله مودع عندك إلى حين الإنتهاء من العمل هذا هو معنى الآية للذين يتقون الله عند الله كذا وكذا ــ فهو ملك لهم من الآن ــ ولكنه مودع عند الله يحفظه لهم إلى حين عودتهم فيوفيهم ودائعهم والله أعلم.

﴿رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾

جنات أي بساتين مكتظة بالأشجار وإنما سميت جنة لأنها تجن من فيها أي تستره لكثرة أشجارها ومعانقة الواحدة منها أختها فالجنة لا تطلق على الأرض بما هي أرض بل بما عليها من تزاحم الأشجار.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾

أي تجري من تحت جنان الأشجار الأنهار فالأنهار تشق هذه الأراضي التي علت عليها جنان الأشجار فلا حاجة إلى ادعاء الحذف في قوله تعالى "من تحتها" أي من تحت أشجارها لأن الذي يجن ما تحته إنما هو الشجر لا الأرض، وجاءت "جنات"و" الأنهار "جمعاً وإذا قوبل الجمع بالجمع كان بمثابة مقابلة الواحد بالواحد فيكون لكل جنة نهرها الخاص بها والله أعلم، وكلمة تجري بصيغة الفعل المضارع جاءت لتدل على استمرار الجريان وتجدده بدون انقطاع أي تجري دائماً.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾

الخلد: دوام البقاء[1] يقال: خلد في الدار أي دام بقاؤه فيها.

﴿وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾

يقال لكل من الرجل والمرأة إنه زوج كذلك كلمة "للذين اتقوا" عامة تشمل كل من اتصف بالتقوى من رجل وامرأة والخطاب القرآني جاء على عادة العرب في خطابها فإنها تغلب الذكور على الإناث حميَّةً وأنفةً على ما اعتادت في حياتها وإذا فهمنا الآية على هذا المساق كان معناها أن لكل من يتقي الله من رجل وامرأة زوج في الجنة من الأزواج المطهرين هذا واحد من وجوه تأويل الآية.

وهناك وجه آخر وهو أن الله جعل كل أنواع خلقه أزواجاً فلا وجود للفردية إلا لله ﷻ فإنه الواحد الأحد الفرد فيجوز أن يكون معنى الآية أن الذين اتقوا ربهم لهم أزواج مما يشتهون فليس في الآية ما يخصص الأزواج بالآدميين فضلاً عن توهم اختصاصه بالزوجات كما ذهب إليه الكثير من المفسرين.

والأزواج كلها مطهرة فالماء طهور والعسل طهور والخمرة طهور كل ما في الجنة مُطهَّر وطاهر وطهور أما إذا أُولت كلمة الأزواج بالنساء فتطهيرهن بما يليق وحال أهل الجنة ،والإشارة إلى طهارتهن من الحيض والنفاس والقاذورات في الجانب الحسي أو طهارتهن من الطبائع الذميمة والأخلاق اللئيمة في الجانب المعنوي، إغراق في النظر النازل بما لا يتناغم مع مكانة أهل الجنة ولا مع مكانة الدار الآخرة عند الله فإن الله ﷻ ذكر في كتابه أن الجنة ومن فيها كلهم مطهرون فالأزواج مطهرة والماء طهور والخمرة لا غول فيها فهي طهور وكذلك وصف

---

(١) مختار الصحاح ص:٨٣.

الله في كتابه الصحف بأنها مطهرة قال تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ [(١)]، وقال تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ [(٢)].

﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾

الرضوان مصدر رضي وقد جاء بضم الراء وكسرها فمن كسرها جعل المصدر كالحِرمان والرِّئمان ومن ضمها كالرُّجحان والسُّكران والغُفران والكُفران، والرضوان أبلغ من الرضى فالرضى يصدق على مطلق الرضى ولكن الرضوان لا يصدق إلا على الرضى البالغ الكامل الذي لا يتبدل ولا ينقص[(٣)].

والذي لأهل الجنة رضوان من الله وليس رضوان الله فما الفارق بينهما؟: لو قال: لهم رضوان الله لما استلزم رضوان غيره فهم في الدنيا لهم رضوان الله مع وجود الأعداء والقالين فيها.ولكنه قال: "للذين اتقوا.....رضوان من الله" فإذا وضع الله لهم الرضوان في الجنة رضي عنهم جميع من فيها ولا يضع لهم الرضوان إلا وقد رضي عنهم هو ﷻ فقوله: رضوان من الله يشمل رضاه عنهم ورضا من في الجنة عنهم أيضا.

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾

بصير على وزن فعيل وهي من صيغ المبالغة فلا يقول باصر بل بصير.

وبصير مأخوذ من بصر يبصر وهو فعل متعدٍّ بنفسه تقول بصرت زيداً فكان من حقه لو بقي على معناه أن لا يؤتى بعده بحرف الجر ـ بالعباد ـ ولقال:

(١) عبس:١٣-١٤.

(٢) البينة:٢.

(٣) التفسير الكبير ج:٣/ ص:١٦٥.

"والله بصير عباده" فلما عُدِّي بحرف الجر الباء عرفنا أن اسم الفاعل المبالغ فيه ضُمِّن معنى فعل آخر وهو خبير فيقال زيد خبير بكذا أي عالم به تمام العلم والله بصير بالعباد أي ان الله خبير بمن يتقي الله وبمن لا يتقيه، والله أعلم.

﴿عباد﴾

جمع عبد فيقال في جمع عبد عباد وعبيد إلا أن الأغلب في تعبير القرآن استعمال عباد بالمؤمنين وعبيد بالكافرين والله أعلم.

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾

بعدما أخبر ﷻ عما أعد للمتقين عنده، راح يصفهم بأوصافهم التي تأهلوا بها لهذا العطاء الكريم فقال:

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾

فهم يقولون هذا القول ويعيشون على أساسه ومقتضياته فلم يكن الشقاق بين القول والعمل قد دب في الحياة فكان ما يقوله العربي هو ما يعمله ويحيى به وله وعندما يحدث الشقاق في حياة الناس بين أقوالهم وأعمالهم تفسد الحياة ولو حدث هذا الشقاق في جانب من الحياة واحد لفسد هذا الجانب واستشرى إلى الجوانب الأخرى ضرورة عدوى الأمراض الخلقية والاجتماعية في الأشخاص والمجتمعات.

والإسم "الرب" كان وسيلة الأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين في أدعيتهم ومناجاتهم وكان هذا الاسم أيضا هو قبلة القلوب في عبادة الله قال

تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ .... ﴾[1]، لماذا التأكيد على هذا الاسم؟ كل الأدعية إلا ما ندر جاء بصيغة – ربنا – لابد أن يكون لهذا الاسم شأن خاص في باب الدعاء ولم يكن فيه إلا استشعار المربوبية لله أثناء الدعاء لكفى ولكن أسرار أسماء الله كثيرة و الولوج إليها يخرج هذا المجموع عما وضع له.

﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾

أساؤوا في الماضي حيث لم يكن لهم داع يدعوهم إلى الإيمان فأشركوا بربهم غيره في أنفسهم وأموالهم وأولادهم جعلوا لله شريكاً في ملكه وخلقه في أنفسهم وأهليهم فلما جاءهم الداعي إلى الإيمان آمنوا وندموا على ما مضى فطلبوا من ربهم أن يغفر لهم ما مضى ويفتح لهم صفحة جديدة في العلاقة معه إنها صفحة الإيمان بالله ورسله.

﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾

قال في اللسان: أصل الغفر: التغطية و الستر تقول العرب: اصبغ ثوبك بالسواد فهو أغفر لوسخه أي أحمل له وأغطى له[2]، وقريب من هذا جاء في المصباح المنير[3] ويقال لما يضعه المقاتل على رأسه وعنقه من حديد مِغفَر[4] والمتتبع لكلمة غفر واشتقاقاتها ويستشعر بفارق بين مادة غفر ومادة ستر فكأن مادة غفر أُخذ فيها مع معنى الستر المنع من الكشف أو المحافظة على المستور وهذا

(١) البقرة:٢١.

(٢) لسان العرب ج:١٠/ص:٩١، المصباح المنير ج:٤/ص:٦١٥.

(٣) لسان العرب ج:١٠/ص:٩١، المصباح المنير ج:٤/ص:٦١٥.

(٤)المصدر نفسه ج:١٠/ص:٩١، المصباح المنير ج:٤/ص:٦١٥.

المعنى يتناغم مع مغفرة الذنب لأن الذنب بعد وقوعه لا تطلب إزالته لأن صورة الذنب قد وجدت في كثير من جهات وأنواع الوجودات سواء في نفس الإنسان أو في الكون وسواء كان هذا الذنب قولاً أو فعلا ولهذا علمنا الحق ﷻ أن نطلب من الله أن يغفر الذنب فلا يتعدى منه ضرر على فاعله ويؤيد هذا قول النبي ﷺ :"اللهم أنت ربي خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت" فلو لم يكن له وجود لما استعاذ منه وكذلك لو لم يمكن أن يُلحِق وجودُ الذنب شراً بصانعه لم يستعذ بالله منه.

وإنما قدموا أنفسهم على ذنوبهم لأنهم توسلوا بإيمانهم فكأن لهم نوع اختصاص في مغفرة الذنوب لهم اغفر لنا -لإيماننا- ذنوبنا ومغفرة الذنب هي ستر الذنب بما يدفع ضرره عن صانعه.وأما الذنب فأصله الإتباع لأن الذنب يتبع فاعله دنيا وآخرة.

﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾

كأن هذه الجملة تفسير وبيان لما قبلها لأن من غُفر ذنبه فقد وقي عذاب النار.فيكون المعنى: اللهم احجب عنا ذنوبنا لئلا نقع في النار وعذابها ولهذا كان من دعاء الملائكة:" وقهم السيئات ومن تق السيئات فقد رحمته".

﴿ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾

الصبر هو الحبس والصابر اسم فاعل بمعنى الحابس قال تعالى:"وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ" أي احبس نفسك.وتقول: صبرتُ على كذا إذا حبست نفسك عليه ويقال أيضًا صبر لكذا أي من أجله وصبرت بالله أي بالاستعانة بالله.

و"الصابرين" مع بقية الصفات جاءت مطلقة والمطلق يُحمَل على إطلاقه فيشمل جميع الصور صبر مع المؤمنين وصبر لله، وصبر بالله، وصبر على الأذى وصبر على الطاعة وصبر على المعصية كل هذه الأنواع يشملها النص لأنه مطلق وهكذا بقية الصفات.

﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾

الصدق: حكاية الحق أو الإخبار عن الواقع بما هو عليه وذلك لأن الصدق من صفات القول وأما استعمال الصدق في الإيمان أو العمل فهو استعمال مجازي.

﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ﴾

القانت: الطائع دائماً فلا يعصي وقيل: القائم للعبادة وقيل القائم بالحق[1].

﴿وَٱلْمُنفِقِينَ﴾

النفق الطريق تحت الأرض يكون له بابان ولهذا يسمى جحر اليربوع نافقاء لوجود مخرجين له أو أكثر والمُنفق: الذي يدخل الشيء في النفق، ثم استعير لإعطاء المال لوجه الله تعالى لأن المُعطي يعطي ماله سراً لئلا يراه الناس.

﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾

استغفر: الألف والسين والتاء للطلب فهؤلاء يطلبون غفر ذنوبهم وفي وقت مخصوص ـ بالأسحار ـ والسحر: السدس الأخير من الليل، وهم الطالبون من الله دائماً الثابتون على هذه الحال في كل سحَر لما في دلالة الإسم على الثبات والدوام ولما في الأسحار من العموم لأن الألف واللام فيه للاستغراق.

(١) انظر البحر المحيط ج:٣/ ص:٥٨٤. التفسير الكبير ج:٣/ ص:١٦٦-١٦٧.

وهذا الوقت هو المناسب لمثل هذا الطلب لأن الله يتجلى فيه لعباده هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من تائب فأتوب عليه ولأن السحر وهو آخر ظلام الليل يناسب التغطية والستر لما فيه من الستر أيضا ولما فيه من السكون ولأن القائم في مثل هذا الوقت دالٌّ على صدقه في طلبه وحرصه على ما يطلب فهم المتقون حقاً.

هذه صفات المتقين: إنابة إلى الله بالدعاء وصبر على الطاعة وصبر عن الشهوات المحرمة وصدق في الحياة وثبات على طاعة ربهم عند هبوب عواصف الابتلاء والشهوات وإنفاق في وجوه الخير لا يميلون إلى وجه دون وجه المخصوصون بساعات الليل الأخيرة مع ربهم يتوسلون إليه في مغفرة جميع ذنوبهم فلله درهم من عُبَّاد.

وبذلك ينتهي هذا الفصل في المقارنة والموازنة بين فريقين من الناس فريق ألهتهم الحياة الدنيا عن الآخرة وفريق أخذوا ما يشبع رغباتهم في الحياة الدنيا وعملوا لأخذ نصيبهم في الحياة الآخرة.

الفصل الخامس

في الدين والاختلاف فيه

الفصل الخامس

في الدين والاختلاف فيه

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا
مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾
فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ
أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ
بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ
ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ
وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ
لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا
مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ
وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ آل عمران: ١٨ - ٢٥

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ ﴾

شُبِّهت دلالته تعالى على وحدانيته بأفعاله الخاصة التي لا يقدر عليها غيره وبما أوحى من آياته الناطقة بالوحدانية كسورة الإخلاص وآية الكرسي وغيرهما بشهادة الشاهد في البيان والكشف وكذلك إقرار الملائكة وأولي العلم بذلك"[١] وإنما

---

(١) الكشاف: ج١/ص ٤١٧.

جاءت الصيغة بالفعل الماضي لتدل على أن الشهادة وقعت وأخذت حكمها فلا تحتاج القضية إلى تجديد في هذه الشهادة.

﴿أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾

لا نافية للجنس وخبرها محذوف تقديره: لنا أو موجود أو في الوجود، ونفي الجنس يفيد نفي الماهية أي لا يوجد إله غير الله والنفي أبلغ من النهي لأن النهي يقتضي إمكان وجود غير الله إلها فيأتي النهي عنه.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾

يقال:ملائك و ملائكة والمفرد مَلَكٌ وإنما سمي المَلك مَلَكاً لشدته وقوته نقول: ما تمالك فلان أن قال كذا أي ما تماسك[1] وتقول: ملَكتُ العجينَ إذا شددت عجنه وتماسك.

﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾

أي أصحاب العلم ولم يخص القرآن الكريم علماً بعينه لأن العلم معرفة المعلوم والمعلوم يدل على خالقه ضرورة فكل العلوم توصل إلى الشهادة لله ومحاولة تخصيص العلم بنوع دون آخر يأباه إطلاق النص.

﴿قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾

قائماً حال موكِّدة أي مقيماً للعدل وذلك لأن الإله هو الحاكم والحاكم قد يقيم العدل وقد يعدل عنه ولهذا جاء هذا الحال ليرفع توهم مالا يليق من الحكم بالحيف في ذات الله تعالى.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾

(١) مختار الصحاح: ٢٦٥.

بدأ بها وختم تأكيداً وإقراراً فالحاكميّة في الخلق مقصورة عليه دنيا وآخرة لا اله إلا هو.

﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

الصفتان هما مستندا الحاكمية في الكون الغلبة والحكمة فمن كان مغلوباً لقضاء حاجته وتدبير حاضره ومستقبله لا تصح له الألوهية عليها ومن لم يكن حكيماً في قضائه وفعله انكسرت عليه مملكته [١].

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾

إنه كلام مستأنف على أصح الوجوه يبين الله فيه معنى الإيمان بالإلوهية فالعرب تدعي الإيمان بالله وأهل الكتاب يدعون ذلك أيضاً فما هو هذا الإيمان؟.

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ﴾

الدّين بكسر الدال العادة والشأن يقال:دان زيد عمراً دِيناً بكسر الدال إذا أذلّه واستعبده ويقال: دان له أي ذل وخضع[٢]هذا هو معنى الدين في هذا الموقع فيكون معنى الإيمان بالإلوهية لله هو الذلة له والعبودية فمن لا يشعر بهذه الذلة والعبودية فليراجع إيمانه من جديد.

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾

أي إن العبودية المقبولة عند الله إنما هي الإسلام والإسلام: هو مصدر الفعل المزيد أسلم يقال:أسلم يسلمُ إسلاما تقول: أسلمت نفسي لزيد إذا وضعت قيادك في يده يقودك كيف يشاء فالهمزة إنما جاءت للتعدية ولا يصح حمل الإسلام

---

(١) انظر التفسير الكبير: ج ٣ / ص١٧١.

(٢) أنظر مختار الصحاح ص ٩٧.

على الاستسلام لأن الاستسلام مصدر استسلم والذي معنا إسلام لا استسلام هذا أولاً، وثانياً: إن استسلم تدل على التكلف في التسليم بخلاف أسلم ويمكن تفسير أسلم على معنى الدخول في الإسلام كما تقول: أصبح إذا دخل في الصباح وأمسى إذا دخل في المساء فيكون معنى الآية: إن الدين عند الله الدخول في الإسلام وهو الدين الجديد فيكون الدين المقبول عند الله إنما هو دين الإسلام فقط.

والمعنيان صحيحان وإن كنا نميل إلى الأول جرياً للفعل أسلم على أصله الذي وضع له ولأن العبودية لله لا تتحقق إلا بإسلام الوجه والقلب إلى الله ليصرفهما كما يريد ،أسلم نفسك لربك واسترح فما أمرك به فامتثل له وما نهاك عنه فاجتنبه وما تركك فهو مباح لك أسلم نفسك لربك في عقيدتك وعبادتك ومعاملتك وأخلاقك فان فعلت ذلك كنت المسلم حقا.

﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾

لو أسلم أهل الكتاب أنفسهم وقلوبهم لله فيما أخبرهم أنبياؤهم وفيما يقرؤونه في كتبهم من إرسال رسول بعد رسلهم لو أسلموا أنفسهم لله لآمنوا برسالة محمد ﷺ فلا يكفر أحدهم برسالة محمد ﷺ إلا بعد أن يكفر برسالة نبيه الذي ينتسب إليه. وأهل الكتاب قبل إرسال محمد ﷺ كانوا مسلمين أنفسهم لله فيما أخبرهم به من إرسال رسول بعد رسولهم وعزمهم على الإيمان به ومناصرته إلا أن رغبتهم في تسلط بعضهم على بعض وعدوان قبيلة منهم على قبيلة جعلهم ينكلون عن هذا الإسلام لله ولرسله زد على ذلك أنهم كانوا يتمنون أن يكون النبي الخاتم منهم وليس من العرب لما في أنفسهم من احتقار للعرب وازدراء بهم أحسب أن هذا المعنى هو الظاهر من سياق النص وسباقه على الرغم من وجود وجوه أُخرى.

﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾

أصل البغي الطلب تقول أبغي كذا إذا طلبته ولكنه هنا قصد به الطلب مع الظلم أي بدون حق وبغياً إما منصوب على أنه مفعول له أي ما اختلفوا إلا للبغي أو أنه منصوب بما دل عليه السياق كأنه قال: وما بغى الذين أُوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم.

﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾

هكذا تأتي هذه التعقيبة عامة من يكفر بآيات الله لتشمل كل من ينطبق عليه الوصف فآيات الله: الحجج التي وضعها في الكون كله وآيات الله المنزلة في القرآن وآيات الله المنزلة في التوراة والإنجيل على صدق محمد ﷺ كلها آيات الله ودلالاته على صدق دينه وأحقية رسالته.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾

المقصود بالحساب هنا إما المحاسبة على الأعمال وإما الجزاء عليها فإن الحساب أن تأخذ مالك على غيرك ومنه قوله تعالى:"يوفيه حسابه" والسرعة في المحاسبة تظهر في اليوم الآخر عندما تأتي الملائكة الموكلة بكل إنسان فتضع أعماله في ميزانه فتتم محاسبة المخلوقين في لحظات أو لحظة كأنها حساب شخص واحد فقط والسرعة في المحاسبة في الدنيا أيضاً على هذا الأساس فكل عمل يعمله ابن آدم يوضع في صحيفة عمله خيراً في صحيفة الخير وشراً في صحيفة الشر وأما السرعة في الجزاء في الآخرة فظاهر في سرعة المحاسبة وأما السرعة في الجزاء في الدنيا فهي على الفور وأول مظاهرها نور الطاعة في قلب المطيع وظلمة المعصية في قلب العاصي ولهذا يقول ابن عطاء الله السكندري "جل ربنا أن نعامله نقداً فيعاملنا نسيئة بل عد شيخ الإسلام ابن تيمية من أسباب الجهل في دين

الله ما يرتكبه الإنسان من معاصي الله [١] بل نقول أن من سرعة الجزاء في الدنيا على الذنب نسبة الذنب إليه من حين التلبس بالذنب سواء كان الذنب قولاً أو فعلاً أو كان من أعمال القلوب فجل جلال الله.

﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾

تبدأ هذه الآية ب(إن) الدالة على الاستبعاد و الشك فإن حاجوك فكيف صح هذا الاستبعاد مع قيامهم في الجدل واللجاج فيه؟ فيقال في الإجابة عن هذا التساؤل إن الله سبحانه أقام وضوح ما يدعوا إليه في كتابه وفقدان الخصم أي طريق للمعارضة الجادة الصادقة أقام ذلك مقام الشك والاستبعاد إذ من البديهي أنه لا يقدم على الحجاج إلا من بيده جزءٌ من الحق أو شبهة حق وأي حق بيد من يدعى إلى البديهيات فيعاند وإلى ما يعرف من الحق فيناكد ؟!!

﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ ﴾

أصل حاجُوك حاججوك فأدغمت الجيم في أختها للتخلص من التكرار.وحاجوك: من باب المفاعلة أي فإن طلبوا منك المقارعة بالحجة ؟ فقل: أسلمت وجهي لله: أي لست أنا الذي أحاججكم بل أنا أسلمت وجهي لله فإن شاء مني أن أقارعكم بالحجة قارعتكم وهي عودة إلى البديهة الأولى: إن الدين عند الله الإسلام فلو أسلمتم لله وجوهكم ونظرتم ما أمركم به من الإيمان بي وبما أُرسلتُ به لدخلتم في ديني وكنتم مثلي مسلمين لله.

(١) الفتاوى الكبرى ج١٤ /ص ١٥٢ -١٥٣

وإسلام الوجه كناية عن الانقياد والطاعة والمتابعة والإسلام لله يستلزم الإعراض عن متابعة غيره ضرورة عدم إمكان متابعة اثنين في آن واحد[١].

﴿ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ ﴾

أي ومن اتبعني أسلم وجهه لله أيضاً لأن تابع التابع تابعٌ وأصل الكلمة: اتبعني فحذفت الياء وأبقيت الكسرة على النون لتدل عليها في حالة الوصل وسكنت في الوقف قال أبو حيان:"وأثبت ياء اتبعني في الوصل أبو عمر ونافع وحذفها الباقون وحذفها أحسن لموافقة خط المصحف"[٢].

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ ﴾

﴿لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ﴾

هم اليهود والنصارى والأميُّون هم الذين لا كتاب لهم من مشركي العرب وغيرهم كالمجوس وعبدة الأوثان كما ذهب إليه الإمام الرازي ،وإنما سمي العرب أميين لوجهين أولهما: أنهم ليسوا بأهل كتاب والثاني:أن الكتابة والقراءة فيما بينهم قليلة فغُلِّب عليهم هذا الاسم[٣].

﴿ءَأَسْلَمْتُمْۚ﴾

هذا النوع من الكلام كان أمرَّ عليهم من الصبر ماذا يقول إنسان يدعي الدين والانتساب إلى الأنبياء عندما يقال له: أتسلم لرب العالمين؟ ماذا يقول وهو

---

(١) البحر المحيط ج ٣ / ص ٧٤

(٢) التفسير الكبير ج ٣ /ص ١٧٥.

(٣) المرجع السابق.

يعلم أنه حرّف وبدّل، أيقول نعم فيقال له ائت بكتاب الله الذي عندك أم يقول لا فيفتضح ،كلاهما مُرٌّ.

﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ﴾

مجرد إسلامهم لله هداية لهم، فإسلامهم هدايتهم لأن هدايتهم ناتجة عن إسلامهم وإسلامهم يعني الصدق في موقفهم من كتابهم فإن أسلموا حقيقة وعملاً فقد اهتدوا لهذا لم يقابل القران القول بالقول لم يقل: فإن قالوا أسلمنا لله فقد اهتدوا لأنهم هم الذين حرفوا كتابهم بغياً بينهم.

﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾

﴿تَوَلَّوْا ﴾

أي أعرضوا.

﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ﴾

المرسِل هو المالك، والرسول مملوك مثله مثل من يدعوه والمالك وهو يدعو مملوكيه بواسطة واحد منهم لم يوجب عليه إلا البلاغ، تقول: بلغ زيد المكان أي وصل إليه ويطلق أحيانا على مقاربة الوصول.وبلغ الغلام: أدرك وبابهما دخل أي أن المصدر منهما على وزن فُعول بلغ بُلوغا، والإبلاغ والتبليغ الإيصال والإسم منه ــ البلاغ ــ والبلاغ أيضًا الكفاية[1] تقول: إن لك فيه بلاغاً أي كفاية.

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾

بصير هنا من البصيرة لا من البصر بدليل تعديته بالباء فكأنه ضُمِّن معنى

---

(١) مختار الصحاح ص:٣٣.

خبير وفائدة العدول من التصريح بالإسم خبير إلى تضمين بصير به لتكون الخبرة قريبة من البصر فكأنها مشاهدة والله أعلم.

﴿بِٱلۡعِبَادِ﴾

(أل) في العباد جنسية أي كل العباد من مؤمن وكافر وفي هذا الاستعمال ردٌّ على من توهم أن عباداً لم تستعمل في القران الكريم إلا للمؤمنين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

﴿يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾

أي ينكرونها بدليل التعدية بالباء لأنه لو أراد معنى الستر لقال: يكفرون آيات الله بدون حرف الجر والتعبير بالفعل المضارع ليدل على أن هذا شأنهم وفعلهم المتجدد في كل وقت.

﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾

ويقتلون النبيين هذه سمتهم التي يمتازون بها من دون الناس.

﴿بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾

قيد واقعي وليس قيداً احترازياً فلم يوجد قتل نبي بحق في التأريخ[١].

﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾

قرأ حمزة وحده: ويقاتلون بدل ويقتلون[٢].

---

(١) التفسير الكبير ج:٣/ ص:١٧٧.

(٢) التفسير الكبير ج٣/ ص١٧٧.

﴿بِالْقِسْطِ﴾

القسط: بالكسر العدل تقول منه: أقسط الرجل فهو مقسط ويطلق القِسط على الحصة أيضًا.وأما القُسُوط فهو الجور والعدول عن الحق وبابه جلس أي قَسَطَ يقسط بفتح السين في الماضي وكسرها في المضارع، ومنه قوله تعالى:﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾[1] [2].

﴿مِنَ النَّاسِ﴾

أي غير الأنبياء إذ لو قال: ويقتلون الذيـــن يأمرون بالقسط لشمل الأنبياء لصدق النص عليهم فيكون تكراراً[3].

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

البشارة هي الخبر السار، وسميت بشارة لظهور أثرها على بشرة المخبر بها لأن من وصل إليه خبر يسره انفتحت أسارير وجهه وابتسم للبشارة بل انبسطت جميع عضلات جسده، وعلى العكس تكون حالة من يلقى عليه خبر سيء فان أساريره تنقبض وكذا جميع عضلاته، بل إن جميع الغدد في جسم الإنسان تتأثر بما يصل إليها من أخبار وانظر إلى فم من يصل إليه خبر مزعج كيف يعتريه اليبس في اللسان والشفتين لتوقف غدد اللعاب عن الإفراز في داخل الفم.

والعذاب الأليم أي المؤلم أو المألوم فكأن العذاب يشعر بالألم واستخدام لفظ البشارة هنا إما تهكماً وإما إقامة لعامل السوء إقامة من ينتظر نتيجـــة عملـــه

---

(١) الجن: ١٥.

(٢) مختار الصحاح ص:٢٢٥.

(٣) البحر المحيط ج:٣/ ص:٧٦.

ولأن الإخبار بالعذاب الأليم يظهر أثره على بشرة المخبَر أيضًا.

﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾

﴿حَبِطَتۡ﴾

جاء هذا الفعل على باب فَهِمَ فيقال: حبط يحبَط حبطاً بمعنى بطل تقول: حبط عمله: إذا بطل ثوابه وجاء على باب جلَس فكان مصدره حُبوطاً والحبَط: بفتحتين أن تأكل الماشية فتكثر الأكل حتى تنتفخ بطونها ولا يخرج عنها ما فيها[1] فتبطل فائدة ما أكلته وإنما ذكرنا هذا لنبين أن البنائين للفعل حبط لهما معنىً واحدٌ.

﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾

بطلت ولم تؤد ما كانوا يودون من إيقاف مسيرة الإيمان ودعاته من الرسل وأتباعهم، بل كانت قافلة الإيمان بقيادة الأنبياء وأتباعهم هي الباقية وحبطت أعمالهم في الآخرة لأن الآخرة يوم جزاء على الأعمال والذي يجمع الناس للجزاء إنما هو الله الذي دعاهم إلى الإسلام له على ألسنة رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهم لم يكتفوا بعدم قبول الإسلام له بل قتلوا المبلغين عنه من الأنبياء وغيرهم فلا يطمعون بشيء يسرهم في ذلك اليوم أصلاً ولذلك حكى الله عنهم معرفتهم سوء المصير منذ خروجهم من قبورهم قال تعالى:﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾[2]

(١) مختار الصحاح ص:٥٨.

(٢) يس ٥١- ٥٢.

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾

وما يملكون من ناصرين يدفعون عنهم العذاب يوم القيامة ولا ينصرونهم في الحياة الدنيا بل هم خسروا الدنيا والآخرة قال في البحر المحيط:"والمعنى بانتفاء الناصرين انتفاء ما يترتب على النصر من المنافع والفوائد وإذا انتفت من جمع فانتفاؤها من واحد أولى وإذا كان جمع لا ينصر فأحرى أن لا ينصر واحد"[1] ولا أدري كيف فهم أبو حيان هذا الفهم إذ من المعلوم أن المفرد في سياق النفي أعم من الجميع فلو كانت الآية على هذا النظم "ومالهم من ناصر" لدلت على نفي جنس الناصر فلا يدخل فرد من أفراد الناصر أصلا فقولنا: ماله من ولد، ينفي كل ولد وأما قولنا: ماله من أولاد فإنما ينفي المجموع فقط ولهذا يصح أن نقول: ماله من أولاد بل ولد واحد أو ولدان ولا يصح أن نقول: ماله من ولد بل ولدان لوجود التناقض بين أصل الكلام وما استدرك منه وكذلك ذهابه في تأويل النصر بما يكون من ثمراته لتوهمه أن حقيقة المقابلة والانتصار فيها غير ممكن في اليوم الآخر بل للذين كفروا أن يستسلموا للمصير فقط ولكن القرآن ينقل لنا غير هذا التصور عن اليوم الآخر قال تعالى:﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾[2] وقال تعالى:﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُۚ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾[3].

---

(١) البحر المحيط ج:٣/ ص:٧٨.

(٢) النحل ١١١.

(٣) الأعراف٥٣.

وبهذا يتبين لنا أنهم وعلى الرغم من هول الموقف يجادلون عن أنفسهم بل ويفتشون عن شفعاء فهم يستنصرون على مصيرهم السيئ وما يجدون من ناصرين، والتعبير بالجمع هنا لأن الآية وإن كانت خبراً إلا أنها على معنى الحكاية لأنك لا تقول مالهم من ناصرين إلا إذا تحقق طلبهم للناصرين، وهم بهذا الموقف المرعب تنتابهم الحيرة والذهول من معاينة الإفلاس من كل أعمالهم التي قدموها على ظنهم لتنفعهم في هذا اليوم إن كانوا من أهل الكتاب أو التي عملوها في أبواب الخير والمنفعة العامة إن كانوا مشركين لا سيما وهم يرون بأم أعينهم ما ينتفع به أهل الإيمان من أعمال.

ويتفق أبو حيان والإمام الرازي على أن الله ﷻ لما ذكرهم بصفات ثلاثة هي الكفر بآيات الله وقتل النبيين وقتل الدعاة رتب عليهم أجزية ثلاثة العذاب: العذاب الأليم وإحباط العمل وعدم النصير فكان الأول للأول والثاني للثاني والثالث للثالث[1] على طريقة اللف والنشر المرتب.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾

الاستفهام تعجبي إنكاري، تعجبي: من أناس بيدهم حكم الله فيتركونه ليتحاكموا إلى أهوائهم وأعرافهم وإنكاري لأنهم يدعون الانتساب إلى كتب الله وأنبيائه فلا تصح لهم هذه النسبة وهم يعرضون عما ينتسبون إليه.

﴿الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾

يصدق النص على كل من أوتي من كتب الله نصيباً وذكر اليهود

---

(١) التفسير الكبير ج:٣/ ص:١٧٧، البحر المحيط ج٣:/ ص:٧٨.

والنصارى في كتب التفسير[١] لا يعدوا أن يكون واحدا مما يصدق عليه النص.

﴿نَصِيبًا﴾

النصيب: الحظ وتنكير النصيب في الآية لا يحتمل غير التعظيم لأن التقليل والتحقير وإن كانا من دلالات التنكير لا يتناغم مع سياق النص بل يعد عذراً لهم.

﴿مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾

الألف واللام في الكتاب جنسية فتعم كل الكتب المنزلة من الله ومن للتبعيض فيكون التقدير ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً عظيماً من الكتب المنزلة ويمكن اعتبار الألف واللام للعهد وكتاب اسم جنس فيكون الخطاب كالإشارة إلى ما يفعله اليهود والنصارى[٢].

﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾

النص كما ذكرنا شامل كل من بيده كتاب الله ــ أيّ كتاب ــ ثم يدعى إلى التحاكم إليه فيعرض عنه، وذكر المفسرون التوراة باعتبار أن النص جاء في القران الكريم ليحكم عليهم، والنص الحاكم لا تقيده القضية المحكوم فيها ولهذا ذهب من السلف من يقول: "إلى كتاب الله "أي القران[٣] فالتحاكم إلى كتب الله من أهم ما جاءت به كتب الله وما قيمة كتاب أو قانون معطل أو ملغى لا دور له في حياة الناس،ألم تر أن القران في هذا البيان جعل الفارق بين المؤمنين وغيرهم إنما

---

(١) انظر التفسير الكبير ج:٣/ ص:١٧٩، البحر المحيط ج:٣/ ص:٨٠-٨١.

(٢) البحر المحيط ج:٣/ ص:٨١.

(٣) انظر التفسير الكبير ج:٣/ ص:١٧٩ن البحر المحيط ج٣/ ص:٨١.

هو تحكيم كتاب الله ألم تر أن الله استنكر عليهم ادعاء الإيمان مع عدم تحكيم كتاب الله.

﴿بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾

تولى العمل أي تقلده وتولى عنه أي أعرض عنه.ثم يتولى فريق منهم: ماذا؟ وعمن؟يقول أبو حيان:"وهم معرضون: جملة حالية مؤكدة لأن التولي هو الإعراض أو مبينة لكون التولي عن الداعي والإعراض عما دعا إليه فيكون المتعلق مختلفاً أو لكون التولي بالبدن والإعراض بالقلب، أو لكون التولي من علمائهم والإعراض من إتباعهم[1] واحسب أن الراجح من هذه الأقوال هو الرأي الثاني القائل بأن التولي بالبدن والإعراض بالقلب لأن الأول والثالث يستلزمان التقسيم في تفسير النص مع عدم وجود حاجة إلى هذا التقسيم وعدم وجود أثارة من دليل عليه.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾

هذا موقف تحليلي من القران الكريم لموقفهم ذلك يشرح ويعيــد المواقف إلى أسبابها النفسية إن هذا النوع من التحليل لم يكن الناس ليتكلموا به بل إن هذا التحليل يستدعي العلم المسبق بما هم عليه من أفكار وعقائد هذا النوع من العلم لم يكونوا يعرفونه من محمد ﷺ ولا ينسبونه إليه ولهذا يكون الإعلان عنه فيه إحراج لهم من ناحيتين:

الأولى: أن محمداً ﷺ لم يكن درس التوراة ولا فقه اليهود وعقائدهم فكيف عرف ذلك؟

(١) البحر المحيط ج:٣/ ص:٨٢.

الثانية: هذا التحليل للمواقف وإرجاعها إلى أسبابها النفسية مما لم يكونوا يألفوه في حياتهم الدينية.

إنهم في غرورهم يعتقدون أنهم لن يكونوا حطباً لجهنم حتى لو عملوا ما عملوا من المعاصي والموبقات إن النار سوف تمسهم فقط ولا تحرقهم وهي وإن مستهم فسوف لن تمسهم طويلاً بل أياما معدودات وهي بين السبعة أيام والأربعين يوماً وهي المدة التي عبدوا فيها العجل[1]، وبالمقارنة بين ما يفوتهم من مركز وجاه إذا أسلموا وبين تحمل مس النار أياما معدودات يترجح لديهم تحمل مس النار هذه الأيام على التفريط بجاههم ومكانتهم بين رعاياهم إذ لا يغيب عن بالنا أن الذين يعبثون هذا العبث في ديانتهم إنما هم الأحبار والوجهاء والقادة كل منهم يخدم الآخر في ذلك الاتجاه.

ومن الواضح أن هذا التعليل وارد في عدم التحاكم لدينهم إذا دُعوا إلى ذلك التحاكم فهم إذن استحقروا الخروج على دياناتهم لخفة المسؤولية عليهم يوم القيامة كما يدعون وأن النار تمسهم أياما معدودات وإنما نبهنا على سبب هذا التعليل لأن من المفسرين من ذهب إلى توهم غير هذا[2].

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾

جاء في سورة البقرة: أياماً معدودة "لأن أياماً جمع تكسير وجمع التكسير يصح نعته كنعت المفرد ويصح نعته كنعت جمع المؤنث فتقول: جبال شامخة وجبال شامخات ونساء قائمة ونساء قائمات[3].

---

(١) التفسير الكبير ج:٣/ ص:١٨٠.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) البحر المحيط ج٣/ ص:٨٣.

﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾

قال مجاهد: الذي افتروه هو قولهم:"لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات "وقال قتادة: "قولهم نحن أبناء الله وأحباؤه "وقيل: قولهم:"لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى"، وقيل: مجموع هذه الأقوال، سرد هذه الأقوال في البحر المحيط[١] وقول مجاهد هو الصحيح من هذه الأقوال لأن احتمالات العموم إنما جاز الأخذ بها إذا لم يكن التخصيص في نفس النص وكذلك الإطلاق في المطلق وإذا كانت ما من ألفاظ العموم فقد جاء معها المخصص وهو "لن تمسنا... الخ " فكيف نذهب في قبول احتمالات أخرى في تفسير النص؟!!

يقال: غر يغِر بكسر الغين غرورا أي خدعه، وتقول: ما غَرَّك بفلان أي كيف اجترأت عليه[٢] ومن المعلوم أن الآية على هذا التقدير: "وغرهم افتراؤهم على دينهم في ترك التحاكم إليه وذلك لعدم مناسبة العقاب في نظرهم لما يرتكبون من مخالفة لدينهم على قاعدة:"من أمن العقاب أساء الأدب"

وسواء ذهبنا أن غرَّ في الآية معناها الاستغفال أو الخديعة فكلا المعنيين صادق عليهم فقد كان السبب في ترك دينهم استغفالهم لأوامره ومخادعتهم لأنفسهم ولأبناء دينهم.

﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾

يقال: افترى الرجل الفرو أي لبسه وافترى كذباً أي اختلقه(٣) فالافتراء

(١) المصدر نفسه.

(٢) مختار الصحاح ص:٢٠٠.

(٣) مختار الصحاح ص:٢١٢.

أشد من الكذب لأن الكذب نقل خبر ليس على وجهه والافتراء أن تختلق الكذب اختلاقاً ولهذا جاء في القرآن الكريم: ﴿يفترون على الله الكذب﴾ [1]، فاليهود لم يكن عندهم نقل خبر كاذب بل هم اختلقوا الكذب اختلاقاً ونسبوه إلى دينهم ومثل هذا الإخبار عما كانوا يفعلون ويختلقون في دينهم من قبل القرآن الكريم يريك مسيرتهم وموقفهم من أهل دينهم فلا بدَّ أنهم سائلون أنفسهم من أخبر محمداً ﷺ بتلك مع ما كانوا يعلمونه من أنفسهم من التكتم على مثل هذا الافتراء وعدم الإعلان به حتى لأهل دينهم .

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

هذا الخطاب تعجب من حالهم كيف يفترون بمثل هذا القول وهم يعلمون أنه مما صنعته أفكارهم المنحرفة كيف يفترون بذلك وهم يؤمنون بيوم الحساب ولا يرتابون فيه.

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾

قال الرازي: "فإذا حملت ما كسبت على عمل العبد جعل في الكلام حذف والتقدير: ووفيت كل نفس جزاء ما كسبت من ثواب أو عقاب وإن حملت ما كسبت على الثواب والعقاب استغنيت عن هذا الإضمار"[2].

﴿وَوُفِّيَتْ﴾

---

(1) النساء: ٥٠.

(2) التفسير الكبير ج٣/ ص: ١٨٠.

الوفاء: ضد الغدر، يقال: وَفَى بعهده وفاءً. وأوفى بعهده إيفاءً بمعناه فإذا نقلت الفعل إلى المضعف فقلت وفَّاه صار بمعنى أعطاه ومثله أوفاه حقه أعطاه ومعنى وفَّاه: أعطاه وافياً أي تاماً[1].

﴿كَسَبَتْ﴾

الكسب: طلب الرزق وأصل الكسب الجمع تقول: كسبت مالاً أي جمعته[2].

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

"الظلم في الأعمال: النقص منها والظلم في الجزاء: الزيادة في عقاب المسيء أو النقص في عطاء المحسن فلما جاء النص بحذف المعمول (لا يظلمون) دل على جميع هذه الصور.

والواو واو الحال أي أن كل نفس لها الوفاء التام على ما كسبت من خير وأما ما كسبت من سوء فلن تظلم في أخذ عقابها، ولولا هذه الحال:"وهم لا يظلمون" لتوهم من يتوهم أن الوفاء في العقاب قد يصل إلى نوع من الظلم وبذلك ننتهي من تحليل نصوص هذا الفصل عن الدين والاختلاف فيه وكيف هوى أهل الكتاب في مخالفة كتبهم وعدم التحاكم إلى نصوصها وكأن هذا السرد يقول لنا: إياكم أن تكونوا مثلهم إياكم ثم إياكم.

---

(١) مختار الصحاح ص: ٣٠٤.

(٢) المصدر نفسه ص: ٢٣٦.

الفصل السادس

في مالكية الله للكون

الفصل السادس

في مالكيــة الله للكون

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ آل عمران: ٢٦ - ٢٧

بعد أن ذكر الله دلائل الوحدانية ودلائل النبوة والرسالة للأنبياء والمرسلين وأنبأ عن أخبار أهل الكتاب وما يعملون من تحريف لكلمات الله وقتل للأنبياء والمصلحين ووقوفهم في وجه الدعوة إلى الله أعلن هذا البيان الإلهي على لسان رسوله ﷺ فليس الملك ملك لليهود ولا للنصارى ولا للعجم ولا للعرب إنما الملك لله يؤتيه من يشاء.

﴿ قُلِ ﴾

الخطاب موجه إلى حضرة النبي ﷺ فهو المأمور أصالةً بإعلان هذا البيان للناس كل الناس وهو أيضًا موجه إلى كل من يحمل دعوة الله نيابة عن محمد ﷺ ولعل إضمار المقول له إنما كان لهذه الدلالة.

﴿ٱللَّهُمَّ﴾

أي يا الله والميم المشددة عوض من يا التي هي للنداء هذا هو الراجح من مذاهب النحاة في أصل هذه الكلمة ـ اللهم ـ[١].

---

(١) التفسير الكبير ج:٣/ ص:١٨٥.

وهذه الصيغة هي الأكثر وروداً في أدعية النبي ﷺ وهي الأكثر استعمالاً في كلام العرب في جاهليتها حيث كانوا يقولون باسمك اللهم؛ وأللهم اعمل لنا كذا وكذا.

وكلمة الرب هي الأكثر وروداً في أدعية الأنبياء السابقين وأتباعهم كما يرويها لنا القران الكريم فكان توفيق الله لهذه الأمة أن تعلقت بالاسم العلم الذي يدل على جميع الأسماء والصفات في جاهليتها وإسلامها وكأن التوجه إلى الله ﷻ بالاسم العلم فيه خصوصية لا توجد في غيره من الأسماء وكأن قوله تعالى:﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [1] فيه إشارةٌ إلى هذه الخصوصية.

﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾

الألف واللام في قوله "الملك" للجنس وأُضيف إليه "مالك" وهو لفظ مفرد والمفرد المضاف فيه دلالة على العموم فيكون المعنى: يا الله يا من أنت المالك لكل مملوك،قال في الكشاف :"مالك الملك" أي تملك جنس الملك فتتصرف فيه تصرف المُلاك فيما يملكون"[2] وهذا الاسم "مالك الملك" يمثل القاعدة الثانية من قواعد العقيدة الدينية في كل الديانات كما حكاها القران الكريم.

فالأولى :خالقيّة الله للكون كله وقد كان العرب يؤمنون بها قبل الإسلام قال تعالى:﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [3] وهذه القاعدة هي

---

(١) الاسراء:١١٠.

(٢) الكشاف ج:١/ص:٤٢٠.

(٣) لقمان:٢٥.

التي أجهد الفلاسفة والمتكلمون أنفسهم في البرهنة على إثباتها مع أن الوقوف معها وعندها لا يغني شيئاً فالاكتفاء بالإيمان بأن الله هو الخالق لا يخرج من كفر إلى إيمان ولا ينجي من نار ولا يدخل جنة.

والثانية: مالكيَّة الله للكون كله، وهذه تنتج عن الأولى فمن ضرورة العقل أن الصانع هو الذي يملك ما صنع وهي تحرر المملوك من الخضوع والانقياد لغير المالك فكيف يرضى المملوك أن ينقاد لمملوك مثله وأنى يتأتى للمملوك أن يقود المملوكين لغيره بل لمالكه هو أيضا.

والثالثة: الطواعية للمالك والخالق وهي المعبر عنها بالألوهية أو الحاكمية وإلا فما فائدة الإيمان بالخالقية والمالكية لله مع عدم الإسلام لهذا الخالق والمالك؟!!

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ﴾

كأن هذا الخطاب الإلهي يريد أن يعلمنا على لسان رسوله ﷺ كيف نخاطب ربنا ﷻ قل: يا الله "اللهم" يا "مالك الملك" فالآية ليست إخباراً مثل: إن الله مالك الملك ولكنها إنشاء قل: يا الله ومن عادة العرب أن تذكر بعد النداء الغرض الذي جاء النداء من أجله ولم يأت في الآية بيان الغرض صريحاً وهو أدب عالٍ أدبنا الله به في كيفية الطلب منه ﷻ.

﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ ﴾

أي تعطي فهي من الإيتاء لا من الإتيان.

﴿ٱلْمُلْكَ ﴾

أي كل ما يصدق عليه أنه مُلك فالنبوة ملك والعلم ملك والعقل ملك وكذا الصحة في النفس والجسد والجاه والقدرة والمال قال الرازي عليه الرحمـــة:"وذلك

لأن اللفظ عام فالتخصص من غير دليل لا يجوز"[1] فالكل عطاء الله.

﴿مَن تَشَآءُ﴾

أي بسبب ظاهر أو باطن ومن: اسم موصول دال على العموم أيضاً فلا يتخصص بجهة دون أخرى فهو ﷻ ينعم بما شاء على من شاء وفي ذلك رد على أهل الكتاب الذين يدعون أن ملك النبوة مقصور عليهم أي على بني إسرائيل فلا يأخذه أحد غيرهم.

﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾

النزع معناه الأخذ بقوة قال في مختار الصحاح: نَزَعَ الشيء من مكانه قَلَعَهُ[2] وهذا أيضاً تعريض بأهل الكتاب من حيث مشموليتهم بالنص لا أن النص قاصر عليهم.

﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾

العز: الغلبة والجاه وعلو الكلمة ونفوذ الأمر.

﴿مَن تَشَآءُ﴾

أي وإن كان قبل ذلك غير عزيز: فالعزة لله يؤتيها من يشاء وينزعها ممن يشاء.

﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾

الذل: الخضوع فهو ضد العز أي أن الله يجعل الذلة والهوان على من يشاء.

---

(١) التفسير الكبير ج:٣/ ص:١٨٩.

(٢) مختار الصحاح ص:٢٧٣.

﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُ﴾

قدم الخبر لإفادة الحصر أي بيدك لا بيد غيرك.

﴿ٱلۡخَيۡرُ﴾

أي جنس الخير كله من خير الدنيا أو من خير الآخرة وسواء كان بتقديم أو غير ذلك وسواء كان عطاءً أو منعا.

﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾

تأكيد بإن وتوسل بالقرب الذي يدل عليه كاف الخطاب وحصر بتقديم المعمول ــ على كل شيء ــ على قدير.

﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾

﴿كُلِّ﴾

لفظ مفرد موضوع لتأكيد الجموع[١] وهو مضاف وشيء مضاف إليه وقد ذكرنا أن المفرد المضاف يعم، فيكون معنى الآية: إنك على كل ما يصدق عليه كلٌّ من أي شيء صغير أو كبير أو باطن قديرٌ وذلك لأن "شيء" نكرة بل هي أنكر النكرات فتصدق على ما قل وكثر.

والجملتان الأخيرتان ترمزان إلى مطلوب النداء أي أعطني الخير فإنك القادر وإذا أنعمت النظر في هذه الآية سجد قلبك لله أنظر كيف تصدرت بقل لتكون تعليماً وكيف استهل النداء بقوله: اللهم مالك الملك بالأسم الجامع أولاً ثم أردف اسماً خاصاً يناسب كل مطلوب من العبد ثم انظر كيف ساق جميع الأفعال بصيغة المضارع الدال على تجدد الحدث والحركة والحيوية فيه ثم كيف ختم بالجملة

---

(١) مختار الصحاح ص:٢٤٢، وانظر لسان العرب ج:١٢/ ص:١٤٢ ففيه ما ينفعك.

الإسمية حين أخبر عن نفسه وأسمائه وصفاته ليدل على الثبات وعدم التحول لأن التحول ليس من شأن أسمائه.

﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾

الولوج كما يبدو لي هو: الدخول إلى ما يستر الوالج ويغطيه ومنه ولوج الحية في جحرها وكذا الجماع حيث يسمى بالإيلاج أو هو الدخول بمشقة وعسر ومنه قوله تعالى:﴿وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِ﴾ [(١)]، والى الأول ذهب الماوردي فيما حكاه عنه أبو حيان قال: "وذكر الماوردي: إن المعنى في الولوج هنا تغطية الليل بالنهار إذا أقبل، وتغطية النهار بالليل إذا أقبل فصيرورة كل واحد منهما في زمان الآخر كالولوج فيه".قال أبو حيان: "وأورد هذا القول احتمالاً ابن عطية"[(٢)] وقال الرازي:" فيه وجهان: الأول: أن يجعل الليل قصيراً ويجعل ذلك القدر الزائد داخلاً في النهار وتارة على العكس من ذلك والثاني: أن يأتي بالليل عقيب النهار فيلبس الدنيا ظلمة بعد أن كان فيها ضوء النهار ثم يأتي بالنهار عقيب الليل فيلبس الدنيا ضوءه فكأن المراد من إيلاج أحدهما في الآخر إيجاد كل واحد منهما عقيب الآخر" قال رحمه الله: "والأول أقرب إلى اللفظ لأنه إذا كان النهار طويلاً فجعل ما نقص منه زيادة في الليل كان ما نقص منه داخلاً في الليل"[(٣)]

---

(١) الأعراف :٤٠.

(٢) البحر المحيط ج:٣/ ص:٨٨، وانظر لسان العرب ج:١٥/ ص:٣٩١-٣٩٢.

(٣) التفسير الكبير ج:٣/ص:١٩٠-١٩١.

وقد نتساءل: كيف انقلب الظرف مظروفا والمظروف ظرفاً؟!!أو نقول: كيف اتسع الضيق وضاق المتسع؟!! ونترك الإجابة عن مثل هذه الأسئلة فإن لها مدخلاً في العلوم الطبيعية وأرباب تلك العلوم أقدر منا على فهم هذه الحقائق ويكفينا التنبيه إليها.

﴿ٱلَّيۡلَ﴾

الليل واحدٌ بمعنى جمع وواحده ليلة مثل تمرة وتمر وقد جمع على ليال ويقال ليلٌ أليلُ شديد الظلمة(١).

﴿ٱلنَّهَارِ﴾

النهار ضد الليل ولا يُجمع كما لا يُجمع العذاب والسراب (٢).

الليل والنهار ما هما؟ ليس الليل والنهار من الموجودات المادية فيكون لهما وجود حقيقي في الخارج إنهما عرضان من أعراض الزمن إنهما غير قارَّين أصلاً ليس الليل إلا الزمن الموقت من غروب الشمس إلى طلوعها وليس النهار إلا الزمن الموقت من طلوع الشمس إلى غروبها وتفسير الولوج بين الليل والنهار بما يدخل في النهار مما كان ليلاً وبما يدخل في الليل مما كان نهاراً إنما يصح لو كان لكلٍّ من الليل والنهار كمٌّ معين من الزمن أما وكل منهما يطول ويقصر فلا يصدق الولوج والتوالج بينهما لأن كلاً منهما يسمى باسمه طال أو قصر فلا يصدق الولوج والتوالج بينهما لأن كلاً منهما يسمى باسمه طال أو قصر وأمارة ذلك ودليله أن صلاة المغرب لا تكون ثابتة في ساعة معينة بل هي موقتة بالغروب والذي يعن

---

(١) مختار الصحاح ص:٢٥٥.

(٢) المرجع السابق ص:٢٨٤.

لبالي أن التوالج مستمر بين الليل والنهار ليلاً ونهاراً إذ كل ذرة يكسوها النور ففي داخلها الظلام والعكس أيضًا صحيح فكل ذرة يكسوها الظلام ففي داخلها النور وأحسب أن الصلة بين النور والظلام كالصلة بين ذرات الملح وذرات الماء كل منهما يحيط بالآخر ويحاط به وهو معنى التوالج المستمر المتجدد في كل لحظة والله أعلم.

﴿ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ﴾

أي أنت الذي تجعل الحي يخرج من الميت وتجعل الميت يخرج من الحي وذلك لأن الفعل تُخرج بضم التاء من المزيد أعنى من أخرج لا من خرج فالحي لا يخرج من الميت بل الله الذي يخرجه والتعبير بالفعل المضارع للدلالة على التجدد في وقوع الحدث والإخراج معناه الحقيقي هو إخراج الشيء من الظرف[(١)] فلا يصدق الإخراج إلا بإخراج شيء من شيء كان ظرفاً له والإخراج بمعناه الحقيقي مشاهد بالعيان لا يحتاج إلى دليل فجميع عمليات التفقيس في البيوض هي إخراج حي من ميت إذ الحيوان الذي في داخل البيضة حي والإحضان للبيوض هو مساعدة هذا الحي على النمو لا على إحيائه من موت وكذلك عمليات إخراج الفضلات من الأحياء هي إخراج ميت من حي ولذلك كان النبي ﷺ يعدها نعمة من نعم الله فيحمده عليها بقوله: الحمد لله الذي أذهب عني الأذى وعافاني[(٢)] ولو عدنا إلى ما مثَّل به سلفنا الصالح لوجدناه صحيحا إذا أضفنا معارفنا إلى معارفهم فقد مثلوا إخراج البيضة من الدجاجة والدجاجة من البيضة وهو مثل صالح للآية

---

(١) البحر المحيط ج:٣/ص:٨٩.

(٢) الحديث رواه ابن ماجه. زاد المعاد ص:٣٤١. وصححه بن حجر في نتائج الأفكار كما في التعلق عليه.

فالبيضة فيها حي وميت في نفس الوقت والفرخ عندما يخرج من البيضة فيه الحي والميت أيضاً بل معه ميت خارج كذلك.وأحسب أن الذي أربك بعض المفسرين في تفسير هذه الآية هو خروجهم عــن المدلول اللفظي لكلمــة الإخراج فقــد فسروها بمعنى التكوين[٢] والخلق وتركوا المعنى القريب للكلمة والله أعلم.

بقي أن نتذكّر بسر التقابل في هذه الآية أنت ترى أن في مسالة الليل والنهار قال: تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وفي الحي والميت لم يعبر بالإيلاج بل بالإخراج والسر في ذلك والله أعلم أن الإخراج في الحي والميت هو الحدث المُشاهد وفيه تقع النعمة على المملوك من مالكه وهذا هو الذي ينسجم مع سياق الآية "قل اللهم مالك الملك" أما إيلاج الحي في الميت وإيلاج الميت في الحي فلا يقع ذلك الموقع.وأما في الليل والنهار فالإيلاج هو الحدث الظاهر لأنك وأنت تلبس نور النهار يلج عليك الليل وكأن الظلام يتغلغل بين أجزاء الكون تغلغل الماء بين ذرات الرمل الناعمة وبعد أن يسكن الإنسان في الليل وإليه يأتيه النهار بنوره ليكتسح عن الذرات ما توالج فيها ومعها من الظلام.وهذه الصورة الولوجية قد نتلمسها كذلك في الحياة الزوجية في قوله تعالى:"هن لباس لكم وانتم لباس لهن" فقد تحول اللابس ملبوساً والملبوس لابساً كما تحول الظرف مظروفاً والمظروف ظرفاً فاتسع الضيق وضاق التسع.

وقد نسأل أيضاً لماذا قدم الليل على النهار في الولوج وقدم الحي على الميت في الإخراج؟ مع أن الظلام يقابل الموت والنور يقابل الحياة قلنا :عندما قال لنا" تولج الليل في النهار" فلم يقدم الليل بل قدم النهار لأن المسألة في إيلاج الليل متوقفة على وجود النهار حقيقة إذن فالنهار هو الموجود ثم يطرأ الليل فيلج فيه

---

(٢) البحر المحيط ج٣/ص:٨٠٩. التفسير الكبير ج:٣/ ص:١٩١.

وأما في الحي فإخراج الحي هو المترقب المنتظر لدى جميع الناس ولهذا قدم ولينسجم مع النهار.

﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ﴾

الرزق :هو ما ينتفع به والرزق أيضا: العطاء[1] والله بيده الملك وتحت تسخيره جميع الأسباب المنظورة وغير المنظورة المعلوم للإنسان منها وغير المعلوم

﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

يحتمل قوله "بغير" وجهين:

الأول :أن تكون غير بمعنى لا النافية أي بلا حساب أي لا يعدُّه عليه فيكون كناية عن الكثرة، أو بلا حساب بمعنى بلا محاسبة على الله لأنه أعطى من ملكه ﷻ.

والثاني: أن تكون"بغير" متعلقة بمحذوف ومحلها الصفة للمصدر المحذوف والتقدير: وترزق من تشاء رزقاً موصوفاً بغير حساب أي على سبيل التفضل من غير استحقاق لأن من كان عطاؤه على قدر الاستحقاق فقد أعطى بحساب[2]

وبعد أن أعطينا ما في وسعنا في تحليل الأيتين الكريمتين نلاحظ ما يأتي :

أولاً: أن الجمل الأولى وهي: تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء وهذه الجملة الأخيرة من الآية الثانية وهي: وترزق من تشاء هذه الجمل الخمسة قيدت بالمشيئة.

---

(١) مختار الصحاح: ص :١٠٦

(٢) أنظر مختار الصحاح:ص٢٠٦. والتفسير الكبير: ج٣ /ص١٩١

ثانياً: أن الجمل الأخرى وهي: تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل. وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وكذلك الجمل المتعلقة بالله ﷻ : قل اللهم مالك الملك بيدك الخير إنك على كل شيء قدير هذه الجمل السبع لم تقيد بالمشيئة.

فما هو السر في ذلك ؟.

إنك ترى معي أن الجمل التي لم تقيد بالمشيئة تتحدث عن أشياء لا دخل لعمل الإنسان فيها فالملك لله وهو بيده ﷻ وقدرته على كل شيء وتوالج الليل والنهار وإخراج الأحياء من الأموات والأموات من الأحياء. كل هذه الجمل حكاية عن خلق الله وسنته الجارية في الكون كله ومنها صفاته ﷻ فلا يصح أن يقيد شيء منها بالمشيئة.

ولكننا في الجمل الأخرى نرى أن لفعل العبد مدخلاً فالعبد يحاول الحصول بما يقدر عليه من أسباب مادية أو معنوية على هذه الأشياء فمن من الناس لا يبذل جهده في الحصول على الملك والعز والرزق ؟ ومَن مِن الناس من لا يبذل جهده في الحفاظ على ما يملكه من ملك أن ينتزع منه وكذا العز الذي يحصل عليه فهل يفرط أحد من الناس في الحفاظ على مالَهُ من ملكٍ وعز؟ إن الآيتين حلت الإشكالية في فهم المشيئة الإلهية وعلاقتها بمشيئة الإنسان ونجمل ذلك فيما يأتي:

أولاً: أن جميع السنن الكونية إنما كانت بمشيئة الله ولا دخل لمشيئة المخلوق فيها.

ثانياً: إن جميع الأعمال المقدورة للإنسان يتصرف فيها بحرية الاختيار الممنوحة له من الله ﷻ وعلى أساس هذه الحرية قام عنوان التكليف فلا تعقل

العرب في لسانها أن توجه أمراً بفعلٍ لمن يعجز عن القيام به ولا تعرف في لسانها أن توجه نهياً عن فعل إلا لمن يقدر على الانتهاء فلا يقال للعاجز عن القيام: قم، أو لا تقم.

ثالثاً: إذا قلنا أن الله سبحانه أعطى للمخلوق حرية الفعل وعدمه فيما هو تحت قدرته فلا يعني ذلك أن مشيئة المخلوق قد صادرت مشيئة خالقه، فإذا كانت مشيئة العبد ممنوحة له بمشيئة الله فالذي شاء أن يعطيه له المشيئة في عدم استمرار العطاء أو إيقافه.

وبذلك نعلم أن لمشيئة الله مصادرة مشيئة العبد كلاً أو جزءاً وهذا يكاد يكون بديهياً لا يحتاج إلى عمق في الفكر ولا إلى إجهاد للذهن لولا شغب المتكلمين على الحقائق الدينية.

بقي لنا ان نسأل لماذا قيدت جملة "وترزق من تشاء" بقوله "بغير حساب" دون أخواتها ؟ أحسب أن هذا الإطلاق بغير حساب إنما جاء لأن جميع الجمل المقيدة بالمشيئة تحكي باباً من أبواب الرزق فالملك والعز والمال عطاء من عطاء الله فيسري عليها حكم " بغير حساب" ضرورة أن الحكم على العام يقتضي الحكم على الخاص بدون العكس أي لو جاءت "بغير حساب" بعد "تؤتي الملك من تشاء" أو بعد "وتعز من تشاء" لما كان من دلالتها هذا التعميم والله أعلم.

في موالاة الكافرين وأثرها على الإيمان

الفصل السابع

في موالاة الكافرين وأثرها على الإيمان

﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ آل عمران: ٢٨ - ٣٠)

يتحدث القرآن الكريم في مسألة من أهم المسائل في هذا الفصل إنه يواجه ضعاف النفوس والنفعيين يبين لهم حكم الله في موالاة المؤمنين للكافرين ويبين لهم عاقبة عملهم عند الله ويحذرهم الله نفسه ويذكرهم أن المصير إليه فإن زعموا أن يتكتموا في موالاتهم للكافرين فلن يخفى على الله شيء إنه يعلم ما يكنون وما يعلنون إنه يعلم ما في السموات من خلق ومن سنن وما في الأرض من أحياء ونبات وجماد إنه يعلم السر وأخفى "أفلا يعلم من خلق"؟!!.

ويذكرهم القرآن أيضاً أن أعمالهم مردودة إليهم إنهم سوف يجدونها محضرة للحساب يودون أن تكون المسافة الزمانية بينهم وبين أعمالهم بعيدة وبعيدة جداً ويكرر لهم التحذير تلو التحذير ويؤكد لهم أن أمره لهم بقطع العلاقة بينهم وبين الكافرين ناتج عن رأفته بهم إنهم عباده ولن يترك السيد عبده.

﴿لَّا﴾

حرف جزم ونهيٍ ومن المعلوم أن النهي عن عمل لا يصح أن يوجه إلا إلى القادر على ذلك العمل: فيقال للجالس القادر: لا تقم لأنك لا تنهاه إلا وأنت

تخشى أو تتوهم أن يقوم ولو قلت للعاجز عن القيام: لا تقمْ لعيب عليك ذلك.

﴿يَتَّخِذِ﴾

فعل مضارع مجزوم بلا الناهية وإنما حرك بالكسر لتفادي التقاء ساكنين الذال من يتخذ واللام من (المؤمنون) لأن همزة أل تسقط في الدَّرج إذ هي همزة وصل[1]، وأصل يتخذ: يأتخذ والاتخاذ: افتعال من الأخذ إلا أنه أدغم بعد تليين الهمزة وإبدال التاء[2] ولما كان الاتخاذ من باب الافتعال صح إسناده إلى ما يصح اتخاذه كقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾[3]، والى ما لا يصح اتخاذه كقوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا﴾[4].

﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾

الإيمان: التصديق والله تعالى "المؤمن" لأنه آمن عباده من أن يظلمهم وأصل آمن: أأمن بهمزتين واحدة من بناء الفعل والأخرى للتعدية لُيِّنت الهمزة الثانية فصار: آمن ومنه المهيمن وأصله: مُؤامِن لينت الثانية وقلبت ياء كراهة اجتماعهما وقلبت الأولى هاء كما في أراق الماء وهراقه[5].

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾

"الكافرين" من قواعد الأصوليين: أن الحكم إذا علق بالمشتق آذن بعلية

---

(١) التفسير الكبير ج٣/ص:١٩٢.

(٢) مختار الصحاح ص:١٢.

(٣) النساء:١٢٥.

(٤) التوبة:٣١.

(٥) مختار الصحاح ص:١٨.

الاشتقاق وبناء على هذا يكون النهي عن موالاة الكافرين موجهاً بقيد الكفر أي يتخذ الكافر ولياً لأنه كافر فلا يشمل ولاية التجارة والزراعة ولا ولاية النسب فموالاة الأب الكافر بالاحسان إليه لا يدخل في هذا النهي وكذا ولاية الأعمال.

﴿أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

قال الرازي رحمه الله:"وأعلم أن كون المؤمن موالياً للكافر يحتمل ثلاثة وجوه:

"**أحدها:** أن كون المؤمن راضياً بكفره ويتولاه لأجله وهذا ممنوع منه لأن كل من فعل ذلك كان مصوِّباً له في ذلك الدين وتصويب الكفر كفر والرضا بالكفر كفر فيستحيل أن يبقى مؤمناً مع كونه بهذه الصفة".

ثانيها: المعاشرة الجميلة في الدنيا بحسب الظاهر وذلك غير ممنوع منه.

وثالثها: وهو كالمتوسط بين القسمين وهو أن تكون موالاته للكفار بمعنى الركون إليهم والمعونة والمظاهرة والنصرة إما بسبب القرابة أو بسبب المحبة مع اعتقاد أن دينه باطل فهذا لا يوجب الكفر إلا أنه منهي عنه لأن الموالاة بهذا المعنى قد تجره إلى استحسان طريقته والرضا بدينه وذلك يخرجه عن الإسلام فلا جرم هدد الله فيه فقال:﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ (١)

وقد يقال: موالاة المؤمن الكافر مرة أو مرتين لا يكون مشمولاً بالنهي لأن مطلق الموالاة شيء واتخاذ الكافر وليًا شيءٌ آخر والنهي إنما توجه على اتخاذه ولياً لا إلى مطلق موالاته.

(١) آل عمران: ٢٨.

وقد يقال أيضًا: إن النهي في الآية موجه إلى اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين فلا يكون متناولاً من يوالى المؤمنين والكافرين جميعاً.

أجاب الرازي عن هذين الاحتمالين قائلاً:

"هذان الاحتمالان وإن قاما في الآية إلا أن سائر الآيات الدالة على أنه لا تجوز موالاتهم دلت على سقوط هذين الاحتمالين(١).

وقد يقال أيضًا: إن إسناد الفعل إلى المجموع يقصره على المجموع فلا يتناول النهي الواحد ولا الاثنين لأنك لو قلت: لا ينصرف الطلاب فانصرف واحد أو اثنان فلا يكون في ذلك مخالفة للنهي.

وقد يجاب بأن الألف واللام في"المؤمنون" للجنس ولكن هذا لا يجدي شيئاً لأن مفهوم الجنس مفهوم كلي فيعود المحذور.

وقد يقال أيضا أن " من " الواردة في الآية تدل على أن المنهي عنه أن يكون الكافرون أقرب إلى أنفس المؤمنين الذين اتخذوهم أولياء من المؤمنين

ويجاب عن هذا بأن "مِن" وما بعدها ليس قيدا احترازياً بل قيداً كاشفاً لأن الذين يتخذون الكافرين أولياء هذه حالهم في اقتصارهم على موالاة الكافرين وعلى شعورهم بأن الكافرين أقرب اليهم من المؤمنين والله أعلم.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾

إنما جاء"يفعل" وليس "يعمل" لأن الموالاة ليست عملاً بل فعلاً من أفعال القلوب والفعل أعم من العمل أي أن كل عمل فعل وليس كل فعل عملاً.

﴿فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾

---

(١)التفسير الكبير ج٣/ص:١٩٢.

أي "فليس هو" أي الفاعل "من الله في شيء".

و"مِن" في قوله "من الله" يتعلق بمحذوف وهو حال والعامل فيه ما يتعلق به "في" وتقديره: فليس في شيء من الله فمن الله في موضع الصفة لشيء فلما تقدمه انتصب على الحال كما في:(لميّة موحشا طللُ).

وفي الآية مضاف محذوف بين من ولفظ الجلالة تقديره: فليس من ولاية الله في شيء وقيل: من دين الله وقيل: من عبادة الله وقيل من حزب الله(١)، وهذا من اختلاف التنوع لا من اختلاف التضاد.

﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾

كان مساق الخطاب في الآية للغيبة فعدل عن الغيبة إلى المواجهة فقال: إلا أن تتقوا ولو أجرى الكلام على نسق واحد لقال: إلا أن يتقوا منهم وسر هذا العدول أن الله ﷻ كرم المؤمنين عن المواجهة بالنهي عن موالاة أعدائهم لأن ذلك يخدش من كرامتهم فلما أراد أن يبين المأذون فيه حوّل الخطاب إلى المواجهة وأصل تقاة: وُقَيَةٌ فأبدلت الواو تاء وانقلبت الياء ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها(٢).

ومن المعلوم أن الإنسان لا يتقي إلا ممن يخاف شره ولم يبين القرآن الكريم أيَّ حدٍّ من خوف وقوع الشر على الإنسان يبيح له موالاة الكافرين اتقاء شرهم وقد تباينت أقوال المفسرين والفقهاء في ذلك تبايناً كبيراً(٣).

وأحسب أن لاختلاف الناس في التحمل وفي دفع الشر عنهم سبب في إطلاق الحكم وعدم تقييده فقد يخاف الواحد ما يراه غيره يسيراً وقد يبلغ الإيمان

---

(١) البحر المحيط ج:٣/ ص:٩٢، مجمع البيان ج :٢/ص:٢٧٣.

(٢) البحر المحيط ج:٣ / ص:٩٤.

(٣) التفسير الكبير ج:٣ /ص١٩٣، البحر المحيط ج٣/ ص:٩٥.

في نفس شخص مبلغاً يحبب إليه الثبات على الدين ولو مات في سبيله.والتقيَّة في الفقه الإسلامي محكومة بالقواعد العامة مثل: لا ضرر ولا ضرار ومثل عدم جواز الضرر الأخف بارتكاب ضرر أعظم ولا أن يدفع عن نفسه بما يضر غيره ولا بما يعلم أنه يضر بالدين ولا بما يظن ظناً راجحاً ولا شك أن للجانب الشخصي في هذا الباب وأمثاله أثر بالغ سواء لشخصية المجتهد أو شخصية المفتي أو شخصية الفاعل، ولظهور الجانب الشخصي في جميع مستوياته جاء هذا التحذير:

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾

الحَذَرُ والحِذْرُ: التحرز يقال: فلان حَذُرٌ بكسر الذال وضمها أي متيقظ متحرز والجمع: حذرون وقرئ به في قوله تعالى"وإنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ" والتحذير : التخويف لأنه من المضعف حذَّر يحذِّر تحذيرا[١] فيكون المعنى: ويخوفكم الله نفسه أي عقابه إذا واليتم الكافرين بدون سبب يبيح لكم ذلك وكذا إذا اجتهدتم أو أفتيتم.

﴿نَفْسَهُۥ﴾

الضمير في نفسه فيه احتمالان:

أن يعود إلى لفظ الجلالة وهو الأصح لأن القاعدة أن الضمير يعود إلى الأقرب ما لم يكن مانع يمنع من ذلك ،وأن يعود إلى المصدر المفهوم من يتخذ فيكون المعنى: ويحذركم الله اتخاذ الأولياء من الكفار أي ينهاكم عن نفس هذا الفعل[٢].

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾

---

(١) مختار الصحاح ص:٦١.

(٢) التفسير الكبير ج:٣ /ص:١٩٤.

هذه الجملة الخبرية واقعة موقع الحال من التي قبلها ويحذركم الله نفسه حال كون المصير إليه وتقديم الظرف لإفادة الاختصاص فالمصير إليه لا إلى غيره.

﴿ قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

الخطاب في الآية السابقة يشبه البيانات الرئاسية فهو صادر من الله مباشرة وكأنه بدون وسيط" لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء..." والآية التي تلتها والتي تتلوها أيضًا تشبه الهوامش الإيضاحية والمسببة التي تأتي مع النصوص القانونية أحياناً وبعدها أحياناً أخرى للتوضيح أو للتسبيب الخطاب كله من الله وإنما فصل بقوله: قل للدلالة على هذا المعنى وهو أن ما بعد قل تكميل وإيضاح وتسبيب لما قبل قل.

والخطاب في هذه الكلمة "قل" موجه إلى حضرة النبي ﷺ فهو الذي أُمر أن يقول للناس. ويصح أن يحمل الخطاب إلى كل من يصح منه التبليغ ممن يقرؤون هذه الآية الكريمة وذلك أن المخاطب إذا لم يتعين نصاً في الخطابات الإلهية جاز حمل الخطاب على كل من يصح حمله عليه[١].

﴿إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾

يقال: خفاه: كتمه وأظهره فهو من الأضداد هذا إذا كان الفعل ثلاثياً فإن كان من المزيد فتقول: أخفاه: أي ستره وكتمه[٢].

---

(١) انظر فتح القدير ج:١/ ص:٤٢٦.

(٢) مختار الصحاح ص:٨٣.

﴿مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾

أي ما في قلوبكم لأن الصدر محل القلب فأطلق المحل وأراد الحال فيه.

﴿أَوْ تُبْدُوهُ﴾

أي تظهروه فسواء في علم الله سرنا وإعلاننا فهو يعلم هذا كما يعلم هذا.

﴿يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾

يعلم فعل مضارع مجزوم لأنه واقع جوابا للشرط إن تخفوا- يعلمه.

قال الرازي:"ولا شك أن الجزاء مترتب على الشرط متأخر عنه فهذا يقتضي حدوث علم الله تعالى"

ثم قال:" والجواب: أن تعلق علم الله بأنه حصل الآن لا يحصل إلا عند حصوله الآن"(١)وهذا يعني أن علم الله بما سيقع غير علمه بما يقع فعلاً والذي قاله الرازي فيه إجابة عن كثير من الأسئلة الواردة حول مثل هذه الآيات في القران الكريم من أمثال ورود هذه الكلمات ــ حتى يعلم . ولنعلم و.... الخ.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾

هذا كلام مستأنف فهو إعلام لهذا الإنسان أن علم الله محيط بكل كائن سواء في داخل النفس أو في السموات وما فيها من كواكب وأسرار أو في الأرض وما في بطنها من معادن ومياه ما من ذرة في السموات أو في الأرض إلا هو يعلمها تبارك الله رب العالمين.

كيف يخفى المخلوق علـــى خالقه؟ أم كيف يقوم الحادث لـــو غفل عنـــه

---

(١) التفسير الكبير ج:٣/ ص١٩٥.

محدثه؟ هل في الوجود من يمد المخلوق بالبقاء إذا انقطع عنه إمداد خالقه؟ إذا كان "الله خالق كل شيء" نفوسنا وما فيها فكيف يمكن أن يخفى عليه شيء منها أو فيها؟

وفائدة الاستئناف في هذه الجملة "ويعلم ما في السموات وما في الأرض" أن الله يقول لعباده: إن تخفوا أو تبدوا فأنا أعلم ما تخفون وما تبدون لأني أعلم جميع ما يقع في ملكي في السموات أو في الأرض بل أنا الذي أخلقه فكيف لا أعلمه؟ كل هذه التأكيدات يقدمها الله لعباده لئلا ينحرفوا عن طاعته إلى معصيته التي منها موالاة الكافرين من دون المؤمنين، يقول الزمخشري:" ولو علم بعض عبيد السلطان أنه أراد الإطلاع على أحواله فوكّل همه بما يورد ويصدر ونصب عليه عيوناً وبث من يتجسس عن بواطن أموره لأخذ حذره وتيقظ في أمره"[1].

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

هذه الجملة القرآنية كالدليل على ما سبق لأن من يكون قديراً على كل شيء لابد أن يكون عالماً بكل شيء وذلك لأن من جهل شيئاً فقد القدرة على التصرف فيه وفي هذه الجملة أيضاً إعادة للتحذير السابق ـ ويحذركم الله نفسه ـ لأن من يحذر الجميع لابد أن يكون قادرا على الجميع.

وفيها أيضًا التسميع بعموم القدرة على الجزاء لأن المقصود بقوله "يعلمه الله" أي فيجازيكم به[2] فيكون تقدير الآية: قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يجازيكم به الله والله على كل شيء قدير فليس المقصود بالإخبار بالعلم مجرد العلم بل المقصود هو إخبارهم أن الله سيجازيهم على ذلك.

---

(١) الكشاف ج:١/ ص:٤٢٣.

(٢) البحر المحيط ج:٣/ص:٩٦.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾

قال الرازي: "ذكروا في العامل في قوله "يوم" وجوهاً:

الأول: قال ابن الأنباري: اليوم متعلق بالمصير والتقدير: والى الله المصير يوم تجد.

الثاني: العامل فيه قوله:"ويحذركم الله نفسه" في الآية السابقة كأنه يقول:ويحذركم الله نفسه في ذلك اليوم.

الثالث: العامل فيه قوله:"والله على كل شيء قدير" أي قدير في ذلك اليوم الذي تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وخص هذا اليوم بالذكر وإن كان غيره من الأيام بمنزلته في قدرة الله تعالى تفضيلا له لعظم شأنه كقوله:" مالك يوم الدين" في سورة الفاتحة.

الرابع: أن العامل فيه قوله تعالى: تود والمعنى: تود كل نفس كذا وكذا في ذلك اليوم.

الخامس: يجوز أن يكون منتصبا بمضمر والتقدير: واذكر يوم تجد كل نفس"(١) والذي يضعف الأول والثاني وجود الفاصل الذي هو: "قل" فإن ما بعدها مفصول عما قبلها ويضعف الثالث الفارق بين تخصيص القدرة بيوم الدين وبين ملكية يوم الدين فان ملكية يوم الدين جاءت بعد أسماء أخرى : "رب العالمين" "الرحمن الرحيم" وهي تدل على عموم الملكية أما ما عندنا في الآية فهي متعلقة بالخبر"قدير" في الآية السابقة وقد عُلِّق به " على كل شيء" فإذا قلنا الله قدير على كل شيء يوم تجد أوهم تخصيص عموم القدرة بذلك اليوم ويضعف الخامس أن

---

(١) التفسير الكبير ج:٣/ص:١٩٥-١٩٦. البحر المحيط ج:٣/ص:٩٧.

الأصل الذي جرى عليه النحاة أن العامل إذا أمكن أن يكون مذكورا لا يُلجأ إلى التقدير فإن التقدير لضرورة عدم وجود العامل ومن أجل هذا أحسب أن الوجه الرابع هو الراجح من بين هذه الوجوه وهو الذي جرى عليه صاحب الكشاف(١).

وإنما أسرفنا في ذكر هذه الوجوه ومناقشتها لما لها من أثر على التحليل لمعنى الآية.

﴿تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ﴾

قال الرازي:" العمل لا يبقى ولا يمكن وجدانه يوم القيامة فلا بد فيه من التأويل وهو من وجهين:

الأول: أنه يجد صحائف الأعمال وهو قوله تعالى:﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٢) وقال تعالى:﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾(٣).

الثاني: أنه يجد جزاء الأعمال"(٤) والآية تحتمل وجهاً آخر وهو:

الثالث: أنه يجد صور الأعمال وهذا الوجه هو الذي تدل عليه السنة النبوية فقد جاء بأحاديث تفوت الحصر أن الأعمال يوم القيامة تأتي مجسدة في صور، القرآن يشهد للقائمين ،ورمضان يشهد للصائمين، حتى في القبر يأتي المحسن عمله في صورة رجل حسن الوجه والمسيء على عكس ذلك ومن المعاصرين من يميل إلى تفسير الاستنساخ بذلك والله أعلم.

---

(١) الكشاف ج:١/ص:٤٢٣.

(٢) الجاثية:٢٩.

(٣) المجادلة:٦.

(٤) التفسير الكبير ج:٣/ ص:١٩٦.

﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾

هذا العموم فسرته السنة بأن الحيوانات أيضا تجد ما قدمت محضراً إذ يقتص للشاة الجلحاء من الشاة القرناء في محكمة العدل الإلهي.

﴿مَّا عَمِلَتْ﴾

فالوجود للأعمال كلها:﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾[1].

﴿مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ

جاء النص على الإحضار للخير وترك السوء ليفهم من السياق ولم ينص عليه نصاً.

وذلك لأن الخير سوف يحضر كله بدون استثناء وأما السوء فمنه ما يحضر ومنه ما يستر لأنه قد عفا عنه ﷻ.

﴿مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾

سميت الطاعة خيرا إذ لا تجد فيما أمر الله ﷻ وفيما أمر رسوله ﷺ إلا ما فيه الخير بل هو الخير كله الخير للعامل والخير للكون كله.وسميت المعصية سوءاً لأن الله ورسوله لم ينهيا عن شيء الا عمّا يسوء العامل ويسوء الكون كله.

هات أحكام الشريعة كلها فلن تجد فيها غير هذا وهو ما نفاخر به ونعتز في ديننا وعقيدتنا فالله ربنا والرب لا يأمر مربوبه إلا بما فيه خيره ولا ينهاه إلا عما فيه السوء والشر له.وعلى هذا سميت الطاعة بالحسنة والمعصية بالسيئة.

---

(١) الزلزلة:٧-٨.

﴿ تَوَدُّ ﴾

أي "والذي عملت سوءاً تود" فــ "تود" خبر "الذي" ،هذا وجه والثاني على تقدير: والذي عملت سوءاً حال كونها تود "ذكر هذين الوجهين الزمخشري[١] فجعل تود إنما تعود على عاملة السوء لأن عاملة الخير لا تود ذلك بل هي في فرح لما تلاقي من جزاء أعمالها وأحسب أن كلمة تود تعود على النفس أي كل نفس تود سواء عاملة الخير أو غيرها لأن يوم الحساب لا يعلم الواحد مصيره إلا بعد أن تُقطَّع منهم القلوب فالكل يخاف ذلك اليوم والمحسن إنما يزول عنه الغم والهم بعد أن يأخذ النتيجة ويدخل الجنة .

﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴾

الأمــد: المسافة كقولــه تعالى: "ياليت بيني وبينك بُعد المشرقين"[٢]" قاله الزمخشري [٣].

﴿تَوَدُّ لَوْ﴾

لو كانت الآية بدون لو "تود أن بينها وبينه أمداً بعيداً" لكانت دلالة الآية على وجود الأمد القريب وتتمنى البعيد ولكان ما توده في حدود الإمكان فلما جاءت لو دلت على أن هذه المودة إنما جاءت في المستحيل لا في الممكن لأن هذا اليوم سوف يكون هو الزمن المقدر من قبل الخالق ﷻ لا يتقدم ولا يتأخر.

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾

---

(١) الكشاف ج١ /ص ٤٢٣ .

(٢) الزخرف : ٣٨ .

(٣) الكشاف ج١ /ص٤٢٣ .

أعاد التحذير، الأول كان مباشرة من الله والثاني كان على لسان المبلِّغ ﷺ أو من يصح منه القول.

﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾

الرأفة : أشد الرحمة [١] ومن رأفته بعباده أن حذرهم هذا التحذير وأمهلهم إلى يوم القيامة لعلهم يتوبون وقيل أن لفظ عباد في القرآن الكريم مختص بالطائعين فلو صح هذا كان هذا الجزء من الآية متحدثاً عن الطائعين فقط لأن من يطيعون الله ورسوله يكون رؤوفاً بهم أما العصاة والكافرون فقد مر حكمهم قال الرازي : "والله رؤف بالعباد " أي كما هو منتقم من الفُسَّاق فهو رؤوف بالمطيعين والمحسنين [٢]

(١) مختار الصحاح .ص١٠٢ .

(٢) التفسير الكبير ج٣ /ص١٩٧ ..

الفصل الثامن

في الحب بين الخالق والمخلوق

الفصل الثامن
في الحب بين الخالق والمخلوق

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ (٣٢) ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ آل عمران: ٣١ - ٣٤

هذا الفصل يتحدث عن محبة الله وعن السبيل الموصل إليها وعن آثار هذه المحبة في الدنيا والآخرة. وافتضاح المدعين لمحبة الله من اليهود والنصارى وغيرِهم.

﴿قُلْ﴾

هذا الخطاب موجه نصا إلى حضرة النبي ﷺ بقرينه ــ فاتبعوني ــ لعدم إمكان صرف هذه الكلمة ــ فاتبعوني ــ إلى غيره ﷺ.

و"قل": فعل أمر من قول يقوُل وأصلها: أُقْوُل فاستُثقلت الضمة على أمها الواو فنقلت إلى القاف لأن الواو حرف علة وما قبلها صحيح ساكن فصارت أُقول فاجتمع ساكنان الواو واللام فحذفت الواو للاستغناء عنها بضمة القاف وحذفت الهمزة للاستغناء عنها بحركةِ أولِ الكلمة.

﴿إِن كُنتُمْ﴾

إن حرف من حروف الشرط. وهي تفيد الإثارة لما فيها من معنى الشك لأنك إذا قلت لزميلك: إن كنت قوياً فاحمل هذه الصخرة فكأنك تستثيرُ عزيمتهُ لما تبعثهُ إن من الشك في قوته، وكان هنا ناقصة فيكون المعنى: إن أنتم تحبون الله

وذلك لأن الخطاب موجه إلى من يدعي محبة الله كاليهود إذ قالوا:"نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ"[١].

وكالنصارى إذ قالوا: إنما نعظم المسيح حباً لله[٢] ويروى أنه ﷺ وقف على قريش وهم في المسجد الحرام يسجدون للأصنام فقال: يا معشر قريش والله لقد خالفتم ملة إبراهيم، فقالت قريش: إنما نعبد هذه حباً لله تعالى ليقربونا إلى الله زلفاً[٣]، كل هذه الطرائف تدعي محبة الله والكل يؤمنون به موجوداً وخالقاً ويزيد اليهود والنصارى الإيمان بإرسال الرسل ولكن العرب يؤمنون به خالقاً ليس له أي سلطان عليهم في الأمر والنهي فهو عندهم كالسلطان المعزول عن رتبته أو المحجور عليه في التصرف، وأهل الكتاب يريدون أن يُقيّدوا ربهم بأن لا يُرسلَ رسولاً بعد رُسلهم وادعاء محبة الله تتنافى مع ذلك كله.

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾

إنما وجه هذا الخطاب إلى الأصناف الثلاثة (المشركين، اليهود، النصارى) بعد أن أثبت لهم ﷺ أنه رسول الله إليهم جميعاً بأدلة قاطعة لا تدع ملاذاً للمنكر إلا العناد بالكفر بالله في إرسال محمد ﷺ [٤] وهم جميعاً كانوا يشعرون بصدق هذا البيان ومرارة الكفر به وعدم الاستجابة الواعية لما يحمله إليهم من هداية ونور ولو أعطينا من أنفسنا في تحليل هذا الخطاب وتأثيره على المُخاطب

---

(١) المائدة:١٨.

(٢) التفسير الكبير ج:٣/ص:١٩٧.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

والمؤمنين به والمخاطَبون لَطالَ بنا الشرحُ والتفصيل ويكفينا أننا فتحنا أمامك الطريق.

﴿تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾

حب الله لا يوصف ولا يمكن التعبير عنه إلا بآثار هذا الحب على الشخص المحب حاله حال جميع المشاعر الإنسانية، ومن آثار هذا الحب الولعُ في عبادةِ الله وذكرهِ آناء الليلِ وأطراف النهار،ومن آثاره أيضًا حب الكون كله لأنه مال محبوبه فيأنس إلى الكون ويأنس به فلم يعد في وحشة أينما كان فهو مع مالكه ومحبوبه ومع المملوكين لهذا المحبوب.

ومن آثار هذا الحب الولع في الدعوة إلى محبةِ الله حباً في خلاص المدعوين من مناكدة سيدهم وحباً في خدمة المحبوب لأنه يفرح في عودة الشاردين عن طاعته فهم ملكه ومخلوقوه ﷻ،ومن آثار هذا الحب على بدن المُحب سكونه إذا سمعَ كلامَ مَحبوبه وقشعريرة بدنهِ إذا سمع ذكر أسمائه أو آياته وتقطع أوصاله لو شعر في لحظة أنه بعيد عن محبوبه وهذه الآثار هي التي يمكن للمحب أن يتكلم عنها أما الحب في ذاته فلا يعلمه إلا المُحب والمحبوب ﷻ، ولهذا عندما وَصف عُشاق الصور حبهم لمحبوبيهم لم يخرجوا عن هذه الآثار، قال قائلهم:

وإني لتعروني لذكراك هِزةٌ   كما انتفض العصفور بلله القطر

﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾

كل الآباء والمربين يحرصون أن يضعوا قواعد للسلوك الصالح في الحياة لأبنائهم ولمن يربون، ويضعون إلى جنب ذلك تحذيرهم من مساوئ السلوك السيئ لئلا ينزلق من ينزلق، ولن تجد في الحياة والدا ولا مربياً لا يحب من أبنائه ومربوبيه اتباع قواعد السلوك الصالح الذي وضعه لهم.

هذه كل الحكاية في هذه الآية ولله المثل الأعلى، إن الله يحب من اتبع دينه الذي أرسل به رسله لأنه إنما أرسلهم إلى خلقه بما يعلم فيه سعادتهم في الدنيا قبل الآخرة، فهل تجد فيما أمرَ الله ورسوله أمرا مكروهاً او سلوكاً خاطئاً وهل أنت واجدٌ فيما نهى الله عنه ونهى رسوله أمرا صالحاً في الحياة قبل الممات.

إنك لو أتعبت ذهنك وكددتَ فكرك فسوف لن تجد ذلك كيف يعقل أن يأمر المالك بما لا يصلح لخلقهِ؟ إذا كنت تحب الوالد أو تحب المربي ولا تهتدي بما وضعاهُ لك من قواعد صحيحة في الحياة فهل تنتظر أن يحبك هذا الوالد أو ذاك المربي؟!

ثم ما فائدة محبتك لوالدك إذا كنت لا تنتفع بما وضع لك؟ وهل يمكن وجود محبة لا تستتبع الطاعة؟ فكيف يُعصي الإنسان من يحب؟!، وإذا كان الآباء لا يحبون من لا يسيرُ على قواعدهم فما الفائدة في محبة الأبناء لهؤلاء الآباء أنت تحب من لا يحبك أليس في ذلك عذاب عظيم بل أي عذاب أعظم من أنك تحس ان من تحبه لا يحبك.

ويحببكم فعل مضارع مجزوم لوقوعه في جواب الطلب ـ اتَّبعوني ـ وهذا يعني الملازمة الحتمية بين الإتباع والمحبة فمتى كنت تابعاً كنت محبوباً فمن ادعى الإتباع ولم يجد المحبة وآثارها في نفسه فلا يلومن إلا نفسه ومن آثار هذه المحبة ما أخبر به النبي ﷺ في رواية الإمام البخاري عن ربه أنه قال:" وما زال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ولأن سألني لأعطينه ولأن استعاذني لأعيذنه..."

فانظر لنفسك وأنت تدعي الإتباع هل كان الله سمعك وبصرك ويدك ورجلك؟ هل كنت ممن إذا سأل الله أعطاه وإذا استعاذ به أعاذه؟ فإن لم تكن كذلك فصحح إتباعك مرة بعد مرة لتصح لك المحبة وآثارها.

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾

من أحب غفر، ومن قلى عاتب لن يستطيع المحب أن يعاتب محبوبهُ على ما فات قبل زمن الحب إذا كان هذا شأن المخلوق مع المخلوق فما بك بالخالق.

﴿ذُنُوبَكُمْ﴾

سميت الأعمال السيئة ذنوبا ،لأنها تتبع صاحبها فهي كالذَّنَبِ تسير خلفه أينما توجه وهذا هو حكم السيئات في الدنيا أيضا، لا يسير المسيء إلى عمل ولا إلى محفل إلا وتكون معه سيئاته بل لا يكون مع نفسه إلا كانت معه حتى فراش نومهِ كأنها اللعنة تتبعه حيثما توجه.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

أي بهؤلاء المحبوبين، وأحسب أن هذا هو السر في ان تكون الجملة إسمية بدون كان الناسخة لأن الجملة لو كانت هنا ــ وكان الله غفوراً رحيماً ــ لم تكن خاصةً بهم.

﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

الظاهر من تكرار قل في هذه الآيات أن نزولها كان في فترات متفاوتة لأنها لو نزلت وَلاءً لما كان هناك من داعٍ لتكرار هذه الكلمة ويؤيد هذا أن ابن عباس رويَ عنه انه قال: "لما نزل "قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله" قال عبد الله بن أُبي لأصحابه: إن محمداً يجعل طاعته كطاعة الله ويأمر بان نحبه كما

أحبت النصارى عيسى ابن مريم فنزل:" قل أطيعوا الله والرسول"[١].

﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾

في الآية الأولى:" إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله" وفي هذه الآية: "أطيعوا الله والرسول" ومن المعلوم أن فاتبعوني تعني اتباعهُ في رسالته فليس في يديه شيء خارج عن هذه الرسالة فيكون إتباعه هو إتباع شرع الله وإذا كانَ القائد متوجهاً الى شيء فأتبعتهُ فأنك تساويه في هذا التوجه وفي الآية الثانية "أطيعوا الله والرسول"وطاعة الرسول في رسالته هي نفسها طاعة الله وطاعة الله إنما تتأتى بطاعة رسوله الذي يبلغ دعوته وإلا فكيف يمكن ان تحقق طاعة الله إذا أخذناها بغض النظر عن الرسول المبلغ عنِ الله إذا كان لا يأتي أمرُ الله إلا على لسانِ رسوله فطاعة رسوله هي طاعته وطاعته هي طاعة رسوله.

ما الفارق إذاً بين التعبيرين:

يقال: تَبِع فلان فلاناً إذا مشى خلفه فإذا جيء بالفعل على صيغة الافتعال تقول: اتَّبع فلانٌ فلاناً أو اتَّبعتُ فلانا كان معناها كذلك المشي خلفه ولكن بحرص وزيادة مُعاناة.

فالآية الأولى تتكلم عن الحب ولهذا كان الإتباع وهو زيادة الحرص على السير خلف الرسول موصِل إلى ذلك الحب أو هو علامة عليه، وأما الطاعة فهي تدل على مطلق الانقياد تقول: فلان طوع يديك إذا كان منقاداً إليه.

والآية الثالثة تتحدث عن درجة الخلاص من المعصية ومُطلق الطاعة كافياً فيها. فوضع القرآن كل كلمة في مكانها اللائق بها هذا ما خطر ببالي الآن من

---

(١) البحر المحيط ج:٣/ص:١٠٤.

الفارق بين الآيتين ولم يتعرض الرازي ولا أبو حيان ولا الزمخشري لهذه المسألة(١).

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾

قال الزمخشري:" يحتمل أن يكون ماضياً وأن يكون مضارعاً، بمعنى فان تتولوا"(٢) وهذا التخريج الذي ذكره الزمخشري يجري في كل الأفعال التي فاء فعلها–واو، او في أغلبها ضرورة جواز حذف التاء الأولى مثل توافقوا وتواعدوا وهلم جراً.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

جعل هذا التولي عنوانا على كفرهم لأن التولي عن مُطلق الطاعة يدل على عدم الدخول في الإيمان وذلك ان الدخول في الإيمان فرد من أفراد الطاعة فمن آمن فقد أطاع وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه من الفارق بين الإتباع والطاعة قال أبو حيان: "وجعل من لم يتبعه ولم يطعه كافرا، وتقييد انتفاء محبة الله بهذا الوصف الذي هو الكفر مشعر بالعليّه فالمؤمن العاصي لا يندرج في ذلك"(٣).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

﴿ٱصْطَفَىٰٓ﴾

أصل اصطفى: اصتفى فقلبت التاء طاء فهو من المزيد بحرفين الألف

---

(١) انظر التفسير الكبير ج:٣/ص:١٩٨. البحر المحيط ج:٣/ص:١٠٤. الكشاف ج:١/ص:٤٢٤.

(٢) الكشاف ج:١/ص:٤٢٤.

(٣) البحر المحيط ج:٣/ ص:١٠٤.

والتاء فهو من باب الافتعال مثل افتتح واختصم فلا يطلق الاصطفاء إلا بين اثنين، والاصطفاء: الاختيار فذكر الله ﷻ أنه بعد أن خلقَ خلقهُ إختار منهم آدم عليه السلام فكرمهُ بالخلافة في الأرض واختار نوحا عليه السلام ـــ وهو الأب الثاني للبشرية ـــ واختار إبراهيم وآل إبراهيم وهم إسماعيل وإسحاق وأولادهما واختار آل عمران وهو جد عيسى عليه السلام لأمه كما رجحه الرازي[1] رحمه الله،لا والد موسى وهارون.

وهذا التخصيص في ذكر آدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران كان لرد المنازعين في قبول رسالة محمد ﷺ فالمشركون من العرب يعلمون انه من أولاد إسماعيل وهم ينتسبون إلى دين إبراهيم واليهود ينتسبون إلى إبراهيم أيضًا فهم من أولاد إسحاق والنصارى على دين عيسى وجدهُ لأمه عمران عليهم الصلاة والسلام جميعاً. فكأنه يقول لهم: كيف تكفرون برسالة محمد وهو من آل إبراهيم ثم أن لله أن يختار من يختار، أأنتم أعلم أم الله، فقد اختار آدم على خلقه وأسجدَ له ملائكته ثم اختار نوحاً وهو أعلم حيث يجعل رسالته فأي غريب في هذا؟!!.

﴿عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

اختار أنبياءه ورسله على العالمين أئمة وقادة وهداة وهذا هو الفارق بين قولنا: اخترتُ فلاناً من القوم وبين قولنا: اخترتُ فلاناً على القوم، فلو قال: من العالمين لفات معنى قيادتهم وإمامتهم للعالمين.

﴿ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ ﴾

الكل ينتسب إلى آدم والى نوح ومن جاء بعد إبراهيم كلهم ينتسبون إلى إبراهيم عليه السلام وأي فارق بين ان يكون الرسول من ولد إسحاق أو من ولد إسماعيل؟

---

(١) التفسير الكبير ج:٣/ص:٢٠١.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

والله سميع لما يقوله هؤلاء الذين يريدون من الله أن يختارَ من يختارون ويُرسلَ من يحبون.

والله عليم: عليم بما يكيدون وبما يحرفون وهو ﷻ عليم، عليمٌ بمن هو أهل للقيام بأعباء الرسالة والنبوة "اللَّهُ أعْلَمُ حيْثُ يجْعلُ رِسَالَتَهُ"(١).

وأنت ترى أن الله ذكر اصطفاء آل عمران في آخر هذه الآيات ثم سيفتح الحديث عن قصة من قصص آل عمران في الآيات اللاحقة.

(١) الأنعام: ١٢٤.

الفصل التاسع

في قصة حنة أم مريم عليها السلام

الفصل التاسع

في قصة حنة أم مريم عليها السلام

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ال عمران: ٣٥ - ٣٧

﴿ إِذْ قَالَتِ ﴾

أي أذكر اذ قالت فالعامل في الظرف فعل محذوف يدل عليه السياق.

﴿ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾

الحديث عنها بعد وفاة زوجها بدليل كفالة زكريا لمريم وتصرف حنة بنذارتها دون ذكرٍ لبعلها عمران فهي الآن ليست زوجة أصلاً اذ لا يصح تسميتها زوجة بعد وفاة زوجها.

قال الرازي: قال ابن إسحاق: "ان مريم ما كان يحصل لها ولد حتى شاخت وكانت يوما في ظل شجرة فرأت طائرا يطعم فرخا له فتحركت نفسها للولد فدعت ربها أن يهب لها ولدا فحملت بمريم وهلك عمران فلما عرفت جعلته لله محرراً أي خادماً للمسجد"[١] فانظر رعاك الله كيف نصَّ القرآن على لُبِّ القصة وترك الشوائب إذا صح التعبير

(١) التفسير الكبير: ج٣ /ص: ٢٠٣.

﴿رَبِّ﴾

حذف حرف النداء والأصل: يا ربي كذلك حذفت يا المتكلم اجتزاءً والدعاء بالاسم الرب هو الأكثر استعمالا في أدعية السابقين ممن نقل القرآن الكريم أدعيتهم

﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ﴾

قَدمت ربها على نفسها فلم تقل: إني ربي نذرت لك. جرياً على سنة المتأدبين مع الله في الخطاب بينهم وبينه وهذا ما كان يخالفه بنو إسرائيل في خطابهم أنظر لقولهم:أُدعُ لنا ربك"[١]، وكان الأحرى بهم أن يقولوا: أدع ربك لنا.

وهذا يعني أن القرآن الكريم حين ينقل كلام من ينقل عنه يأتي به كما ذكره صاحبه لا يزيد على ذلك ولا ينقص منه شيئاً لأن افتراض الزيادة أو النقص يتنزه عنه القرآن أولاً ويفوّت على الدارسين مثل هذه المقارنة بين المخاطبين ثانياً والأدهى من ذلك أن أهل الكتاب وهم يحرصون على الطعن في القرآن الكريم لو وجدوا فيه زيادة أو نقصاً عما في كتبهم من النقل عن أنبيائهم ورجالاتهم لعدوا ذلك سبيلاً للنيل من مكانة القرآن الكريم وصدق أخباره.

والنذر هو إيجاب المرء على نفسه أمراً إما مطلقاً أو معلقاً وقولها لك أي لا لغيرك ونذرها كان مطلقاً لأنها لم تقصد إلى تعليقه بشيء.

﴿نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي﴾

تقديم الجار والمجرور "لك" لإفادة التخصيص ولزيادة أدبها مع الله ﷻ.

مـــا: أي الذي وهو من ألفاظ العموم فيشمل الذكر والأنثى والنذر اذا عينه

(١) البقرة : ٦٨.

الناذر لم يُلتفت فيه إلى الكمال فلو قلت نذرت هذه الشاة وجبت سواء كانت صحيحة أو مريضة وهذا بخلاف ما لو قلت نذرت شاة.

﴿فِي بَطْنِي﴾

لم تقل في رحمي استحياءً فعبرت بظرف الظرف لأنه يصدقُ عليه أنه ظرف

﴿مُحَرَّرًا﴾

منصوب على الحال من "ما" والتقدير: نذرت لك الذي في بطني محرراً. أي خالصاً.

﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ﴾

أي تقبل أنت مني مباشرة وإذا كتب الله له القبول قبلهُ أهل المعبد فلم تطلب من ربها قبولهُ منهم والتقبُّل أخذ الشيء على الرضا والاعتناء بالمتقبل[١].

إنها مواقف يمليها الإيمان الشاعر لا غير فلو قالت – فقبِّل مني – لضاعت هذه المعاني فضلاً عن قولها: فاقبل مني فالقبول والتقبيل غير التقبل.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾

هذه صورة من صور الابتهال إلى الله بأسمائه بعد أن تحققت بالفقر والحاجة إلى الله وامتلأت شعوراً وإيماناً أن الله وحده هو القادر على إسعافها في هذا الطلب.

﴿إِنَّكَ أَنتَ﴾

بالتأكيد بأن والحضور مع الله يمثله كاف الخطاب وتأكيده بالضمير

(١) التفسير الكبير: ج٣ /ص٢٠٣.

المنفصل – أنت– الذي يفيد القصر.

﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾

بهذين الاسمين الكريمين توجهت إلى الله في قبول دعائها لمناسبة هذين الاسمين لطلبها فهي تناجيه ولا يسمعها غيره وهي نذرت ما في بطنها ولا أحد يعلم إخلاص قلبها الا هو وحمل السميع على معنى القابل للدعاء يغني عنه تصريحها

﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ ، ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾:

لكل حاجة من حاجات المخلوق اسم من أسماء الله الحسنى يناسبها فالمريض يسأل بالشافي والضال بالهادي والفقير بالمُغني والذي يشعر بكراهية الناس له بالوَدود فخذ من أسماء الله ما ناسب غرضك والهج به في دعائك إلى الله يستجابُ دعاؤك ان شاء الله.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾

الوضع: الحطُّ والإلقاءُ تقول: وضعَ يضعُ وَضعاً وضعةً. ومنه الموضع[1] قال الزمخشري:"الضمير– يعود ــ لما في بطني وإنما أنث على المعنى لأن ما في بطنها كان أنثى في علم الله أو على تأويل الجبلّة أو النفس "ومثله في التفسير الكبير و البحر المحيط[2] والذي دعاهم إلى أن يقولوا ما قالوا في عود الضمير أن مريم

---

(١) البحر المحيط: ج٣ /ص١٠٦.

(٢) الكشاف : ج١ /ص٤٢٥. والتفسير الكبير: ج٣ /ص ٢٠٣ والبحر المحيط: ج٣ /ص١١٦.

لم يجرِ لها ذكرٌ فيما سبق ومن شروط عود الضمير إلى من يعود إليه أن يتقدم ذكره إما لفظاً أو معنىً وذلك لأن الضمائر أسماء مُبهمة لا تتبين إلا بما تعودُ إليه.

وأحسب أن ما ذكروه لا داعي له فان جملة "فلما وضعتها" حكاية من الحق ﷻ لنا في كتابه عما كان ومريم في سياق القصة معهودة ذهناً ولم تكن هذه الجملة من كلام أم مريم حتى يأتيَ فيها ما ذكروه والله أعلم.

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ ﴾

أي امرأة كانت أم مريم كل أنثى بعد أن تضع حملها يشغلها الفرح بوليدها حتى عن نفسها أكبر همِّ الوالدة بعد أن تلد هو النظر إلى مولودها نظر الواله وقد حضر إليه من يحب، مَن مِن النساء من تتذكر في تلك اللحظات الجميلة بنذرٍ قديم ولكنها المؤمنة المتعلق قلبها حباً بالله أم مريم.

وأحسب أن هذا النوع من التحليل النفسي لصاحب الحدث أجدى نفعاً على الإيمان وأهله من أنواع التحليل الأخرى.

﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ ﴾

هذا نداء حسرة ألمّت بها وهي تنظر إلى وليدتِها لأنها كانت تعلم فيما عملت من أهل دينها أنهم لا يقبلون البنات في خدمة المعابد وهي تعلم أيضًا ما عليه الرهبان وهم قادة المعابد من العزوف عن النساء وعن كل ما يذكِّر بهنَّ لأنهم زعموا فيما يزعمون عن دينهم أن الزواج نوعُ رجس ينبغي للمتأله أن يبتعد عنه. فخافت أن لا يقبلوا منها ما نذرت.

﴿أُنثَىٰ ﴾

قال الزمخشري:"أنثى حال من الضمير في وضعتها... وإنما أُنِّث ــ أي صاحب الحال وهو الضمير في وضعتها ــ لتأنيث الحال لأن الحال وذا الحال

لشيء واحد"[١]، "وإنما سميت المرأة أنثى لميلها إلى الرجال وهكذا في كل الاناث وميلها إلى ذكورها أو للينها أو كمالها في صفات النساء فيقال: امرأةٌ أنثى كما يقال رجلٌ ذكر"[٢].

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ﴾

جاء في قراءة أبي بكر عن عاصم وابن عامر "وضعتُ" بتاء الفاعل وهي تدل على ما ذكرنا من الحسرة ولكنها حسرة المؤمن الذي يعود إلى الله من قريب وقرأ باقي السبعة:"وضعت" بتاء التأنيث الساكنة والجملة على هذه القراءة معترضة فالحق ﷻ وهو يحكي لنا قصتها يلتفت إلينا بهذه الجملة كالتعليق على ما قالت.

بيد أن الجملة تحتمل وجها آخر قد نميل إليه وهو أن الجملة ليست معترضة فقط ولكنها اعتراض على ما قالت أم مريم حيث سمت وليدتها أنثى وليس كل بنت أنثى فإن الله يعلم أنه خلق مريم بدون أنوثة ولهذا لا تسمى أنثى.

﴿وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ﴾

أي في هذا العمل الذي نذرت حملها للعمل فيه. فليس في الآية ما يلمز النساء كما قد يتوهمه الجهلة وكان الظاهر على مقصردها أن تقول: وليس الأنثى كالذكر ولكن توهمها ذكورية ما في بطنها ورغبتها في هذه الذكورية هما اللذان جعلاها تقول ما قالت[٣]، وأبدى الرازي وجهين آخرين غير ما ذكرنا[٤].

---

(١) الكشاف ج:١/ص:٤٢٥.

(٢) لسان العرب ج:١/ص:٢٢٩.

(٣) انظر الكشاف ج:١/ص:٤٢٥.

(٤) التفسير الكبير ج:٣/ص:٢٠٤.

﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾

قال الزمخشري:" مريم في لغتهم بمعنى العابدة. فأرادت بذلك التقرب والطلب إليه ــ تعالى ــ أن يعصمها حتى يكون فعلها مطابقاً لاسمها وأن يصدق فيها ظنها بها ألا ترى كيف اتبعتهُ طلب الإعاذة لها ولولدها من الشيطان وإغوائه"(١).

﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾

هذه الجملة الأخيرة من كلمات أم مريم عليها السلام في مناجاتها ربها وهي معطوفة على ما قبلها "قالت ربِ إني وضعتها... وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك" وأنت ترى أنها تعيد التأكيد في كل جملة ثم تدخل هذا التأكيد على نفسها بضمير المتكلم ــ إني ــ إني ــ إني، فما وجه هذه الإعادة يا ترى؟

إن هذا التكرار في ذكر النفس والتأكيد عليه في كل جملة يدل على الحضور الكامل مع ربها الذي تناجيه وتضرعها بفقرها وحاجتها بل وانقطاعها إليه جل جلاله فالسائل مِن الملوك يؤكد فقره في كل طلب فكيف بمن يسأل ملك الملوك؟!!

هذا ما استطعت أن استوحيه من هذا الموقف.

﴿أُعِيذُهَا﴾

عاذ من باب قال أصلها عَوَذ واستعاذ به لجأ اليهِ: وهو عياذه: أي ملجؤُهُ(٢).

(١) الكشاف ج:١/ص:٤٢٦.

(٢) مختار الصحاح ص:١٩٥.

﴿أُعِيذُهَا بِكَ﴾

أي أجعلك ملجأ لها. وأعوذ بالله: أي ألجأ إليه.

وهي لا تطلب من ربها ــ بصيغة الطلب ــ أن يعيذ ابنتها فلم تقل: وأعذها بل "أُعيذها" ما الفارق بين التعبيرين؟.

لو قالت: أعذها، لكان طلبا في محل القبول والرد واعتمادها على ربها وثقتها به جعلاها لا تقف في طلبها من ربها هذا الموقف بل كان حضورها مع ربها وشعورها أنه ﷻ معها انطقاها:" أعيذها بك" كما تقول لمن تثق بحبه لك: أعتمد عليك في رعاية ولدي وتتركه عنده وتذهب ولا تنظر في قبوله ذلك لثقتك به.

ومثل هذا دعاء السفر "اللهم أنت الصاحب في السفر وأنت الخليفة في الأهل والمال والولد"[١] فمتى ما جعلته صاحبا كان صاحباً وإذا جعلته خليفة في شيء كان خليفة لك وعنك في ذلك الشيء وهذا يعني أن الله معنا في كل حال نكون معه والله أعلم.

﴿أُعِيذُهَا﴾

قال أبو حيان:أتى خبرُ إنّ مضارعا وهو: أعيذها لأن مقصودها ديمومة الاستعاذة والتكرار بخلاف وضعتها وسميتها فإنهما ماضيان قد انقطعا"[٢].

﴿بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا﴾

كـــان اعتناء أم مريم بمريم أولا ثم استدركت ذكر ذريتها بعد ذلك ولهـــذا

---

(١) الحديث رواه مسلم في كتاب المناسك ١٣٤٢.

(٢) البحر المحيط ج:٣/ص:١١٩.

فصلت بين المعطوف والمعطوف عليه بقولها "بك" فلو قالت: أعيذها وذريتها بك لكانت عوذتها لمريم وذريتها بنفس الدرجة ولكنها لم تفعل.

﴿مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾

الشيطان: كل عاتٍ متمردٍ من الإنس والجن والدواب والعرب تسمي الحية شيطاناً وكلمة شيطان: نونها أصلية وقيل أنها زائدة[1] والعرف العام اختص المتمرد من الجان باسم الشيطان وليس ذلك من دلالة اللغة.

﴿ٱلرَّجِيمِ ﴾

رجيم على وزن فعيل وهو يصح حمله على اسم الفاعل وعلى المفعول والشيطان ــ كل شيطان ــ مرجوم بلعنة الله وكفى بذلك راجماً ورجما فيكون ذِكر الرجيم ليس قيداً احترازياً بل كاشفاً وتحتمل رجيم معنى راجم هنا لأن الإعاذة عند رجمه متحققة.

﴿أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾

ما هو وجه هذه الإعاذة لمريم وهي في زمن صغرها؟ إن الله تعالى قال لنا:﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾[2]، وقال في مس الشيطان:﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّ ﴾[3]، وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: "كل مولود من بني آدم له طعنة من الشيطان وبها يستهل

(١) مختار الصحاح ص:١٤٥.

(٢) فاطر:٦.

(٣) البقرة:٢٧٥.

الصبي....."[1]، وشغب الزمخشري في رد الحديث لمخالفته مذهب المعتزلة بما لا طائل تحته[2].

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ ﴾

لمـــا كان طلبها التقبل لمولودها كانت الاجابة على مقتضى الســـؤال فقد ذكرنا أنها لم تطلب مطلق القبول وإنما كان رجاؤها من الله أعظم مـــن ذلك حيث طلبت قبولاً مشفوعاً بالرضا من القابل، وبالرضا والاعتناء بالمقبول وعن المقبول.

﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾

قال الزمخشري: فيه وجهان: أحدهما: أن يكون القبول اسم ما تُقُبِّل به الشيء كالسعوط واللدود لما يسعط به ويُلَدُّ وهو اختصاصه ﷻ لها بإقامتها مقام الذكر في النذر ولم يقبل قلبها أنثى في ذلك.

والثاني: أن يكون مصدراً على حذف المضاف بمعنى فتقبلها بذي قبول حسن أي بأمر ذي قبول حسن وهو الاختصاص[3].

﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾

يقدر الكثير من المفسرين فعلاً محذوفاً قبل نباتاً أي فنبتت نباتاً وذلك لأن مصدر أنبت إنباتاً لا نباتاً مثل قوله تعالى: ﴿ وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾[4]، ولم يقل خروجاً

(١) رواه الشيخان، انظر تفسير ابن كثير بتعليق الصابوني ج:١/ص:٢٧٨.

(٢) الكشاف ج:١/ص:٤٢٦.

(٣) الكشاف ج:١/ص:٤٢٦-٤٢٧.

(٤) نوح:١٨.

ولكن طريقة القرآن الكريم إذا أراد أن يتكلم عن فعل من أفعال الله جاء بالمصدر ـ أخرجكم إخراجاً ـ وإذا تحدث عن المخلوق فالمخلوق لا يتخلف تكوينه فعندما يقول له إنبت يكون نباتاً فلا داعي لذكر الإنبات وكذلك التوصيف بالحسن فإنه إنما يليق بالمخلوق لا بفعل الله ﷻ فلا يقول أخرجكم إخراجاً حسناً لأن فعله ﷻ حسن ولا بد.

﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾

كفلها بتشديد الفاء أي أن الله أمر زكريا أو جعل زكريا كافلاً لها، وجاء في قراءة مجاهد فتقبلها وأنبتها وكفّلها بسكون اللام والتاء واللام في كفّلها فتكون الأفعال الثلاثة ملحقة بدعاء أم مريم أي فتقبلها وأنبتها وكفّلها زكريا[1] أي واجعل زكريا كافلاً لها.

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾

"كلما" تقتضي التكرار فتدل على اعتناء زكريا عليه السلام بها وأنه كان يكثر من الدخول عليها اعتناءً بها، ولا تنس أن زوجته خالتها والخالة من حيث العطف والحنان كالأم ولا تنس أيضاً أن أمها لا زالت حية توصيه بالاعتناء بها وتدل هذه الكلمة أيضاً على أن حصول الرزق لمريم كان دائما لأنه لو لم يكن على الدوام لأمكن أن يدخل عليها زكريا في وقت من الأوقات ولا يجد عندها هذا الرزق.

وفي هذه الكليّة ـ كلما ـ كسرٌ لما يشترطه بعض المتكلمين على الخوارق في كونها كرامةً أن لا تقع دائما بل عند الضرورة فقط.

﴿دَخَلَ﴾

(١) الكشاف ج:١/ص:٤٢٧.

تفيد أن مريم كانت في مكان لا يحتاج الداخل عليها إلى استخدام أسباب إضافية ولهذا لمَّا كان محراب داود ﷺ مرتفعا عن الأرض قال الله عنه:﴿إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ [1] ولو كان محراب مريم كذلك لقال: كلما تسوَّر زكريا عليها المحراب.

﴿دَخَلَ عَلَيْهَا﴾

على تفيد الاستعلاء وزكريا هو الكافل لها والكفيل عليها وهو نبي وهي ليست كذلك وكفالته لها تعطيه الحق في الدخول عليها متى رأى المصلحة في الدخول فهو لا يخضع لرأيها في تحديد أوقات الدخول عليها.

﴿دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا﴾

تقدمت عليها على زكريا لأن الحديث مساق عن مريم لا عن زكريا.

﴿الْمِحْرَابَ﴾

يطلق المحراب ويراد به صدر المجلس ومنه المحراب في المسجد لوقوعه في صدر المسجد ويطلق المحراب على الغرفة ومنه قوله تعالى:﴿إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾[2] وقيل يطلق المحراب على محل العبادة قال تعالى:﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ ﴾[3] قيل من المسجد[4] والذي يترجح في سياق الآية أن المقصود بالمحراب هو المكان الذي اتخذته مريم لعبادة ربها وهو المكان الشرقي الذي

---

(١) سورة ص:٢١.

(٢) سورة ص:٢١.

(٣) مريم:١١.

(٤) مختار الصحاح ص:٦١.

نصت عليه الآية: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾[1] مريم: ١٦ - ١٧.

﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗا﴾

العامل في الظرف هو الفعل وجد والرزق هو الموجود وهو وإن جاز أن يتعلق به الظرف إلا أن المعنى سوف يتغير ولا يصح تقديره لأن زكريا كان همه تفقد مريم ولم يكن همه الرزق الذي يجده عندها فلو قال: وجد رزقاً عندها لكان همه الرزق في دلالة الخطاب لا هي وذلك غير مقصود على الراجح وإنما نقول على الراجح لأن احتمال استطعامه من رزقها لا ترده الدلالة اللفظية نصاً والله أعلم.

﴿قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾

لم يكن في المحراب غير مريم حتى يخصصها بالخطاب ولا هي ممن لم تحسّ بدخوله حتى تحتاج إلى التنبيه بحرف النداء، إذن لماذا يناديها؟ لماذا لم تأت الصيغة (قال أنى لك هذا)؟ إنه موقف الغريب عن الحدث الغافل عن إمكان وقوعه مع علو مكانته على مكانتها إنه النبي وهي الولية الصالحة فكان منه هذا السؤال (أنى لك هذا) المبدوء بحرف النداء.

لم يكن زكريا يتوهم اقتحام حرمته وحرمة من تكفلها فيوصل إليها رزقاً بدون إذنه حتى يسأل عن الجهة أو الشخص الذي يأتيها منه الرزق الكريم،هو سؤال عن الكيف إذن لا عن الأين إنه متأكد أن أحداً غيره لا يجرؤ على الدخول إليها وهو بنفس الدرجة من التأكيد إن مريم لن تسمح لأحد في الدخول إليها وما

---

(١) مريم:١٦-١٧.

يحكى من القصص عن إقفال الباب عليها أو أنها سبعة أقفال كان الغرض منها إيصال المعنى الذي حكيناه فيما نحسب والله أعلم.

﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾

كيف يأتيك؟ وبأي طريقة؟ ما الذي أوصلك إلى هذه الحالة؟وتقديم لك على هذا يتمم تفسير هذا السؤال إذ لم يكن سؤاله عن الرزق بل عنها " أنى لك هذا" وليس أنى هذا لك".

﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾

لم تكن بحاجة إلى حرف النداء انه مستيقظ بجميع حواسه معها ليسمع الجواب منها "قالت: هو..." تحدثت عن الرزق الذي عندها بضمير الغيبة إنها غير مهتمة به فلو كانت تهتم به لقالت: هذا من عند الله، ولكنه ليس قريباً إلى قلبها فأبعدته في خطابها لزكريا عن قلبها.

﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾

لله جنود السموات والأرض إن الله هو الذي يرسله إليها من عنده، فلم تقل هو من الله بل قالت: "هو من عند الله وهذه حكاية صدق لحالها مع الله فهي بعدُ لم تصل إلى حال الرزق من الله إن هذه الحال ستكون لوليدها عيسى عليه السلام ينزل المائدة ويحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله فما يقع لعيسى من الله وما يأتي لأمه من عند الله أفلا تسجد العقول والقلوب لرب العالمين مُنزّل هذا القرآن!!!

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

أنظر إلى التعبير القرآني وكيف يحكي لنا مواقف الماضين ــ أحاسيسهم ومشاعرهم ــ وما تعتلج به نفوسهم وقلوبهم كل ذلك يوصله بأمانة كاملاً غير منقوص بألفاظ اللغة وتعابيرها ومصطلحاتها انه نوع من التحدي والإعجاز لا يقوم

به إلا العالم بخفايا النفوس ودرجات إيمانها وكفرها وطاعتها ومعصيتها ولا يكشف ذلك كله إلا التفسير التحليلي بكل جوانب التحليل.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾

لم تقل مريم إنه يرزق من يشاء؛ مع ذكر لفظ الجلالة متصلاً بهذه الجملة "من عند الله" إنها حكاية حضورها مع الله وأدبها في الحديث عنه ﷻ

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾

إن الله يرزق العبد بما يعمله من أسباب لا يمكن للعبد أن يتخطى عالم الأسباب دنيا وآخرة وكل ما نتوهم منه فقدان الأسباب إنما هو الانتقال من سبب كثيف إلى سبب لطيف، التقوى تؤدي إلى الرزق من حيث لا يحتسب العبد وعيسى يحيي الموتى بالإذن ويقول للطير بعد تصويره كن طيراً، والتصوير وكن من الأسباب فلا يمكن أن يقع شيء بلا شيء بل حتى الحضرة الإلهية لا تخلق بدون استخدام سبب﴿إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1]، فالإرادة وكن توقف عليها وجود ذلك الشيء وكذلك إمكانية الشيء على التكوين "فيكون" أي هو يكون.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾

بقوله كن إذا أراد وبالأسباب الظاهرة إذا أراد فالإرادة هي التي تخصص الطريق

﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

مفرد مضاف فيعـم كل أشكـال المغايرة أي بغيـر حساب لله على مـا

(١) النحل: ٤٠.

يفعل: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [١]وبغير حساب لما يعطي فانه الكريم،وبغير حساب لمن يعطي فان الله يعمل ما يريد لمن يريد،وبغير حساب للكيف وبغير حساب للكم وبغير حساب للاستحقاق تعالى الله رب العالمين.

وأنت ترى أن الآية هذه تتحدث عن مريم لا عن أمها ولكنها لما كانت لا تزال في دور الرعاية من أُمها يكون الحديث عنها داخلاً في الحديث عن أُمها وبعد الاستقلال نأخذ الحديث عن قصتها وحدها.

(١) الأنبياء:٢٣.

الفصل العاشر

في قصة زكريا عليه السلام

الفصل العاشر

في قصة زكريـا عليه السلام ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ الشورى: ٤٠

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٨ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٣٩ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ٤٠ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ آل عمران: ٣٨ - ٤١ .

رتب القرآن القصص الثلاث قصة أُم مريم وقصة مريم ومعجزات أو آيات عيسى ترتيب الأحداث التأريخية وكأن الواحدة تكون موطئة للتي بعدها وجعل الآيات ذات العلاقة بقصتين منها ضمن أكثرها مناسبة وصلة بها فقد يجد القارئ آية كأنها تخص قصة زكريا وضعت في سياق قصة أُم مريم أو آية في قصة مريم تخص وليدها عيسى ولكن القرآن كان نظره في سرد الآيات إلى تسلسل الأحداث ثم مكانة صاحب الحدث ثم مناسبتها لموقعها في القصة.

﴿هُنَالِكَ﴾

هنا موضوعة في لسان العرب للمكان ومثلها ثَمَّ وحيثُ إلا أن هنا مستعملة للقريب فإذا أردت البعيد قلت هنالك وبقيت هناك فهي لما بين بين أي للمتوسط ولا يغيب عن بالك أن القرب والتوسط والبعد من الأمور النسبية قال في

الكشاف:"وقد يستعار هنا وثَمَّ وحيث للزمان"[1] وقال الرازي في قوله تعالى:﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ﴾ [2] فهذا إشارة إلى الحال والزمان"[3] وإذا كانت هذه الأسماء تدل على الذوات مكاناً أو زمانا فإن العرب استعملوها للدلالة على المعاني والرتب بطريق الاستعارة أيضاً.

﴿هُنَالِكَ﴾

مكاناً أو زماناً أو حالاً الإشارة محتملة لكل هذه المعاني فعندما رأى زكريا ما رأى بأُم عينيه من كرامة الله لمريم عليها السلام وإرسال الطعام إليها دائماً انتبه إلى ما يعانيه هو وزوجته العاقر من فقدان الولد الذي يعد سبباً من أسباب الخلود في الذكر والذي يرثه بعد موته فتوجه إلى ربه جل جلاله أن يهبه الولد كما يهب مريم رزقاً من عنده في ذلك المكان أو في ذلك الوقت أو في ذلك الحال الذي سيطر عليه إجلالاً لله الذي يرزق من يشاء بغير حساب.

وأحسب أن العوامل الثلاثة ـ المكان والزمان والحال ـ كما كان لها دخل في استثارته للدعاء كان لها أيضاً أثر في استجابة دعائه فمكان العبادة وزمان حدوث الكرامة والحال الذي يلبس الشخص وهو يرى ما يرى من عطاء الله وكرمه؛ كلها عوامل تدفع إلى الإنابة الصادقة والخشوع الكامل والذلة المستمية بين يدي عالم الغيب والشهادة لتكون سبباً من أسباب إجابة الدعاء وعطاء الداعي.

---

(١) الكشاف ج:١/ص:٤٢٧.

(٢) الكهف:٤٤.

(٣) التفسير الكبير ج:٣/ص:٢٠٩.

﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾

لم يطلب من مريم الدعاء ولا كان ذلك يليق به في مثل حـــاله والدعـــاء: النداء[1] وإجابة الدعاء قول المدعو: نعم أو ما يشبهها واستعمال إجابة الدعاء في عطاء المدعو الداعي ما طلبه من مدعوه استعمال مجازي.

﴿قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ﴾

كأن زكريا عليه السلام كان الحال الذي لبسه إنما لبسه في الأغلب من قولها" بغير حساب" لأنه لو كان واقفاً مع الرزق لقال: رب ارزقني أو ما في معناها لأن الهبة هي التي يصدق عليها "بغير حساب" من الواهب والموهوب والموهوب له.

﴿مِن لَّدُنكَ﴾

أي مما يخصك أنت القادر على كل شيء لأنَّ لدن أخص من عند قال أبو حيان:"ألا ترى أن عند تقع جواباً لـــ(أين) ولا تقع له جواباً لـــ(لدن)"[2]وهذا مؤشر لنا أن زكريا مع ربه في مقام أعلى من مقام مريم التي تتعامل بالعندية أو أن مطلوب زكريا تناسبه اللدنية على خلاف ما كان لمريم عليهما السلام وهذه مقامات أذواق لا مقامات أوراق والله أعلم.

﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾

ذرية: أي ولداً والذرية تقع على الواحد والجمع كما يقـــول الزمخشـــري

(١) مختار الصحاح ص:٩٢.

(٢) البحر المحيط ج:٣/ص:١٢٦.

والرازي[١] قال الفراء: وأنّث "طيبة" لتأنيث الذرية في اللفظ فالتأنيث والتذكير تارة يجيء على اللفظ وتارة على المعنى وهذا إنما نقوله في أسماء الأجناس أما في أسماء الأعلام فلا لأنه لا يجوز أن يقال: جاءت طلحة لأن أسماء الأعلام لا تفيد إلا ذلك الشخص فإذا كان الشخص مذكرا لم يجز فيه إلا التذكير[٢] أي ولا التفات إلى تأنيث لفظه.

والطيبة: هي الخالصة من كل ما يشوبها والطيب أعلى من الصالح[٣] فكل طيب صالح دون العكس وإذا كان الله لا يقبل من عباده إلا العمل الطيب فكيف يطلب منه ما دون ذلك فالوهب طيب والموهوب له طيب أيضاً اللهم إنا نتطيب بك يا طيِّب.

﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾

المقصود بسميع هنا: المجيب لأنه قرنه بالدعاء ويضعف حمله على السمع لأنه سميع للدعاء وغيره وهي نفس الصيغة التي دعا بها إبراهيم عليه السلام قال تعالى:﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾[٤]
ويطلق الدعاء ويراد به النداء تقول أدع فلاناً إذا أردت منه أن يناديه لك

(١) الكشاف ج:١/ص:٤٢٨. التفسير الكبير ج:٣/ص:٢١٠.
(٢) البحر المحيط ج:٣/ص:١٢٦.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) إبراهيم:١٤.

ومنه قوله تعالى:﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [1] ويطلق الدعاء ويراد به النداء مع المسألة التي جاء النداء لها والآيـــة التي بأيدينا- إنك سميع الدعاء - من هذا لا من الأول.

﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾

المقصود بالملائكة: جنس الملائكة لا كلهم قال في الكشاف:" وإنمـــا قيـــل الملائكة على قولهم: فلان يركب الخيل"[2] أي جنس الخيل، ولا يعقل أن تحمل كلمة الملائكة على جميع الملائكة بناءً على ظاهر النص كما توهمه الشوكاني رحمه الله في فتح القدير[3].

﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾

في هذا دليل على سرور الملائكة بقبول دعوة زكريا عليه السلام فنادته حين أمرها الله بتبشيره ولهذا لم تنتظر انتهاءه من صلاته فوصله النداء قبل وصولهم إليه ونداء الملائكة وكلامهم مع البشر يقع على صور مختلفة وهم محكومون بالصورة التي يتمثلون بها وهو بحث طويل نستعفي القارئ عن ذكره.

﴿وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ ﴾

الواو في "وهو" واو الحال أي نادته الملائكة حال كونه قائماً يصلي في المحراب.

---

(١) الإسراء:١١٠.

(٢) الكشاف ج:١/ص:٤٢٨.

(٣) فتح القدير ج:١/ ص:٤٢٦.

﴿فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾

هل يتعلق الجار والمجرور بـ(يصلي) أو بـ(قائم) يقول أبو حيان:" ويتعلق في المحراب بقوله: يصلي ولا يجوز أن يتعلق بقائم.... إلا في وجه واحد وهو أن يكون يصلي حالاً من الضمير الذي استكن في قائم فيجوز لأنه إذ ذاك يتحد العامل فيه وفي يصلي وهو قائم"(١).والمحراب هو المكان الذي يخصصه الشخص للعبادة.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ﴾

الملائكة رسل الله لا يقولون نبشرك وكان يجوز لهم ذلك ولكن أدبهم مع الله جعلهم يسندون البشارة إليه ﷻ أو أنهم أرسلوا للبشارة وإنما سمي الخبر السار بشارة لظهور أثره على بشرة المبلّغ فتنفتح أسارير وجهه وتنبسط أعصابه في جميع أنحاء جسده.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ﴾

أكدوا الجملة بإن واستخدموا الجملة إسمية الصدر فعلية العجز لتدل على الثبات في أولها وعلى التجدد في آخرها فإن زكريا بعد وصول هذه البشارة إليه فسوف يبقى معها طويلاً كلما رأى زوجته العجوز العاقر وقد انتفخت بطنها من آثار الحمل إنه الإعجاز الإلهي فعلاً.

﴿بِيَحْيَىٰ﴾

إذن هو مولود ذكر وهو أيضا سيولد على هذا الإسم فطالما أن زكريا

(١) البحر المحيط ج:٣/ص:١٢٩.

شيخ كبير وأن زوجته امرأة عاقر وهما لا يولد لمثلهما فالذي خلقه بدون أسبابهما هو أولى بالتسمية له فهنيئاً ليحيى عليه السلام بالتسمية الإلهية له وكذلك هنيئاً له هذا الاسم الذي يدل على الحياة بل على التجدد في الحياة.

﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾

الجمهور على أن الكلمة التي يصدق بها يحيى هي عيسى عليه السلام فإن الله سماه كلمة كما سيأتي قريبا ويذهب أبو عبيدة وغيره إلى أن الكلمة هي الكتاب من الله وذهب بعضهم إلى أن "بكلمة من الله" متعلق بقوله" يبشرك ــ على معنى البشارة بيحيى مصدقاً وسيداً وحصورا إنما هي وعد من الله والله لا يخلف الميعاد"[1] هذه واحدة من قانون سعة النص للوجوه المختلفة.

﴿وَسَيِّدًا﴾

ساد يسود فهو سيد فمن ساد على قومه أخلاقاً أو ديناً أو..أو فهو سيد وكل ما ورد عن السلف في تفسير السيد إنما هو من باب ضرب المثل فالحليم الذي لا يركبه الغضب سيد والذي يقود المؤمنين إلى الخير سيد والعالم النافع بعلمه هو سيد فلا يختلف مفهوم السيادة وإنما الخلاف في أي شيء يسود.

﴿وَحَصُورًا﴾

الحصر في اللغة الحبس مطلقا فكاتم السر حصور والضيق البخيل حصور والذي تنحبس طبيعته حصور وهلم جراً. يتفق أغلبية المفسرين أن يحيى كان حصوراً عن النساء إما لعدم وجد الدافع وإما تعففاً وزهداً.

---

(١) انظر البحر المحيط ج:٣/ص:١٣١. التفسير الكبير ج:٣/ص:٢١١.

وأحسب أن يحيى كان حصورا لا لوجود عيب في جهازه وإنما لعدم ميله إلى النساء أصلاً حاله حال مريم جهازها سليم بدليل حملها بعيسى عليه السلام ولكنها لا تجد الرغبة في معاشرة الرجال،وفي خلق يحيى على هذه الصفة سر من أسرار الله في الخلق فقد دعا زكريا ربه بالولد وكانت جميع حواسه متشبعة بمريم ومكانتها فجاء يحيى على صورتها وقد تجد في تجارب الناس في كل جيل شواهد على ذلك أي على مجيء المولود على الصورة التي في نفس الأبوين والله أعلم، ويحكى أن الحكماء السابقين كانوا يضعون صور الرجال العظماء في غرف نومهم ليتشبع من الصورة خيال الزوجين فيأتي المولود مشابها لصاحب الصورة[١].

﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾

النبي من الإنباء فالظاهر أن يقال له: مُنبأ ولكن كثرة الاستعمال جعلت العرب تحذف الميم وتنطق بالهمزة ياءً وقيل أن النبي مأخوذ من نبو ينبوُ أي ابتعد وذلك لأن النبي يبتعد عن أعراف وتقاليد قومه فيما يخالف دينه.

﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾

أي نبياً كائناً من جماعة الصالحين فالأنبياء كلهم صالحون وهو واحد منهم كما تقول مدرس من المدرسين ونجار من النجارين وذلك لأنه لا يكون نبيٌّ إلا صالحاً.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾

---

(١) انظر حياة الحيوان للدميري ج:١/ص:٤٢.

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾

أنى: كيف وهو موقف بشري من زكريا عليه السلام لازال يعيش مع سؤاله الأول:أنى لك هذا ثم يقدم "لي" على "غلام" فكأنه يستبعد أن يكون لمثله غلام "أنى يكون لي غلام" سأل زكريا هذا السؤال مع العلم أنه هو الذي دعا ربه أن يهب له ذرية إنها صدمة المفاجئة هو قائم يصلي مستغرق في عبادته ويسمع النداء بالبشرى يمكن القول إن الملائكة لو جاؤوا إليه وذكروه بدعائه على هون وتؤدة لما قال ما قال: هذا احتمال في مفهوم النص قد يتبادر إلى ذهن الولوع بفن التحليل.

﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾

الكبر: مصدر كبر يكبر إذا أسنّ يقال إنه عند البشارة كان عمره مائة وعشرون عاماً وكانت امرأته تناهز المائة عاما من عمرها[1].

﴿بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾

كقولهم: أدركته السن العالية والمعنى: أثّر فيَّ الكبر فأضعفني[2] وقال الرازي: كل شيء صادفته وبلغته فقد صادفك وبلغك وكلما جاز أن يقال: بلغت الكبر جاز أن يقال: بلغني الكبر يدل عليه قول العرب: لقيت الحائط وتلقاني الحائط"[3].

(١) التفسير الكبير ج:٣/ص:٢١٤.

(٢) الكشاف ج:١/ص:٤٢٨.

(٣) التفسير الكبير ج:٣/ص:٢١٤.

وكل إنسان يحب الهروب من الكبر وأسبابه ولا يصح أن يطلب إنسان الكبر بل هو يخاف منه ومن أماراته فكان التعبير بهذه الصيغة" بلغني الكبر" أكثر دقة وصدقاً في التعبير عن مشاعر الإنسان وأحاسيسه فكأنه هارب من الكبر فبلغه مع كراهته له.

﴿وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ﴾

العاقر: المرأة التي لا تحبل ورجل عاقر أيضاً أي لا يولد له كذا في المختار[١] ولكن القرآن الكريم لم يستعمل كلمة عاقر إلا في المرأة واستخدم للرجل كلمة عقيم قال تعالى:﴿لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ﴾[٢] واسم الموصول الذي وإن كان صالحا للذكور والإناث إلا أن السياق يدل على أن الحديث عن الرجال لا عن النساء.

﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾

أي قال الرب ﷻ لأنه هو المذكور في قوله:"قال رب أنى يكون لي غلام".

قال في الكشاف:" كذلك: أي يفعل الله ما يشاء من الأفعال العجيبة مثل ذلك الفعل وهو خلق الولد بين الشيخ الفاني والعجوز العاقر أو: كذلك الله: مبتدأ

(١) مختار الصحاح ص:١٨٩.

(٢) الشورى:٤٩-٥٠.

وخبر: أي على نحو هذه الصفة الله ويفعل ما يشاء بيان له أي يفعل ما يريد من الأفاعيل الخارقة للعادات"(١).

﴿يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾

ليس في الآية نفي مشيئة غير الله وذلك لأن إثبات القدرة على المشيئة للعبد قد شاءها الخالق ﷻ واحتمال التعارض غير وارد أصلاً لأن مشيئة الخالق قادرة على إيقاف مشيئة العبد فكيف يفترض التعارض بين الخالق والمخلوق.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾

﴿ٱجْعَل لِّيٓ﴾

هذا طلب زكريا من ربه ﷻ لأن البشارة بالولد كانت متصلة بالدعاء يدل على ذلك العطف بالفاء في قوله تعالى:"فنادته الملائكة" إذن هو لا يعلم متى سيكون علوق زوجته بهذا الولد وهو عليه السلام لشدة رغبته في الولد وسروره به طلب من ربه أن يجعل له علامة على حصول العلوق لأنه أمر مستقبل لا يدري متى يقع هذا ما يدل عليه النص، والشرود إلى الظن بزكريا ما لا يليق بالأنبياء ليس من شأن علماء المسلمين في شيء بل ذلك طبع اليهود وأحبارهم (٢).

والآية: العلامة وما طلبه زكريا عليه السلام شبيه بما جعل الله لموسى عليه السلام من العلامة على مكان اللقاء بالرجل الصالح حيث كانت علامته ما

---

(١) الكشاف ج:١/ص:٤٢٨.

(٢) أنظر البحر المحيط ج٣ /ص١٣٨ .

كان من شأن الحوت الذي كان معدا للطعام فإذا هو يسلك طريقه في البحر مستقبَل بمستقبَل وعلامة بعلامة .

﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾

آيته عليه السلام أن يجد نفسه في يوم من الأيام لا يدري متى هو وقد حبس لسانه عن الكلام مع الناس هذا كل ما يدل عليه النص وليس فيه أن سبب الحبسة عيب وليس في النص أيضا أنه يؤمر بعدم الكلام فيكون الأمر علامة علوق الحمل، إن النص واضح مكشوف " أن لا تكلم الناس" قال في الكشاف: " آية: أي علامة أعرف بها الحَبَل لأتلقى النعمة اذا جاءت بالشكر قال آيتك: أن لا تقدر على تكليم الناس [(١)]" .

﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾

يطلق اليوم ويراد به النهار خاصة ومنه قوله تعالى" سبع ليالٍ وثمانية أيام[(٢)]" وجاءت الثلاثة هنا مسماة بالأيام وفي سورة مريم ثلاث ليالٍ فدلت الآيتان على أن المقصود بالأيام ما يشمل لياليها وكذلك تستعمله العرب في لسانها .

﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾

الرمز: الإشارة بيدٍ أو رأس أو غيرهما وأصل الرمز التحرك يقال: ارتمز اذا تحرك ومنه قيل للبحر: الراموز ذكر ذلك الزمخشري[(٣)] ثم قال: فـإن قلـت:

---

(١) الكشاف ج١ / ص٤٢٨ .
(٢) الكشاف ج١ / ص٤٢٩ .
(٣) الكشاف ج١ /ص٤٢٩ .

الرمز ليس من جنس الكلام فكيف أستثني منه ؟ قلت: لما أدى مؤدي الكلام وفهم منه ما يفهم منه سُمي كلاماً ويجوز أن يكون استثناءً منقطعاً [1].

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾

الواو تحتمل وجهين:

الأول: أن تكون استئنافاً فلا علاقة بينها وبين ما قبلها إلا من حيث ذكر جملة بعد جملة أو خبر بعد خبر وهذا هو ظاهر النص فالآية شيء والأمر بالذكر شيء آخر.

الثاني: أن قوله"واذكر ربك" داخل في جملة الآية وكأن آية زكريا تكون بوجهين حبس لسانه عن الكلام العادي[مع الناس] مع بقائه مطلقا بالذكر"[2].

وهو وجه متكلف ضعيف لأن إطلاق لسانه بالذكر جاء بصيغة الأمر لا بصيغة الخبر فلم يقل القرآن: وأن تذكر ربك أو: وذكرَ ربك أو: وإلا ذكر ربك فزكريا أمر بذكر ربه والأمر يتعلق بالمأمور من حين صدوره وبلاغ المأمور به إليه.ثم يقال أيضاً: إن دلالة الفعل على الحدث من باب دلالة المطلق فيصدق بالإتيان بفرد من أفراده والذكر القلبي واحد منه فلا داعي لاستثنائه أصلاً .

﴿وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾

التسبيح: التنزيه ولما كان التنزيه لا يليق إلا بالله لم يقل: وسبح الله اكتفاءً بالقرينة العقلية عليه .

---

(١) الكشاف ج١ /ص٤٢٩ .

(٢) الكشاف: ج١ /ص٤٢٨-٤٢٩ .

﴿وَسَبِّحْ ﴾

فعل أمر من سبَّح المضعف تقول: سبَّح زيد عمرواً إذا أفاض عليه الماء،وإنما سميت إفاضة الماء من شخص على شخص تسبيحاً لأن الماء ينزه الإنسان إذا أفيض عليه من الأوساخ، فالمسبِّح لله كأنه يزيل ما علق به من أخطاء في جنب الله فهو سبَّح نفسه لله لأن الله هو السُّبُّوح فليس بحاجة إلى تسبيح من جانبنا بل لا يعقل ذلك فالعبد يسبح نفسه لله ويسبح بحمد الله وإذا سبح الله فإنما يسبحه عما توهمه هو في جناب خالقه.

﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾

قال في الكشاف: العشي من حين نزول الشمس إلى أن تغيب والإبكار من طلوع الفجر إلى وقت الضحى[١]،والباء في "بالعشي" للملابسة أي سبح لله إذا لابست العشي والإبكار أو بمعنى في أي في العشي والإبكار، والتسبيح ذكر خاص وهو وارد في اللسان وفي القلب وفيهما جميعاً فلا داعي إلى اعتباره مستثنى من الكلام لأن التسبيح القلبي لا يسمى كلاما والله أعلم

---

(١) الكشاف : ج١ /ص٤٢٩ .

الفصل الثاني عشر

في قصة مريم عليها السلام

الفصل الحادي عشر
في قصة مريم عليها السلام

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ آل عمران: ٤٢ - ٤٧

قبل الدخول في التحليل لقصة مريم أود أن أنبه على أمر قد يغفل عنه القارئ في زحمة سرد الآيات وتحليلها وهذا الأمر نجمله فيما يأتي :

هناك فارق كبير بين قصة أم مريم من جهة وقصة زكريا ومريم من جهة أخرى الحديث في قصة أم مريم كان حديثاً إخباريا فقط لا يوجد فيه أي نوع من المحادثة والتخاطب يخبر عنها القرآن أنها نذرت نذرها وتقبله الله منها هذا الموقف ليس فيه شيء من الخصوصية ويمكن أن يقع مثله من كثير من الناس حتى تقبُّل الله تعالى لنذرها كان صيغة إخبارية لا غير. بينما يتغير الموقف في سرد قصتي زكريا ومريم فكان على طريق المحادثة الصريحة فالملائكة تنادي زكريا وتخاطب مريم وتنقل اليهما البشارة من الله ﷻ بل يطول الحديث مع مريم حتى تخبرها بالاصطفاء وتأمرها بالعبادة على ما تعرفه من دينها، كان زكريا نبياً من الأنبياء

ومحادثة الملائكة مع الأنبياء أمر تقتضيه نبوتهم فالوحي من الله هذا واحد من طرقه المعتادة ولكن الإشكال في مريم كيف تحادثها الملائكة؟ وكيف تنقل لها أوامر بالقنوت والسجود والركوع؟ ثم كيف توجه إليها البشارة بعيسى ويُذكر لها اسمه ومكانته وأحواله في مهده وفي كهولته؟ ثم لماذا المناداة لزكريا والمخاطبة لمريم؟ والمذهل حقاً قول مريم لربها مباشرة أنى يكون لي ولد واجابتها بقوله: قال كذلك الله من الذي أجابها ؟من المسوؤل؟ ومن المجيب؟ !!

ألا ترى أن التواصل في المحادثة كان مع مريم أكثر منه مع زكريا وهو نبي؟!! إنها مواقف تدعو لإعادة النظر في كثير من معارفنا وما درجنا عليه وكأنه من المسلمات البديهية،هذا ما رغبت التنبيه إليه ولنعد إلى مسيرة التحليل للنصوص والله الموفق.

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾

التقدير: واذكر إذ قالت و"إذ" تأتي للدلالة على الماضي بخلاف "إذا" فإنها دالة على المستقبل.

والنص واضح الدلالة أن الملائكة خاطبت مريم وهي ليست نبيةً والقول بأن خطاب الملائكة لمريم كان معجزة لزكريا أو أنه كان إرهاصاً لعيسى لا يجدي شيئاً[(١)] فالمهم أن الملائكة خاطبت غير نبي وهو ما ينكره الكثير من الناس.

ثم أنت ترى النصوص كيف ميزت مريم بهذا الخطاب على زكريا نفسه قال النص عن زكريا:"فنادته الملائكة" وعن مريم:"قالت الملائكة" والنداء لا يستلزم الرؤيــة للمنادي بينما المخاطبة إن لم تستلزم فهي تبعث فــي نفس السامع توهــم

---

(١) انظر الكشاف ج:١/ص:٤٢٩.

الرؤية على أقل تقدير.

﴿ يَٰمَرْيَمُ ﴾

هذا التخصيص بذكر الإسم من جانب الملائكة لا يُقدِّر قدره والاعتزاز به إلا من يقع له مثله وأما الصم والموتى فأنَّى لهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ ﴾

بهذه الجملة الخبرية المؤكدة والمقطوع بصدقها من قبل المخبِر والمخبَر تبتدئ هذه المخاطبة اصطفاك وانتهى الأمر والاصطفاء هنا ذاتي لمريم اصطفاها لنفسه ﷻ أمر بتصفيتها من له هذه التصفية من خلقه ملائكةً وأحداث ومن لا نعلم الله يعلمهم.

﴿وَطَهَّرَكِ ﴾

يمكن حمل العطف هنا على أنه عطف لبيان الإصطفاء ويمكن أن الله وكل ما يقدر عليه عباده إلى عباده وما لا يقدر عليه العباد إليه ﷻ وهذا هو الفارق بين الصيغتين لما في افتعل من معنى الكسب(١).

ممن اصطفاها؟ وطهرها من ماذا؟ اصطفاها وطهرها ربها وكفى به اصطفاءً وتطهيراً.

﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

هذا اصطفاء نسبي وهل الاصطفاء الذاتي يتقدم على الاصطفاء النسبي أو العكس هو الصحيح الجاري في تسلسل الحدث؟ أحسب أن الإصطفاء الثاني هو الأول وقوعاً اختارها من بين بنات جنسها ثم أعمل فيها الإصطفاء والتطهير بعد

---

(١) انظر التفسير الكبير في التفريق بين الإصطفاءين أيضا ج:٣/ص::٢١٧ ــ ٢١٨.

ذلك وقدم الثاني على الأول في البشارة لأنه أعلى من الأول في باب البشارة والعطف بالواو لا يعارض ذلك لأنه لمطلق الجمع فقط.

﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾

إعادة الخطاب بالإسم لمريم عليها السلام لإشعارها بما لها من المكانة الرفيعة عندهم ولولا ذلك لأمكن العطف بدون إعادة الخطاب بالاسم صراحة.

﴿ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ﴾

القنوت أصله الطاعة[1] ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ ﴾[2] ثم سمي القيام في الصلاة قنوتا،وقد اختلفت كلمة السلف في المراد بالقنوت في هذه الآية فالحسن وقتادة يقولان: العبادة، ومجاهد وابن جريج والربيع على أنه: طول القيام في الصلاة، وابن جبير يتردد قوله بين الطاعة والإخلاص.وأنت ترى أن القنوت هنا تعدى باللام فيجب مراعاة هذه اللام عند اختيار واحد أو أكثر من معاني هذه الكلمة فلو قلنا: أقنتي بمعنى أطيعي لزم أن لا تذكر اللام لأنه يصح أن نقول: أطيعي ربك بدون اللام ومثل الطاعة العبادة فيما لو قلنا: أعبدي لربك لما جاز ذكر اللام إلا على تأويل معنى الإخلاص في العبادة أما لو قلنا: أن المراد بالقنوت هنا طول القيام في العبادة أو أن معنى القنوت الإخلاص فلا نحتاج إلى تقدير ولا تأويل وهذا هو الراجح فيما أحسب.

وإنما ذكرت اختلاف السلف في تفسير "اقنتي" للتنبيه على أهمية ملاحظة الأدوات في اللسان العربي عموما وفي القرآن الكريم خصوصاً فإن القاعدة في

---

(١) مختار الصحاح ص:٢٣٢.

(٢) الأحزاب:٣٥.

اللسان العربي أن الفعل إذا ضُمِّن معنى فعل آخر عُدِّي تعديته مثل: توكلت على الله أي اعتمدت على الله لأن توكلت بمعنى الوكالة تتعدى بعن تقول: توكلت عن فلان في كذا وهكذا في بقية الأفعال والحروف.

﴿وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾

يخيل إليك وأنت تقرأ هذه الآية وكأن صلاة مريم مثل صلاتنا ركوع وسجود بعد القيام، وليس في صلاة اليهود اليوم ركوع ولا سجود فهل كانت صلاتهم مثل صلاتنا فحرفوها وغيروها كما حرفوا وغيروا غيرها أم المقصود بالركوع والسجود في الآية معانيها اللغوية؟ الله أعلم بذلك ولا نحب الخوض فيه بدون برهان بين.

والسجود معناه في اللغة: الخضوع[1] وأما الركوع فمعناه: الانحناء يقال للشيخ: ركع إذا انحنى.

﴿مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾

إن مريم قد أتخذت من دون الناس حجاباً وهي في مكانها الشرقي في محرابها تتعبد وتتبتل إلى الله فما معنى "مع الراكعين"؟ تكلف أبو حيان في تأويل هذا الحرف كثيراً وساق أقوالاً في تفسير صلاة مريم ومجيئها على صورة صلاتنا في الإسلام وأوصلته الأقوال ليذكر أن "مع الراكعين" كانت أمراً لها بصلاة الجماعة ثم قال رحمه الله:"ويحتمل أن يتجوز في "مع" فتكون للموافقة للفعل فقط دون اجتماعٍ أي افعلي كفعلهم" ثم قال رحمه الله:"وجاء مع الراكعين دون الراكعات

(١) مختار الصحاح ص::١٢٥.

لأن هذا الجمع أعم إذ يشمل الرجال والنساء على سبيل التغليب"[١].

وحتى تكتمل صورة التحليل لهذه الآية من حيث المضمون بعد أن سردنا ما أمكننا في تحليل ألفاظها لنسأل هذا السؤال:

ما معنى توجيه هذه الأوامر من الملائكة لمريم مع عدم نبوّتها؟

ألم يكن خطاب الملائكة للإنسان بمثل هذه الأمور اقنتي؛ اسجدي ؛اركعي نوعاً من أنواع الوحي؟ هل يصل غير الأنبياء والمرسلين من أتباعهم إلى أن تخاطبهم ملائكة الله أمرا أو نهيا بما يتوافق مع الدين الذي يتبعوه؟ أحسب أن هذا هو الراجح ولكن سمِّ هذه الأوامر ما شئت أوامر؛ نصائح؛ دلالة على الخير؛ إن المعنى لا يتغير إن الآية تتحدث عن ظاهرة وليس عن احتمال، إنها حقيقة ينطق بها القرآن فما معنى ذلك؟ إن تحليل مثل هذه الظواهر يساهم في إرساء قواعد قد نحتاج إليها ونحن نقرأ عن أخبار سلفنا الصالح ﷺ.

إن الكثير من الناس اليوم إن لم ينكروا مثل هذه الظاهرة يحاولون أن يبتعدوا عنها ولا يسمحون لها أن تتحاور مع عقولهم وقلوبهم إنهم يحاولون إقصاءها عن دائرة تفكيرهم وأنّى لهم والقران الكريم يقرع بها أسماعهم وقلوبهم؟!!.

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾

في هذه الآية التفات في الخطاب إلى حضرة النبي ﷺ

﴿ ذَٰلِكَ ﴾

---

(١) البحر المحيط ج:٣/ص:١٤٨ ــ ١٤٩.

الإشارة إلى ما تقدم من أحداث وأخبار: قصة أم مريم وقصة زكريا وقصة مريم وقد عمد القرآن إلى أن يسرد عليهم من الأحداث والأخبار مالا يعلمه إلا العلماء في دينهم والتي منها ما يتعلق بالجانب الشخصي لصاحب الحدث مثل أسف أم مريم على كون مريم أنثى وعلى دعائها لها ومثل النص على السبب الباعث لزكريا حين دعا ربه بالولد إلى سماع البشرى عن بُعدٍ من الملائكة وهو قائم يصلي ومثل طلبه للآية وعدم قدرته على الكلام ومثل الحديث مع مريم وإخبارها بأن الله اصطفاها وطهرها وميزها على نساء العالمين ومثل تلقيها الأمر بعبادة ربها من الملائكة وهي ليست نبيةَ ولا مرسلة هذه الوقائع والأحداث من أنباء الغيب لا يعلمها كعلمك إلا من كان حاضرا شاهدا على ما جرى.

﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ﴾

من أنباء الغيب وليس كلها إن الباب لا يزال مفتوحاً وقد ذكرنا فيما مضى التفريق بين النبأ والخبر فارجع إليه إن شئت.

﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾

غاب يغيب غيباً والغيب ما غاب عنك سواء كان الغائب يمكن الإطلاع عليه ومشاهدته وذلك ما يسمونه بالغيب النسبي لأن من يشاهده فليس غيباً في حقه ومن لا يشاهده فهو غيب في حقه أو كان الغائب عن الحس لا يمكن مشاهدته كذات الباري ﷻ وكالمعدوم الذي ما يزال في طي العدم وهذا من الغيب الحقيقي، والغيب الذي يتحدث عنه القرآن إنما هو الغيب النسبي لأنه كان مشاهداً لمعاصريه ممن حضر وقوع الأحداث أو لصاحب الحدث على أقل تقدير.

و"أل" في الغيب للجنس أي ذلك الذي ذكرناه لك من أنباء جنس الغيب الذي لا تعرفه ولم تكن مشاهدا له.

﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾

الوحي: الكتاب والإشارة والكتابة والرسالة والإلهام والكلام الخفي وكل ما القيته إلى غيرك يقال: وحى إليه الكلام يحيه وحياً وأوحى إليه: أن يكلمه بكلام يخيفه[١].

نوحيه: أي نوحي الغيب فالضمير يعود إلى الأقرب واستعمال الفعل المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار كأنه يقول لنبيه محمد ﷺ إن هذه سنتنا لا تنقطع ولا تتغير أي أن الإنباء بالغيب سيستمر بدون انقطاع.

ولو كانت الصيغة: ذلك من أنباء الغيب إليك نوحيه، لأقفل باب الإنباء بالغيب سابقاً ولاحقاً ولكن الله أرحم.

وفي كتاب مدارج السالكين في الجزء الثاني من باب الفراسة ينقل ابن القيم عن شيخه ابن تيمية إخباره بخروج التتار في المرة الثانية قبل أن يهمُّوا بالخروج وأنه كان يقسم على أن النصر في هذه المرة للمسلمين على التتار وكان الناس يقولون لشيخ الإسلام قل إن شاء الله فيقول: إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً، يقول ابن القيم رحمه الله فلما أكثرنا عليه قال: والله إن الله قد كتب في اللوح المحفوظ أن النصر في هذه المرة للمسلمين"[٢] فارجع إليه ترى العجب، وليس هذا من باب الرأي الذي يعتريه الصواب والخطأ ولكنه من باب الخبر الذي يعتريه الصدق والكذب ولم يطعن أحد ابن تيمية بالكذب من أعدائه فضلاً عن المعتقدين به.

---

(١) مختار الصحاح ص:٢٩٧.

(٢) مدارج السالكين :ج٢ /ص:٥١٠.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾

إنما جاءت لديهم للدلالة على أن هذا الأمر من خواص عِلية القوم ولهذا لا يمكن أن يسمح بالاطلاع عليه لعامة الناس وذلك لأن "لدى" أخص من "عند" لأن "لدى" لغة في لدن وقد مر بنا الكلام على أخصية "لدن" على "عند" (١).

﴿إِذْ يُلْقُونَ﴾

أي حين عملوا القرعة وكانت قرعتهم أن يلقوا أقلامهم في الماء فما خرج على سطح الماء فالذي اقترعوا عليه لصاحب ذلك القلم،والنص ليس فيه هذا التفصيل أو هذه الصورة لأن مطلق الإلقاء لا يستلزم الطرح في الماء وكذلك معرفة من له القرعة فيمكن أن تكون بأي علامة أخرى والبقاء مع النص في دلالته أسلم من الإنحراف فقد يسيء ولا يحسن والله أعلم.

﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾

كانت مريم بنت زعيمهم على ما يذكر المفسرون ولهذا كانوا يتنافسون على كفالتها.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾

هذه الجملة تفسير للجملة التي قبلها فاختصموا أي طلب كل واحد أن يخصم أي يغلب خصمه عن طريق القرعة فاختصم غير خاصم.

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ

---

(١) انظر ص:٢٢ من هذا الكتاب.

﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾

الجزء الأول من الآية مر تحليله إلى "إن الله يبشرك" فارجع إليه ان شئت[١].

﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ﴾

قال أبو حيان: " تَقَدُّم تكليم الملائكة قبل هذا التبشير بذكر الاصطفاء والتطهير من الله وبالأمر بالعبادة له ﷻ إنما كان على سبيل التأنيس واللطف بمريم عليها السلام ليكون ذلك مقدمة لهذا التبشير بهذا الأمر العجيب الذي لم يجر لامرأة قبلها ولا يجري لامرأة بعدها وهو أن تحمل من غير مس ذكر لها وكان قبل هذا قد جرى لها خارق آخر وهو الرزق من عند الله كل هذا كان تأنيساً لها لاستقبال هذه البشرى"[٢].

وهذه سنة من سنن الله مع الأنبياء والمرسلين ومع عباده الصالحين لا يفجؤهم بأمر يصعب عليهم استقباله إلا بعد أن يقدم بين يدي ذلك إرهاصاً وتأنيساً.

وهل كان استقبال مثل هذا النبأ من قبل مريم بشارةً أم تكليفاً؟ وكيف استقبلت هذا النبأ بشارة؟ وما هذه السكينة الإيمانية التي جعلتها تستقبل مثل هذا الأمر بالسؤال فقط وبهذا الأسلوب الهادئ" رب أنى يكون لي ولد..." كلما تعمقت في تحليل الموقف ازددت معرفة بمكانة مريم أولاً وبما يصنعه الإيمان ثانياً ولنعد مع مريم لنستقبل البشارة.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾

---

(١) أنظر ص:١١٢ من هذا الكتاب.

(٢) انظر البحر المحيط ج ٣ ص: ١٥٢.

الكلمة من الله هو عيسى عليه السلام وإنما سمي كلمة لأنه وجد عن الكلمة كن بدون الأسباب المعتادة وقيل أن الله سماه كلمة لأن الله وعد اليهود به في التوراة والوعد كلمة في عرف الناس حتى أنهم يصفون الذي لا يفي بوعده أنه ليس له كلمة وقيل غير ذلك(١).

﴿ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾

الضمير في "اسمه" عائد إلى المبشر به في قوله "كلمة منه" وإنما أعاد بالتذكير والكلمة لفظها مؤنث باعتبار المعنى.

وأما قوله" المسيح عيسى" فقد أكثر المفسرون في أصل كلمة المسيح وهل هو عبراني مترجم أم حاله حال أسماء الأعلام التي نقلت نصاً بحروفها كيوسف وإسماعيل وغيرهما وهو بحث لا نحب أن نلهو به وليس له مكان في باب التحليل الذي ينتفع به الطالب أو يعود إلى أمته منه بفائدة مع أننا لا نستبعد أن الصفات الشبيهة بالأعلام قد نقلت نصاً.

﴿ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾

لولا هذه الكلمة "ابن مريم" لأمكن لمريم أن تذهب كل مذهب في تأويل ما بُشِّرت به كأن تُعطى طفلاً من أحد الآدميين أو تجده في مكان أو تؤتى به كما في قصة موسى لامرأة فرعون أو كذا أو كذا أو بافتراض خلقه خلقاً جديداً كآدم عليه السلام أو خروجه من أحد أعضائها كما قيل عن حواء عليها السلام،كان باب التوهم أمام مريم واسعاً لو لم تأت هذه الكلمة والكلمة الواحدة وضعت مريم أمام الحقيقة وجهاً لوجه إنه ابنها.

---

(١) انظر البحر المحيط ج ٣ /ص:١٥٢. والتفسير الكبير:ج٣ /ص:٢٢١.

﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾

هذه واحدة من الأخبار التي سيقت لتهدئة مريم والتقليل من مخاوفها من هذا الحدث أولاً على نفسها وثانيا على مصير هذا المولود وسمعته في مجتمعه فكأنه يقول لها: لا تخافي على نفسك وسمعتك ولا على المولود وسمعته إنه سيكون وجيهاً في الدنيا ووجيهاً في الآخرة فلا يأخذ الأسى منك مأخذا.

والوجيه: صاحب الجاه في قومه المحبوب إلى قلوبهم المقبول عندهم الذي يقوم في الناس مقام الوجه من الإنسان(١).

﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾

مقدم على قومه في الدنيا ومقدم عليهم في الآخرة يحتاجونه ولا يحتاجهم في الدارين.

﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾

الذين يخاطبونها هم الملائكة وإنما هم في هذه المخاطبة رسل من الله إليها "ان الله يبشرك" فإذا كان الله هو المُخبر على لسان رسله كان معنى "من المقربين" المقربين من الله أو إلى الله وهذه الجملة الثانية من الجمل التي سيقت من أجل بعث الطمأنينة في نفس مريم، إذن عيسى عليه السلام مُقرّب اسم مفعول، اختصه بهذا التقريب كما اختص من قبله الأنبياء والمرسلين حيث جعلهم مخلَصين ومقرّبين كل هذا باختصاص من الله لهم وليس من فعلهم ولا كسبهم، إن الله قريب من جميع خلقه ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾(٢) ولكن المهم أن تكون أنت قريباً منه إن الله يحب

---

(١) انظر البحر المحيط ج ٣/ص:١٥٤.

(٢) سورة ق: ١٦.

خلقه ويحب لهم ما يسعدهم ولكنهم يهربون منه ويكفيك أنك لا تتقرب إليه إلا تقرب إليك ضعف ما تتقرب وهذا لأن الله تعالى "وله المثل الأعلى" عندما تتقرب إليه شبراً يتقرب إليك مثله فقد تقرب إليك أي صار قريباً منك شبرين عما كنت عليه معه، وكلما غصت في تحليل هذه الكلمة "ومن المقربين" كان بيدك من النور أكثر.

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ﴾

هذه إخبارية ثالثة عن المولود الذي لا يزال في طي العدم وقوله" في المهد" في موضع حال أي حال كونه في المهد والمهد: مقر الصبي في رضاعه تقول: مهدت لنفسي بتخفيف الهاء وتشديدها أي أعددت ووطأت[1].

كانت الجملتان السابقتان تخبر عن مكانة المولود عند الله وعند الناس وهي أخبار يمكن للمعاند أن ينكرها أو يتنكر لها وأما الجملة الثالثة فسوف لن تترك قولاً لمتقول: إن المولود الجديد هو الذي سوف يعلن عن نفسه ويشهد لأمه،وفي هذا شد لعزيمة مريم وانتزاع لعوامل الخوف التي تنتظرها "ويكلم الناس" هو شاهد فعلاً.

﴿وَكَهْلًا﴾

أي يكلم الناس في الحالين؛ يوم يكون في المهد ويوم يكون كهلاً وهذه الحال فيها دعم لمعنوية مريم عليها السلام فابن مريم سوف يعيش إلى أن يصبح كهلاً فالكلمة مع أدائها لحالية الكلام في الكهولة تستلزم بقاءه حياً إلى أن يصل إلى هذه الحال.

---

(١) البحر المحيط ج ٣/ص:١٥٦.

قال أبو حيان:"عطف "ويكلم" وهو حال أيضاً على "وجيهاً" ونظيره قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ [1]"أي وقابضات وكذلك: ويكلم أي ومكلماً". ثم قال:"وأتى في الحال الأول بالإسم "وجيهاً"والحال الثانية بالجار والمجرور"من المقربين" والحال الثالثة جملة فعلية" يكلم" وذلك هو التسلسل الرتبي في كلام العرب إذا ذكروا أحوالاً متعددة أو نعوتاً متعددة مثل قوله تعالى: "وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه"[2] وإنما جاء بالحال الأخير فعلاً مضارعا مع فاعله ليدل على أن الكلام سوف يتجدد كلما دعت الحاجة[3] وهي دلالة لفظية لا يجوز العدول عنها بدون مسوغ.

﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾

أي صالحا من الصالحين وهي الجملة الخبرية الأخيرة في سياق بعث الطمأنينة في نفس مريم، والصالح أن يكون المرء في جميع الأفعال والتروك مواظباً على النهج الأصلح وذلك لأن من يفعل أمراً وغيره خيراً منه مع علمه به وقدرته على فعل الأصلح لا يسمى صالحا[4] فالصالح من فعل الأصلح في الدنيا والدين ظاهراً وباطنا ولهذا ختم الله سبحانه كل مميزات عيسى عليه السلام بقوله" ومن الصالحين" ولن يكون الإنسان صالحا للدنيا وللآخرة إلا إذا بلغ الكمال النسبي

(١) الملك : ١٩.

(٢) غافر :٢٨.

(٣) انظر البحر المحيط ج ٣/ص:١٥٦.

(٤) انظر التفسير الكبير ج٣/ص:٢٢٥ ــ ٢٢٦.

الذي يمكن أن يصل إليه المخلوق والتسمية بالصالحين قد تعطي ذلك فلا يسمي الناس شخصاً أو جماعة بلقب ما لم يتكرر ذلك منهم.

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾

يقف المحلل في مثل هذه النصوص ليتحاور معها إن هيكلية النص وجود حي يمكن للباحث أن يتحاور معه فيلقي عليه ويسمع منه.

قال زكريا بعد البشارة بيحيى" رب أنى يكون لي" وقالت مريم نفس الكلمة مع العلم أن البشارة كانت عن طريق الملائكة نداءً لزكريا ومخاطبة لمريم ونريد أن نسأل: لماذا ترك الإثنان الحديث مع الملائكة وانصرفا عنها وباشرا الحديث مع الله؟ وإذا قلنا أن زكريا نبي ثبت له الوحي فماذا نقول في مريم؟ ثم لما أجاب الحق مريم بعد أن سألته" أنى يكون لي" كيف تلقت الخطاب من الحق: " كذلكِ الله يخلق ما يشاء" ثم لماذا أطال الحق ﷻ الحديث مع مريم:" اذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون" ؟ من كانت تخاطب مريم؟ وكيف سمعت الجواب؟

إن أكثر الناس ولحد الآن يخاف حتى من طرح أسئلة مثل هذه على النص ليتحاور معه، " قالت أنى يكون لي ولد" وزكريا:" أنى يكون لي غلام" من اليسير أن ندرك السر في اختلاف الكلمتين على لسان زكريا ومريم زكريا رجل وطموحه أن ينظر إلى ولده غلاماً يافعاً يزيل عنه وحشة الفناء بعد أن يسجل ابنه له كرامة الخلود أما مريم فإنها لا تفكر بشيء إلا في إمكانية الولادة والمولود ولهذا سألت كيف يكون لها ولد.

﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾

لا نريد أن نقف مع المس فإن ذلك معروف لدى الجميع ولكن نريد أن

نسأل لماذا جاء النص على "بشر" وهل هناك احتمال أن جبريل ﷺ بعد أن تمثل لها بشراً سوياً ونفخ فيها توهمت أن تلك في حكم المساس من جبريل وهذا ما استدعاها القول" ولم يمسسني بشر" على توهم منها أن جبريل مسها بالنفخ؟ أحسب أن هذا احتمال قائم ولا يخدش كرامة مريم عليها السلام مع ما له من تأييد في ظاهر النص ونستطيع القول أن هذا الإحتمال والسعي إلى إحداثه هو وراء مجيء النص على هذه الصورة ولم يأت مثلا "ولم يمسسني أحد" مع العلم أن هذا التعبير هو الأقرب إلى ذهن المرأة وهو الأكثر شمولا في النفي بل هو الأقرب لحالها في خلوتها ولو سلمنا أن نفخ جبريل في مريم وفي فرجها بالذات على اختلاف العلماء في تأويل الفرج ما هو؟ قائم مقام لقاح الرجل لمريم وأن ذلك ممكن فهل نستطيع أن نطمئن إلى تفسير الآية من سورة الرحمن في وصف حور الجنة بأنهن" لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان" أن الجان فعلا لهم القدرة على طمث النساء أو الحور؟ مع العلم أن نفي المضارع بلم فيه رائحة إمكان الوقوع ولو سلمنا بهذا أيضاً فهل يمكن أن نحمل الآية "وشاركهم في الأموال والأولاد" على ما يقرب من هذا التأويل؟

ولو ثبت هذا فهل يجوز أن نحمل عليه الحديث الصحيح في التسمية عند الجماع؟ هذا حوار مع النص لا أكثر أرجو أن يوفق الله علماءنا أن يطرحوا وجهات نظرهم في مثل هذه المسائل فالخوف من الماضي وتقليد الماضيين إن كان يقبل في باب فلن يقبل في تأويل القرآن الكريم وهو مائدة الله المفتوحة للجميع.

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾

في قصة زكريا قال يفعل لأن الأسباب موجودة والناقص هو تشغيلها وإعمالها أما في قصة مريم فالسبب الظاهري ليس موجوداً فالحالة هنا أمام خلق لا فعل.

﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا ﴾

قضى: حكم وقضى الأمر إذا انتهى منه و أتقنه.

﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ﴾

أي يقول للأمر الذي حكمه وانتهى منه و أتقنه.

﴿كُن فَيَكُونُ﴾

تتوجه كلمة كن إلى هذا الأمر بعد إتقانه وإحكامه فيكون أي فيوجد هو لقدرته على امتثال الأمر.

ولفهم هذا المقطع من الآية نذكر ما يأتي: إن لكل موجود ثلاث درجات في الوجود:

أولاً: الوجود الذهني أو قل الخيالي فهذا الوجود سابق على كل الوجودات من حيث الترقي في سلم التحقق الخارجي هذه التسمية بالنسبة للإنسان ويقابلها بالنسبة للخالق جَلَّ الوجود العلمي فإن الله له العلم المحيط بما سيوجد قبل إيجاده.

ثانياً: الوجود الكتابي ولا نقصد بالكتابي هنا الكتابة بالحرف مثل: زيد في دلالتها على مسماها بل نقصد بالوجود الكتابي الصورة المطابقة للصورة الخيالية حرفاً أو هيكلاً.

ثالثاً: الوجود الخارجي وهو الوجود الحسي المدرك بأحد الحواس الخمسة.

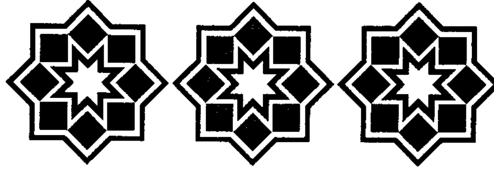
هذه الوجودات الثلاثة كما هي موجودة في علم الإنسان لها وجود في علم الله ولنضرب لذلك مثلاً يوضح كيف تتنزل هذه الوجودات حتى تصبح حقيقة نراها بأعيننا فنقول: إذا أردت أن تنشئ داراً فأول عمل تعمله هو إيجاد الدار في الذهن أو في الخيال فتأخذ ريشتك الخيالية فتصور فيها في داخل النفس كل ما تريد إنشاءه

في هذه الدار من مرافق وطوابق ثم الأبواب والنوافذ ثم البلاط ونوعه ولونه إلى كل ما تريد إقامته على الأرض حقيقة، وإذا اكتملت الصورة الذهنية تأخذ ريشتك الأخرى في يدك لتصور على الورق كل ما تخيلته في ذهنك فإذا أكملت الوجودين متطابقين صورة ما على الورق وصورة ما في ذهنك لم يبق لك إلا أن تباشر المشروع فتوقعه على الأرض كما هو على الورق.

إن الله له المثل الأعلى ﷻ فقد نجد صورة متقاربة في الوجودين الأولين في إنشاء الله وإنشاء الإنسان لابد وأن تكون صورة المعلوم الذي يشاء الله خلقه موجودة في علم الله وقد تكون صورة لهذا المعلوم في الكون لا نعلمها نحن في أم الكتاب أو في اللوح المحفوظ الله أعلم وإن كان هذا الوجود الثاني ليس ضرورياً بالنسبة لله تعالى فلولا مخافة النسيان وصعوبة نقل الصورة الذهنية من شخص لآخر لما احتاج إليها الإنسان، بل يوجد من أهل الصنائع من ينتقل من الوجود الذهني إلى الإيجاد الخارجي بدون المرور بالوجود الكتابي، والفارق الكبير بين الخالق والمخلوق أن المخلوق لا بد أن يمر بمراحل الوجود الواحدة بعد الأخرى ويقيده الزمن والقدرة على الإنشاء، بينما الخالق ﷻ يقول للوجود العلمي كن فيكون خارجاً فالله لا يحتاج إلى أسبابنا ولا التعمل للوجودات بخلاف الإنسان.

وفي الأعم الأغلب لا تجد اسماً لله عدا اسمي"الله والرحمن" ولا صفة ولا فعلاً إلا ويمكن أن تجد نموذجا منه عند الإنسان، وما الإصابة بالعين إلا نموذج من النماذج القديمة للإنسان في نقل المعلوم إلى الواقع وأما اليوم فقد أصبحت مدارس تدرس قوة التخيل على الخلق والإبداع سواء في باب التأثير في الماديات أو في الشفاء من الأمراض إلى غير ذلك من أبواب العلوم الإنسانية، وان شئت الاستئناس لما نقول فاقرأ شروط الطبيب في زاد المعاد لابن قيم الجوزية رحمه الله تر ما

يؤنسك[١] على أن في " فيكون " إشارة لقدرة المعلوم والمتخيل على الكينونة والوجود بالأمر وبذلك نختم قصة مريم لنلتقي بقصة وليدها عيسى عليه السلام.



---

(١) زاد المعاد ص:٧١١.

الفصل الثاني عشر

في قصة عيسى عليه السلام

الفصل الثاني عشر

في قصة عيسى عليه السلام

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٥١﴾ ۞فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ آل عمران: ٤٨ ـ ٥٥.

يعد هذا الفصل من أروع الفصول في القرآن الكريم التي تتحدث عن استعداد الإنسان لتلقي الكرم الإلهي وكثيراً ما نخطئ في التقدير عندما نستعفي البحث في القدرات الممنوحة للإنسان بحجة أن هذه معجزة أو هذه كرامة،إن العطاء الإلهي لا ينزل على فراغ فلو لم يخلق الله ﷻ الإنسان على استعداد خاص يمكنه به أن يتلقى العطاء لما استطاع أن يحمل ما يعطى هذه حقيقة غابت عن أفكارنا كثيراً ورحنا نسرد ما امْتنَّ الله به على عباده الصالحين من أنبياء ومرسلين

وأولياء أحياناً وكأن ذلك لا يعنينا إلا بمقدار ما يثير فينا من إعجاب وتقدير،ونسينا في خضم حياتنا المادية أن علماءنا القدامى كانوا يقولون كل ما جاز أن يكون معجزة لنبي جاز أن يكون كرامة لولي وما كان ذلك منهم إلا أنهم عرفوا الصبغة الإنسانية وما ادخر الله فيها من أسرار، ونسينا أيضاً أن آيات الأنبياء لا تتخطى الممكن لتقع في عالم المستحيل من الناحية العقلية فكل ما ذكره الله من أبواب كرامته لعباده لا يتعدى الممكن إطلاقا.

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾

"ويعلمه" أحسب أن أصح الوجوه التي ذكرها المفسرون في إعراب هذه الجملة الفعلية أنها حال معطوفة على "وجيها" ومثلها قوله تعالى "ورسولاً " وكذا قوله تعالى"ومصدقاً" وهي أحوال سيقت متلاحقة لوضع مريم موضع الطمأنينة وإسبال ثوب السكينة عليها فالموقف صعب والطريق موحشة.

﴿ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾

الحكمة في ترتيب هذه الأربعة على هذا السنن تقتضيه السنة الطبيعية للتعليم نصَّ على هذه الحكمة الامام الرازي في تفسيره فقد فسر "الكتاب "بالكتابة و"الحكمة "بالعلوم وأساليب التربية" و"التوراة" باعتباره الكتاب الذي سبقه و"الإنجيل "لأنه الكتاب المدعو به لبني إسرائيل أن الله ﷻ سينزل إلى واحد منهم[1].ولكن مما يجب التنبيه إليه أن التعليم الإلهي قد يأتي أحياناً وفق هذا التدرج التعليمي ولكنه أحياناً أخرى يتجاوز ذلك قال تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ

(١) التفسير الكبير ج:٣/ ص::٢٢٦.

صَبِيًّا ﴾[1] وآتينا: أعطينا والمعلوم أن التدريج هنا مستبعد وكذلك الحال مع عيسى عليه السلام قال تعالى: ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾[2] إلى آخر الآيات فلا يوجد تدرج في التعليم ولعل مثل يحيى وعيسى في إيتاء العلم إيتاء العبد الصالح "الخضر" عليه السلام قال تعالى: ﴿فوجدا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً﴾[3] وأنت ترى كيف غاير بين التعبيرين فالرحمة من عنده والعلم من لدنه ولدن تدل على ما يخص من نسبت إليه كما مر بنا غير مرة[4].

ويؤيد هذا الفهم ما رواه البخاري: "أن النبي ﷺ رأى رب العزة في المنام في أحسن صورة وفيه :فوضع الحق يده بين كتفي فعلمت ما كان وما يكون"[5] ومن هذا أيضاً عطاء النبي ﷺ لأبي هريرة قوة الحفظ بالحثيات الثلاث وجعل أبا هريرة يضم حجره إلى صدره فقال أبو هريرة رضي الله عنه "فما نسيت حديثاً بعدها سمعته من رسول الله ﷺ "[6].

﴿وَيُعَلِّمُهُ ﴾

جاءت الصيغة ببناء التضعيف لتدل على التعدية والانتقال وعلى الكثرة في العلم الممنوح لعيسى عليه السلام .

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾

---

(١) مريم:١٢.

(٢) مريم:٢٩-٣٠.

(٣) الكهف:٦٥.

(٤) انظر ص:٢٢ من هذا الكتاب.

(٥) قال في زاد المعاد ج٣، ص٥٢: صححه البخاري.

(٦) البخاري ج:١/ ص:٤٠-٤١. بمعناه.

ورسولاً هي الحال السادسة من أحوال عيسى عليه السلام التي بُلغت مريم بها مع البشارة به صلوات الله عليه وسلامه، والرسالة: هي على رأس الهرم في باب الاختصاص الإلهي الذي لا تعمُّل للشخص فيها فالله ﷻ يختص من يشاء من عباده للنبوة وللرسالة وإذا أختص الله عبدا من عباده للرسالة فقد اختصه بأعلى درجة يمكن أن يكون فيها مخلوق.

﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾

في هذه الجملة كان الانعطاف إلى الحديث عن عيسى عليه السلام وعما جرى له مع قومه وكان من حق قصة عيسى أن تبدأ من هذا المقطع.

أنظر إلى أسلوب القرآن في سرد الأحداث ترى أن الجمل السابقة موجهة إلى مريم وهي إخبار عن أحوال ابنها فالحديث معها مباشرة فلما أخبرها أنه سيكون رسولاً من الله إلى بني إسرائيل انعطف ليسمعها قصته وماذا سيقول الرسول لقومه وماذا يقال له إن هذا الإنعطاف يشبه إلَى حد كبير ما نسميه "التحويلة" من شارع إلى شارع آخر "أني قد جئتكم بآية" وهو على جهة الحكاية.

﴿أَنِّي﴾

فيها التأكيد على الذات فليس الرسول ولا الداعية ممن يتوارى عما يفعله ويدعو إليه بل هو في واجهة الركب ليحمل عمن خلفه.

﴿قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ﴾

قد تفيد التحقيق فليس في قلبه شك أو ريب مما هو عليه لأن الذي في نفسه أو قلبه أو أي شيء من مشاعره نقص عن هذا اليقين فيما يدعو إليه فليتنحَّ عن القيادة فليس هذا مكانه.

﴿قَدْ﴾

إنه اليقين المطلق ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾[1] إن لم يكن ما يدعو الداعية إليه يساوي في اليقين هذه الرؤية البصرية فسوف تنكسر عليه دعوته وينكسر عليها.

﴿جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ ﴾

جاء بها وليست منه، إنه جاء بها من ربه لتدلهم على الله ﷻ لا على عيسى ﷺ إن عيسى لا يريدهم لنفسه بل يريدهم لمالكهم ومالكه وهو الله جل شأنه، لا يمكن أن ينظر نبي إلى نفسه إطلاقا إنه أعرف الخلق بمالكه إنه عبد لله كامل في عبوديته لربه لا يتشرف بشيء أكثر من شرفه بكمال عبوديته له ﷻ، وبهذا يكون نجاح الدعوة وبفقدانه يخسر الدعاة ما يدعون إليه ويخسرون أنفسهم.

﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾

فلا يدعوهم إلى شيء يخصه هو فليس ما يدعوهم إليه من نتائج أفكاره ولا من أساليب عبقريته، إن ما يدعوهم إليه هو "ربهم "فلا يقول: من ربي، فلا خصوصية له أبداً فيما يدعو إليه لأنه رسول فقط رسول إليهم. فالعلاقة بينهم وبين ربهم وإنما هو مبلغ بل هو مشمول بهذا التبليغ بل أول من يصل إليه ويعمل به.

﴿بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾

بعلامة تدل على أن ربكم أرسلني إليكم، لا بد لكل رسول من الله إلى الناس من علامة تدل على أنه رسول من الله ولكن كيف تكون العلامة دالة دلالة يقينية لا شبهة فيها؟.

بعد أن اخبر النبي ﷺ أصحابه أنه من قال:"لا إله إلا الله "دخل الجنة وإن زنى وإن سرق، وقال أبو ذر أفأبشر بها يا رسول الله؟ فقال النبي ﷺ "بشر بها

---

(١) النجم:١٢.

"فقال أبو ذر: إذن يكذبني الناس فأعطاه النبي ﷺ نعليه السبتيتين للدلالة على صدقه وكل الناس في زمنه ﷺ يعرفون هاتين النعلين له ﷺ فأخذهما أبو ذر بيديه وراح يبشر الناس فلم يكذبه أحد "ساق هذه الرواية الإمام البخاري في صحيحه[1] ومثل هذا الباب كانت آية عيسى عليه السلام من ربه ﷻ إلى بني إسرائيل إنها علامة معروفة لديهم إنها من خصائص الخالق لا يعطيها إلا لمن أرسله لتدل على أنه أرسله وإلا لمن اتبع دينه الذي بلغه رسله للدلالة على صدق الإتباع ممن اتبع ولهذا كانت هذه الآيات تكثر في الناس بقدر حاجتهم إليها سواء حاجة التابع أو حاجة من يدعوهم هذا التابع الصادق في دعوته.

والناس اليوم بحاجة إلى علامة على صدق من يدعوهم إلى الله ﷻ ليسرعوا في الانتظام للسير على دينه الذي يدعو إليه بعد أن فقدوا تذوق العلامة الأصيلة التي تحدى بها القرآن الكريم،وحتى نعلّم العلامات سنجعل لكل واحدة منها عنواناً خاصاً بها.

العلامة الأولى

نفخ الروح في الصور

قال تعالى: ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا﴾

﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ﴾

الخلق: التقدير يقال خلق الأديم إذا قدره قبل القطع، وبابه نصر[2].

---

(١) البخاري: ج:١، ص: ٤٠- ٤١.

(٢) مختار الصحاح ص:٧٤.

وفيه نسبة الخلق إلى العبد والعجيب أن بعض الناس يقول بعدم جواز نسبة الخلق إلى الإنسان ولا أدري كيف يمنعه إذا كان النص الإلهي بهذه الصراحة في النسبة.

﴿لَكُم﴾

أي وليس لي فإن النبي ليس له نظر إلى حظ نفسه وليس بحاجة إلى آية تدل على إرساليته وهكذا الدعاة إلى الله كان السلف الصالح يستحون من ظهور الكرامة على أيديهم ولكن يسارعون إلى إظهارها إذا كان المدعوون بحاجة إلى رؤيتها كما وقع لخالد بن الوليد عندما شرب السم وكذا ما وقع لأبي مسلم الخولاني عندما ألقي في النار[1].

﴿مِّنَ الطِّينِ﴾

الطين: الوحل أي التراب المخلوط بالماء حتى يكون كالعجين.

﴿كَهَيْـَٔةِ الطَّيْرِ﴾

أي: أقدر لكم شيئاً مثل صورة الطير[2] فالكاف هنا واقعة موقع الاسم ولهذا صح أن يعود الضمير إليها من قوله "فيه".

﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾

أي في الشيء الذي مثل صورة الطير فالضمير يعود إلى الكاف كما مـر بنا قال الله ﷻ عن خلقه لآدم عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[1] فأنت

(١) انظر الفرقان لابن تيمية. مجموع الفتاوى ج:١١/ ص:٢٧٩.

(٢) الكشاف ج:١/ ص:٤٣١.

ترى النفخ من الله في خلق الإنسان والنفخ من جبريل في خلق عيسى عليه السلام ونفخ عيسى في صورة الطير فنتساءل: لماذا التأكيد على وجود السبب في خلق الله؟ وهل وجود السبب ضروري في خلق الله كما هو ضروري في أفعال المخلوقين؟ ثم لماذا التأكيد على النفخ في الصور الثلاث: خلق الله لآدم؛ وخلق عيسى في الرحم؛ وإحياء الصورة الطينية من قبل عيسى عليه السلام؟سوّى الله صورة آدم من صلصال من حمأ مسنون فنفخ فيه فكان آدم وصوَّر عيسى عليه السلام الطين بصورة الطير ونفخ فيه فكان طيرا،صوّر الله وصوّر عيسى ونفخ الله ونفخ عيسى أليس هذا غريبا عن أفكار الناس اليوم؟!.

لم أقرأ لأحد من السلف الماضين من المسلمين ومن غيرهم ممن وقع له ما وقع لعيسى عليه السلام من إحياء صورة الطين على كثرة ما قرأت في كتب المتصوفة وهم المولعون بنقل مثل هذه الأخبار وكلي رجاء وعرفان بالجميل لمن وجد ذلك فأخبرني عنه ودلني على مصدره.

وحول التعامل بالسبب: فاني أحسب أن الإنسان لا يمكنه إطلاقاً الخروج عن عالم الأسباب وكل ما نقرأه عن سلفنا الصالح يندرج في الارتقاء من عالم الأسباب المادية إلى عالم الأسباب الروحية أو الفكرية أو المعنوية أو كما يقول بعضهم: الارتقاء من سبب كثيف إلى سبب لطيف،وأمامك جميع ما وقع للماضين سواء كان من وقع له نبياً مرسلا أو وليا مقربا مما يسمى خرقاً للأسباب فإنك غير واجد حدثاً واحداً خالياً من استعمال سبب وخذ مثلاً: وضع الأصابع في الماء القليل، أو البصاق في البئر وحتى مناداة الشجر كلها كانت تقع بأسباب لطيفة وإلا فما الحاجة إلى الماء القليل، ولماذا البصاق في البئر بل لماذا كان وجود شيء من

---

(١) الحجر:٢٨-٢٩.

الماء في البئر تتوقف عليه الزيادة في الماء؟ وكذلك الأمر في الخلق الإلهي فكلمة كن أو توجه الإرادة أو الإرادة بدون توجه قل ما شئت فلن تخلص من السبب.

وأما كون النفخ هو السبب في بعث الحياة فالنفخ ريح وله مناسبة بالروح لفظاً ومعنى وأنت تعلم أن الحياة لا تتوقف على شيء توقفها على الهواء والله أعلم.

﴿فَيَكُونُ طَيْرًا﴾

هكذا عبر القرآن الكريم: فيكون أي أن الشيء هو الذي يكون لأنه هو الذي استقبل الأمر بكن ومن المعروف ضرورة أن غير القادر على الفعل لا يؤمر به فظاهر النص يدل دلالة واضحة أن المعلوم من حيث انه معلوم له القدرة على التكون وإلا لما صح أمره بكن ولما صح الإخبار عنه بقوله"فيكون" ولم يقل فيكوِّنه ومثال هذا أيضاً توجيه الأمر الإلهي لنار النمرود:﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾[1]، فلو لم يكن في قوة النار أن تكون بردا لما صح أمرها بذلك وكذلك كينونتها سلاماً.

﴿طَيْرًا﴾

الطير اسم جنس يقع على الواحد والكثير وفي قراءة: فيكون طائراً ومحاولة بعض المفسرين تخصيص الطير بالخفاش أو أن الطير كان يطير أمام الحاضرين فإذا غاب عنهم سقط إلى الأرض أو أن الحدث إنما وقع مرة واحدة فقط افتراضات لا يدل عليها النص بل يتعارض مع بعضها فالفعل المضارع "فيكون"

(١) الأنبياء: ٦٩

دال على التجدد وكذلك انفخ والأوضح في الرد هو الفعل أخلق الذي ابتدأ به ذكر الحدث.

﴿فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾

يصح أن يتعلق الجار والمجرور "بإذن الله" بالفعل "فأنفخ" وبالفعل "فيكون" فإذا قلنا يتعلق بأنفخ على التقدير: فأنفخ فيه بإذن الله فيكون طيراً احتمل أن يحتاج إلى الإذن في كل مرة أو أن الإذن عام في كل ما ينفخ فيه من الصور، وأما إذا قلنا إن "بإذن الله" متعلق بـــ"يكون" فتكون الكينونة متوقفة على الإذن من الله أو أنه أعطى عيسى ﷺ امتثال هذه الصور لأمره بالحياة عن طريق النفخ فيها(١)، وأحسب أن هذا هو الأرجح في تفسير النص لأن تعلق الجار والمجرور بالأقرب أولى من تعلقه بالأبعد إذا لم يكن مانع من تعلقه بالأقرب.

العلامة الثانية

في إبراء الأكمه والأبرص

قال تعالى:﴿ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ ﴾

يقال: برأ من الدَّين وبرأ من العيب. بفتح الراء. بمعنى سلم. ويقال: بَرِيءٌ من المرض بكسر الراء من بريء ويقال: برأ الله الناس أي خلقهم(٢).

﴿وَأُبْرِئُ﴾

الفعل برئ فعل لازم تقول برئ زيد فإذا أردت تعديته قلت: أبرأ زيدٌ خالداً وبما أن الأكمة والأبرص ليس في قوتهما أن يبرءا جيء بالفعل على هذه الصيغة.

(١) انظر التفسير الكبير: ج٣ / ص:٢٢٩ .

(٢) مختار الصحاح ص: ٢٦.

لم ينقل لنا القرآن الكريم الطريقة التي كان يبرئ فيها عيسى عليه السلام الأكمة والأبرص كما نقل لنا الطريقة في الطير إلا على بعض وجوه التأويل في صفته بالمسيح وأحسب أن ذلك أمر يختلف باختلاف الأشخاص فقد يُبرِئ الواحدَ بالمسح والآخرَ بالرقية وآخر بالتخيل بل الأغرب من ذلك أن من الناس اليوم من يشفى بوضع يده فوق مكان الألم بدون ملامسة.

كذلك لم يقيد الإبراء بالأذن إلا على وجه ضعيف في تعليق الجار والمجرور بقوله:"وأبرئ" وذلك فيما أكسب إشارة إلى أن قوة الشفاء أو الإبراء كانت ذاتية في عيسى عليه السلام كما هي موجودة في كثير من الناس في هذه الأيام.

﴿ٱلۡأَكۡمَهَ﴾

وهو الذي ولد أعمى. وقيل: هو الممسوح العين. وقيل: هو الذي عمي بعد أن كان بصيراً. وقيل: هو الذي لا يبصر بالليل(١).

﴿وَٱلۡأَبۡرَصَ﴾

البرص: مرض يعتري الجلد فيجعله أبيضَ ويسمى القمر: أبرص: لبياضه(٢).

---

(١) انظر الكشاف: ج١ / ص:٣١ . والتفسير الكبير :ج٣ / ص:٢٢٩.

(٢) البحر المحيط ج ٣ / ص:١٤٥.

العلامة الثالثة

في إحياء الموتى

قال تعالى:﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾

استعمل الفعل المزيد بالهمزة أيضا في هذه العلامة للدلالة على أن الميت ليس في قوته أن يحيى بنفسه.

ونسب الفعل إلى نفسه لأن الله أذن له في الأحياء وهل يحتاج إلى الإذن في كل مرة؟ أو أن الأذن كان عاماً؟ النص يحتمل الوجهين وأحسب أن الراجح منهما هو الثاني لأن النص أو صل الأحياء المتجدد بالموتى ثم أخبر عن الأذن ولو كان المراد الوجه الأول لقال: وأحي بأذن الله الموتى أو وبأذن الله أحي الموتى.

﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾

الموت: ضد الحياة. مات يموت ويمات أيضا فهو ميِّت وميتٌ مشدداً ومخففاً وقوم موتى وأموات وميِّتون وميتون مشددا ومخففاً ويستوي فيه المذكر والمؤنث[١] وقد يفيد ذكر المفعول بصيغة المفرد مل لم يفيده بصيغة الجمع فلو جاء النص :"وأحيي الميّت" لأفاد القدرة على إحياء كل ميت ومن المعلوم أن ذلك ليس مراداً.

﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾

لم يذكر القرآن الكريم طريقة عيسى ﷺ في الإحياء وأحسب أن ذلك عائد لاختلاف الأحوال فقد يحييه بقوله للميت قمِ أو بالنفخ أو بالدعاء أو بوضع اليد عليه أو باسم خاص كما نقل الكلبي أنه كان يحي بـــ "يا حي يا قيوم".

---

(١) مختار الصحاح: ص:٢٦٧ .

وعملية الإحياء ثابتة عن السلف ﷺ ذكر ذلك ابن تيمية رحمه الله في أواخر كتابه الفرقان بين أو لياء الرحمن وأولياء الشيطان فارجع إليه ان شئت[١].

العلامة الرابعة

في الإنباء بالغيب

قال تعالى: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾

جاء الفعل أنبئكم في النص من المضاعف للدلالة على التعدية أو لاً وعلى التكثير ثانياً فإذا أضفت إليه ما يفيده المضارع من التجدد زادت دلالته على الكثرة أي أن عيسى عليه السلام كان هذا الإنباء يقع منه كثيراً كثيراً.

وإسناد الفعل إلى نفسه فيه أيضا أن هذا الأنباء كان في قوته فلا يحتاج إلى إخبار مخبر من ملك وغيره.

وإنما جاءت هذه العلامة آخراً لأن رتبتها في العلامات كذلك ففي كل عصر من عصور المسلمين تحكى مثل هذه الإنباءات ولعل شمس الدين ابن القيم فيما حكاه عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كان يهدف إلى إزالة الغبار الذي يثيره العابثون في طريق المسلمين كلما ذكرت كلمة عن هذا الموضوع[٢].

وأنبه هنا إلى أن ما ذكره ابن القيم عن شيخه ابن تيمية من باب الأخبار التي يعتورها الصدق والكذب ولم يكن الرجلان من الكاذبين.

﴿بِمَا تَأْكُلُونَ﴾

أي في أي مكان سواء كان ما أكلوه في بيوتهم أم لا فالنص عـــام مطلق

---

(١) الفرقان بين أو لياء الرحمن وأولياء الشيطان ضمن الفتاوى :ج١١ / ص:٢٧٥-٢٨١ .

(٢) مدارج السالكين ج:٢/ص: ٥١٠-٥١١.

وذلك لإفادة "ما" العموم ولإفادة الفعل الإطلاق إذ من المعلوم أن دلالة الفعل على الحدث من باب دلالة المطلق، وكذلك يدل النص على أنه كان ينبئهم بأي طعام يأكلونه قليلاً أو كثيراً لأن حذف المفعول فيه دلالة على العموم.

﴿وَمَا تَدَّخِرُونَ﴾

"قرأ الجمهور:" تدّخرون" بدال مشددة وأصله: إذتخر من الذخر فأبدلت التاء دالاً فصار: إذدخر ثم أدغمت الذال في الدال فقيل: إدّخر[1].

﴿وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾

فيه عموم "ما" وإطلاق دلالة الفعل أي كيف يكون هذا الإدخار في صندوق أو جدار أو في داخل الأرض إلا أنه مقيد بقوله "في بيوتكم" فلا يشمل ما يدخرونه خارج بيوتهم، وينبغي أن نعلم هذا العموم وهذا الإطلاق في النص لا يقصد به أن عيسى عليه السلام كان ينبئهم بكل ذلك، بل المقصود أنه كان ينبئهم بكل جنس من أجناس ذلك لأنه ليس من المعقول أن يصرف عيسى عليه السلام جلّ وقته في إنبائيَّة كهذه والله أعلم.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ﴾

الإشارة بقوله "ذلك" إلى العلامات الأربع وإنما جعلها كلها آية للدلالة على أن واحدة منها لا تصلح أن تكون آية أو أنه أراد بقوله "لآية" الجنس[2] وانظر إلى النص كيف بدأ أولا بحرف التوكيد "إن" ثم قدم الجار والمجرور لزيادة التأكيد وأدخل اللام على آية والجملة الإسمية تدل على الثبوت والاستقرار كل هذه

---

(١) البحر المحيط ج:٣/ص:١٦٦.

(٢) انظر التفسير الكبير ج:٣/ ص:٢٢٧. البحر المحيط ج:٣/ص:١٦٧.

التأكيدات استخدمها للدلالة على قوة إنكار اليهود وتعنتهم وهي أيضاً تدلنا على مدى الثقة والطمأنينة التي كان عليهما عيسى عليه السلام فيما يدعو إليه.

﴿لَكُمْ﴾

التخصيص بقوله "لكم" لا يدل على أن هذه العلامات لا تكون آية لغيرهم بل إن المقصود بهذا التخصيص أنهم المقصودون بالدعوة على الخصوص.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

إن هنا مستعملة للتهييج كأنه يصدر لهم كل هذه التأكيدات وهم لا يبالون بذلك فاستخدم أسلوب الشك بإيمانهم ليراجعوا أنفسهم لأن الإيمان بالله يدعوهم أن يقبلوا إليه عليه السلام مذعنين بعد رؤية هذه الآيات، وبهذا ننهي الحديث عن آية عيسى عليه السلام .

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾

﴿وَمُصَدِّقًا﴾

معطوف على محل "بآية" لأن محلها النصب على الحال فيكون المعنى: ورسولاً إلى بني إسرائيل بأني قد جئتكم بآية من ربكم وجئتكم مصدقاً لما بين يدي، وهذا فيما أحسب هو أحسن وجوه الإعراب لهذه الكلمة ولهذا بدأ به أبو حيان[1] والمراد بقوله "ومصدقاً" الاعتراف والإيمان بأن ما بين يديه من الكتب التي أنزلها الله من التوراة وغيرها هي حق وصدق فلا يعقل في جانب الأنبياء والمرسلين إلا هذا فيصدِّق اللاحقُ منهم السابقَ هذا أولا، وثانياً أن اللاحق يصدِّق السابق في كل

(١) البحر المحيط ج:٣/ ص:١٦٧.

ما أخبر به عن ربه ﷻ لأن الأخبار الصادقة عن شيء واحد لا يمكن أن تختلف فيما بينها، أما ما ليس من باب الأخبار بل من باب التشريعات في الأمر والنهي فهذه قد تختلف من رسالة لرسالة ومن أمة لأمة تبعا لتطور الإنسان في الوعي على مر التأريخ.

﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ﴾

ما موصولة وهي تفيد العموم أي لكل ما بين يدي، والمقصود من قوله: بين يدي أي من سبقه من الأنبياء والمرسلين لأن من كان قبلك فهو بين يديك فكأنه أمامك وهذا من مجاز اللغة.

﴿مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾

من بيانية فهي لا تفيد حصر المُبيّن الذي هو ما بين يديه أي فعيسى عليه السلام جاء مصدقاً لكل ما بين يديه من التوراة وغيرها، ولعل غياب معنى البيان هو الذي جعل بعض المفسرين يحاول تعميم النص ظاناً عدم عمومه[١].

﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾

جاء عيسىعليه السلام مصدقاً وجاء ليحل بعض ما كان محرماً فلا يوجد تعارض بين الهدفين[٢]، فلولا ضرورة تغيير التشريع في الحلال والحرام حسب وعي الناس واختلاف أوضاعهم لما كان هناك من داع لإرسال رسول جديد طالما الكتاب السابق لا يزال محفوظاً.

﴿وَلِأُحِلَّ﴾

(١) انظر التفسير الكبير ج:٣/ ص:٢٣٠. البحر المحيط ج:٣ / ص:١٦٧.

(٢) انظر التفسير الكبير ج:٣/ ص:٢٣٠-٢٣١ حيث توهم التعارض.

يعني أن هناك محرماً وقوله: "لكم" أي لبني إسرائيل فإن الخطاب معهم وقد يشمل غيرهم ممن انتسب إلى ديانة موسى عليه السلام من غير بني إسرائيل إن وجد.

﴿بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾

أي لا كله فلم يكن الإنجيل ناسخا لجميع ما في التوراة والبعض يصدق على القليل والكثير وهو ضد الكل فالنص واضح الدلالة في أن عيسى عليه السلام جاء ليحل بعض ما حرم على بني إسرائيل وأكثر الذي أحله عيسى عليه السلام لبني إسرائيل كان قد حرم عليهم عقوبة على بعض أعمالهم.

﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾

أي حال كوني جئتكم بآية يريد عيسى عليه السلام أن يقول لبني إسرائيل: جئتكم مصدقاً لما بين يدي ولأحل لكم... حال كوني معي آية تدل على صدقي في ادعاء الرسالة.

﴿مِّن رَّبِّكُمْ ﴾

فيه تلطف بهم حيث نسب الرب إليهم لا إلى نفسه أي أنه يقول لهم: إن ربكم الذي تؤمنون به هو الذي أرسلني إليكم ولم آت أنا من نفسي، وأحسب أن إعادة هذه الجملة للتأنيب لأن مُدَّعاهم أنهم يؤمنون بالله ويتبعون موسى والتوراة لا من أجل أنه موسى أو أن كتابه التوراة وإنما الطاعة لله رب العالمين.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾

هذه الجملة تؤيد ما ذهبنا إليه وإعادتها كالتوطئة لهذه الجملة.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾

أي اتقوا معصية الله كما تقول: اتق أباك أو اتق المسؤول عنك والمــراد

اتقاء المخالفة لأن العباد لله وكيف يتقون ربهم.وسيدهم إنهم يريدونه ويتمنون النظر إلى وجهه الكريم ويسألون القرب منه دنيا وآخرة.

﴿وَأَطِيعُونِ ﴾

لأني رسول منه إليكم فإذا عصيتموني فقد عصيتم الله لأني لا آمركم بأمر من ذات نفسي بل أنقل لكم أمره ونهيه وذلك هو ما أرسلني به إليكم.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾

الرب: في اللغة هو المالك ورب كل شيء مالكه[1] تقول: رب البيت ورب الدابة ولا تريد إلا المالك،ولا يطلق "رب" على الله إلا مضافاً أو منادى أو محلًىً بالألف واللام.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ ﴾

أي مالكي ومالككم والطاعة والعبادة ليست لموسى بما أنه موسى ولا للتوراة لأنها التوراة وإنما الطاعة لموسى لأنه رسول من المالك وللتوراة لأن المالك أمر بها هي شرعه وللمالك أن يغير شرعه الذي شرعه ويرسل شرعه الجديد مع من يريد من مملوكيه.

﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾

الطاعة مع الشعور بالمملوكية لمن تطيع تسمى عبادة فليس كل طاعة عبادة وإلا لكثر المعبودون،وأحسب أن الشعور بالمملوكية هو واسطة عقد الإيمان لأن الإيمان يتكون من هذه الأركان الثلاثة: الخالقية لله والمالكية لله والألوهية لله

(١) مختار الصحاح ص: ١٠١.

وكل واحدة تستلزم ما بعدها فلأنه خالق كان مالكاً ولأنه مالك كان له الأمر والنهي فهو الإله.

﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾

الإشارة إلى الشأن المفهوم من الجملة التي قبلها وهي:"إن الله ربي وربكم فاعبدوه" أي هذا الأمر والشأن وهو ربوبية الله لي ولكم وعبادة الرب الذي نعترف به جميعاً هذا صراط مستقيم، كما نقول الآن: هذا محل اتفاق فالأمر المتفق عليه بيني وبينكم أن الله هو الرب وهو المعبود فتعالوا نحقق هذا الأمر.

وهذا النداء ينادي به كل نبي ورسول جديد وهو نفسه الذي نادى به محمد رسول الله ﷺ اليهود والنصارى قال تعالى:"تعالوا إلى كلمة سواء.." إلى آخر الآية وسوف يأتي الكلام عليها في هذه السورة.

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾

الإحساس الإدراك ببعض الحواس الخمس يقال: أحسست الشيء وحسست به وتبدل سينه ياء فيقال: حسيت به ذكر هذا أبو حيان(١) وقال في الكشاف:"فلما أحس: فلما علم منهم الكفر علماً لا شبهة فيه كعلم ما يدرك بالحواس"(٢).

﴿مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾

لأن الكفر بالرسول كفر بمن أرسله بعد بيان الدليل أنه رسول ممن أرسله

---

(١) البحر المحيط: ج٣ ص١٧١ .

(٢) الكشاف ج١ ص٤٣٢ .

وادعاء الإيمان بالله مع الكفر بمن يرسله الله كالإيمان بملك أو رئيس مع إنكار القانون الذي يحكم به فهل يقبل أحد من ملوك الدول ورؤسائها بمثل هذا الإيمان ؟

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ﴾

هل ينبغي أن نسأل كيف أحس عيسى عليه السلام الكفر من بني إسرائيل؟ إذا كان يدعوهم ويثبت لهم انه رسول بكل نوع من أنواع الآيات التي جاءهم بها هل هذا العلم يَقِلُّ عن الإحساس حتى نسأل كيف أحس عيسى منهم الكفر؟ إنه الولع بالفضول الذي لا طائل تحته أبداً.

﴿قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾

مَن: اسم استفهام مبتدأ وأنصاري: جمع ناصر مضاف إلى ياء المتكلم و"إلى الله" الجار والمجرور متعلق بأنصار لأنه اسم فاعلين، وكل الرسل والدعاة يقفون هذا الموقف كل رسول يعرض دعوته ويفتش ويسأل عمن يقوم معه بالدعوة إلى الله عرض رسول الله ﷺ نفسه على القبائل العربية في مكة وفي الطائف وفي موسم الحج فهدى الله الأوس والخزرج لأن يكونوا من أنصاره.

من أنصاري؟ في ماذا؟ لم يذكر عيسى عليه السلام ذلك لأن بني إسرائيل كلهم يعلمون أنه عليه السلام مشغول بدعوة الناس إلى ربهم لأن ربهم أرسل إليهم شريعة جديدة معه وهم لا يريدون أن يصدقوه رغم الآية الباهرة التي معه.

من أنصاري في الدعوة إلى الإيمان بالله، النص مكشوف ظاهر ولا أدري لماذا تاه كثير من المفسرين في بيان هذا النص[١]؟!!.

---

(١) انظر البحر المحيط ج:٣/ ص:١٧٣. الكشاف ج:١/ ص:٤٣٢. التفسير الكبير ج:٣/ ص:٢٣٣-٢٣٤.

﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾

وليس إليه هو عليه السلام إنه يسأل عمن يناصره في عودة الناس إلى الله لا إليه ولا إلى موسى لا إلى التوراة ولا إلى الإنجيل المهم أن ترتبط المشاعر بالله وهي تمارس تعاليم دينها واتباع رسولها ولا ينبغي لهم أن يضلوا فيتبعوا الرسول أو الكتاب بمعزل عن الشعور باتباع المالك الحقيقي جل جلاله .

إذا كان الملك واحداً فهل يجوز التمسك بالقانون الملغي حباً بالقانون؟ هل نتبع القانون من أجل الملك؟ أم نتبع الملك من أجل القانون؟هل نحب القانون لأنه جاء من الملك؟ أم نحب الملك لأنه شرع لنا هذا القانون؟ إن تحديد الموقف بين هذين الاتجاهين هو رأس الأمر كله وهذا الفرقان قد غاب عن الكثير من أهل الكتاب فضلوا الطريق ونخشى أن يكون سارياً في بعض الاتجاهات المذهبية والطائفية في الإسلام.

وفي هذا النص رد على الذين يتوهمون أن عيسىعليه السلام لم يرسل للجهاد بل للدعوة فقط أو بما يسمونه الوعظ فالنص الذي أمامنا صريح في طلب النصرة في الدعوة وإذا قام أعداء الدعوة لرد أتباعها وإيذائهم فبماذا تكون النصرة عندئذ؟. ثم يقال إن هؤلاء المناصرين في الدعوة سوف ينهال عليهم الأذى من أعداء الدعوة فماذا يكون موقف هؤلاء المناصرين؟ ألا يدافعون عن أنفسهم؟! يصرح الإنجيل المعترف به عند النصارى بنص قاطع يقول عيسىعليه السلام :"ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً " إلى آخر النص الإنجيلي ، إن كل الرسل يستقون من عين واحدة والجهاد شريعة الدعاة.

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ ...﴾"لو آمنوا لاختلف الموقف وإنما تطلب النصير عند وجود عدو لا قبل ذلك وهي مسألة واضحة وجلية نص

عليها القرآن الكريم ولكن الولع باختلاق الخلاف و التأويل لا يترك أهله[1].

﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾

الحواري: يقال الحواري على خاصة الرجل وعلى شدة البياض لأن الحور هو نقاء بياض العين ويطلق الحواري على القصَّار الذي يبيِّض الثياب والبحث في سبب التسمية ومن هم أو كم كان عددهم ليس فيه غناء في التحليل ولذلك نكتفي بما ذكرناه في بيان الإسم فقط.

﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾

من أنصاري؟ نحن أنصار الله إنهم فهموا تماما أن مناصرة عيسى عليه السلام ليست مناصرة لشخص عيسى عليه السلام وإنما هي مناصرة لله لأن عيسى عليه السلام لا يدعو إلى نفسه فليس ما يدعو إليه فكراً ولا مذهباً انه يدعوا إلى التسليم لله لأن الله أرسله بتشريع جديد، إنهم الحواريون فعلا لا حواريو عيسى عليه السلام فقط إنهم الفئة المخلصة الصافية من كل كدر في توجهها لله رب العالمين عبادة وطاعة.

وإياك أن يُخطِر الشيطان عليه اللعنة في قلبك أن كلامنا فيه غض لمقام الرسل والدعاة إنهم الأدلاء على الطريق ننام ويسهرون ونكل ويجاهدون ونخلد إلى الراحة ويتعبون إنهم يرون ونعلم فأنى لنا بمزاحمتهم؟!! إنا على آثارهم فلن نضل بإذن الله.

﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾

من آمن بشيء ناصر ذلك الشيء لأن إيمانك بشيء يكون جزءاً من شخصيتك فهل أنت قادر على عدم مناصرة نفسك؟!! الإيمان بالله خالقاً ومالكاً وإلهاً

---

(١) انظر البحر المحيط ج:٣/ ص:١٧٣.

لا يدع في نفس المؤمن كسلاً ولا خمولا بل يتحول إلى طاقة يصعب على البعيد عن الإيمان تفسيرها.

﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾

واشهد: من المعلوم أن الشاهد أجنبي عما يشهد له وبه إنهم استسلموا لله لا له ﷺ وعلى من حضر وعلم هذا الاستسلام أن يشهد على ما علم، إن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم شهداء لله على خلقه قال تعالى:﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[1] وقال :﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾[2].

﴿بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾

إسلام الوجه لله خضوع الفكر والقلب خضوع عبد لمالكه هذا هو الدين الذي يحاسب الله الناس عليه وعندما يكون القلب مستسلماً لمالكه فلن يوقفه تبديل الشرائع ولا النقل من دين إلى دين ولا الأخذ عن رسول إلى الأخذ عن رسول آخر، الرسل والشرائع وسائط للتلقي عن مالك الوجود ما يريد وما سمي الرسل رسلاً إلا للتأكيد على هذا المعنى.

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ﴾

ربنا صدقنا بكتابك الذي أنزلته على عيسى ﷺ وهو الإنجيل.

---

(١) البقرة: ١٤٣.

(٢) النساء: ٤١.

﴿وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ﴾

الرسول هو الدليل على مراد الرب من كتابه الذي انزله عليه فإتباع الرسول إتباع للكتاب وإتباع الكتاب إتباع للرب المالك الذي يملك الأمر والنهي وحده على مملوكية.

﴿فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾

﴿فَٱكۡتُبۡنَا﴾: أي فتقبلنا،ومع الشاهدين أي مع الشاهدين من المؤمنين بدليل "لتكونوا شهداء على الناس" فالرسل تشهد على أممها والمؤمنون من كل أمة يشهدون للرسل بالتبليغ وعلى الأمم بالإيمان لمن آمن وبالكفر على من كفر.

﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾

﴿وَمَكَرُواْ﴾

المكر:الاحتيال والخديعة[١] وقيل أصل المكر: من الاجتماع على الأمر وإحكامه ومنه يقال امرأة ممكورة: أي مجتمعة الخلق وإحكام الرأي يقال له الإجماع فلما كان رأيهم رأياً محكماً قويا مصوناً عن جهات النقص والفتور سمي مكراً[٢].

﴿وَمَكَرُواْ﴾

أي بنو إسرائيل الذين أحس منهم عيسى عليه السلام الكفر فالمكر إنما ترتب على كفرهم فلا يصح تفسير كفرهم بإرادة قتله كما توهمه بعضهم،

(١) مختار الصحاح ص:٢٦٣.

(٢) التفسير الكبير: ج:٣/ ص: ٢٣٥ – ٦٣٢.

والمراد بمكرهم: التخطيط لقتله والخلاص من الدين الجديد لتسلم لهم مكانتهم عند قومهم.

﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾

قيل أن نسبة المكر إلى الله إنما جاءت للمشاكلة مثل قوله تعالى:﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾[1] ومثله مقابلة المخادعة بالمخادعة والاستهزاء بالاستهزاء،وقيل: إن معاملة الله معهم كانت شبيهة بالمكر فسميت بذلك.

ورأي ثالث يقول: إن المكر عبارة عن التدبير المحكم الكامل وهو بهذا المعنى يجوز أن ينسب إلى الله، ذكر هذه الأقوال الإمام الرازي رحمه الله[2].

وأحسب أنه يمكن أن يفسر مكر الله على سنته الموضوعة في الخلق كله وهي أنَّ فاعل الشر يدور حوله شره ولعل المثل "من حفر بئراً لأخيه وقع فيه" هو محاولة للتعبير عن هذه السنة ويكفيك أن يوصف صاحب عمل الشر بالشر نفسه، والأكثر من هذا وضوحاً أن المكر الإلهي جعل عمل الماكر يرتد عليه أنظر إلى الكذاب فبعد أن أراد أن يصدقه الناس في غير الواقع جازاه الناس برد قوله حتى في صدقه، وإضافة إلى ذلك ما يتفق عليه الآن الباحثون في علم النفس أن الأفكار الشريرة التي يرسلها الدماغ إلى الآخرين تحيط به أولاً وتؤدي به إلى عواقب سيئة[3]، واقرأ إن شئت قوله تعالى:﴿ وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ ﴾[4]، تر العجب.

---

(١) الشورى: ٤٠.

(٢) التفسير الكبير ج:٣/ ص:٢٣٦.

(٣) حواسك الزائدة في خدمتك ــ هيرولد شيرمان ــ ص:٧٠

(٤) البقرة: ٤١.

﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾

لأنه الأقدر على الإحكام أو لأنه وضع سنة أن دائرة السوء تدور على المسيء.

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ ﴾

إذ ظرفية إما لقوله تعالى" خير الماكرين" وإما لقوله تعالى "ويمكر الله" ذكر ذلك الزمخشري[1] ولكن الأول هو الأرجح ولهذا بدأ به رحمه الله .

﴿يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾

التأكيد بأن ودخولها على ضمير المتكلم وهو الله ﷻ كان لنزع أي عامل من عوامل الخوف التي يمكن أن تنال من نفسية عيسى عليه السلام، فاليهود يتآمرون على قتله والحق يقول له لن يقتلوك بل أنا الذي أتوفاك ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾[2]، هذا قانون إلهي عام في جميع المرسلين فلن يقتل رسول قط.

﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ﴾

متوفيك: أحصى الزمخشري رحمه الله وجوه التأويل في هذه الكلمة فقال:"إني متوفيك: أي مستوفي أجلك ومعناه: إني عاصمك من أن يقتلك الكفار

---

(١) الكشاف :ج١ /ص٤٣٣ .

(٢) المائدة: ٦٧.

ومؤخرك إلى أجل كتبته لك ومميتك حتف أنفك لا قتلاً بأيديهم، وقيل: متوفيك: قابضك من الأرض من توفيت مالي على فلان إذا استوفيته،وقيل: متوفيك أي متوفي نفسك بالنوم من قوله تعالى:" والتي لم تمت في منامها" ورافعك وأنت نائم حتى لا يلحقك خوف تستيقظ وأنت في السماء آمن مقرب[1]".

﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾

الرفع: نقل من سفل إلى علو[2] والواو العاطفة لا تقتضي الترتيب مما أحدث احتمال الرفع قبل الوفاة النهائية قبل استكمال أجله عليه السلام.

والرافع هو الله ولهذا لا ينبغي أن تستشكل عملية الرفع بالقياس على القانون الطبيعي للكون وللإنسان طالما أن الرافع هو خالق الكون وقوانينه والإنسان وأحكامه أمام هذا القانون ومنه "سبحان الذي أسرى بعبده" فلم يسْرِ هوﷺ وإنما أسرى به ﷻ .

﴿إِلَيَّ﴾

قال الزمخشري: إلى سمائي ومقر ملائكتي[3] وقال الرازي: إلى محل كرامتي وجعل ذلك رفعاً إليه للتفخيم والتعظيم ومثله قول الله تعالى عن إبراهيم:﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾[4]، وإنما ذهب إبراهيم ﷺ من العراق إلى الشام وقد يقول السلطان: ارفعوا هذا الأمر إلى القاضي وقد يسمى الحجاج زوار

(١) الكشاف: ج١ /ص:٤٣٢-٤٣٣.

(٢) البحر المحيط ج ٣ /ص١٧٧ .

(٣) الكشاف: ج١ /ص:٤٣٢.

(٤) الصافات: ٩٩.

الله ويسمى المجاورون لمكة جيران الله والمراد من كل ذلك التفخيم والتعظيم فكذا هاهنا أو يكون معنى "ورافعك إليّ" أنه يرفع إلى مكان لا يملك الحكم عليه فيه غير الله(١).

والنص القرآني يتخاطب مع الإنسان وبلغة هذا الإنسان، الإنسان بكل ما هو عليه أو بكل ما فيه من فكر وخيال من وجدان وإحساس من حب وكره من. ومن. ولهذا لا يجوز في أي حال أن نتجه في تفسير المحتوى النصي في القرآن إلى اعتباره يخاطب جهة دون جهة أخرى لقد أسرف المتكلمون في الحديث عن نسبة الرفع إلى الله ففسروا الرفع ما هو؟ ثم السفل والعلو ما هو؟، وجرهم ذلك إلى تفسير المكان والحيز إلى الظرف والمظروف ولو أنهم رحمهم الله إذ بحثوا ذلك جعلوه بحثاً فلسفياً يخص علية القوم من الفلاسفة وممن جرى مجراهم بعيداً عن القرآن الكريم لما عارضهم أحد ولكنهم أصروا أن يكونوا أئمة العقيدة ودعاة الدين فرفضتهم أنفسهم قبل أن يرفضهم الناس وإن كنت في شك من هذا فهات لي بواحد منهم لا يرنو ببصره إلى السماء وهو يريد ربه ﷻ إن الله خاطبنا وتخاطب معنا فكراً وخيالاً فإن كان في باب الفكر قال لنا: "ليس كمثله شيء" فإنه بشرنا برؤيته يوم القدوم عليه في دار ضيافته الجنة، وإنه وصف لنا نزوله وإنزال كتابه وإنزال الملائكة بعيداً عن مفاهيم الفلاسفة في التفريق بين العلو الحقيقي والنسبي وما إلى ذلك.

إن الأنبياء والمرسلين جميعا وهم أعرف الناس بل أعلم الخلق بربهم علمونا أن الله في قبلة المصلي وأن نعبد الله كأننا نراه وأن الله جاء في المنام إلى محمد ﷺ في أحسن صورة كل هذا التعليم يتعامل معه المسلمون فقهاً وعبادة ولا

---

(١) التفسير الكبير ج٣ /ص٢٣٨ .وأنظر البحر المحيط ج ٣/ص١٧٧ .

يبالون في خلاف المتكلمين ولا الفلاسفة إن منطقة الخيال لها حصة في العقيدة لا يجوز إنكارها ولا السطو عليها وأنى لهم ذلك؟!!.

إن الله رفع عيسى عليه السلام إليه وكفى بلا تشبيه ولا تأويل ذلك أسلم لعبادتنا وأحكم لعقيدتنا وأرضى لمشاعر حبنا لله جل جلاله.

﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾

ننزهك من أن ينالوا منك سواء فيما يمكرون من التخطيط لقتلك أو تلويث سمعتك أو القضاء على رسالتك إن الطهر والبقاء لك لا لهم.

﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ﴾

الذين اتبعوه هم أنصاره من الحواريين ومن كان على شاكلتهم إنهم الذين عرفوا الحق لأهله عرفوا الدين أنه إسلام الوجه لله والرسل والكتب تتبدل حسب مشيئة الله ولولا معرفتهم هذه لما سهل عليهم الانتماء إلى دينك وشريعتك وكتابك وترك ما كانوا عليه من ديانة موسى عليه السلام .

ولم يقل فوق الذين كفروا بك أو بشريعتك أو بكتابك الذين اتبعوك فوق الذين كفروا هذا أولاً وثانياً: إن عيسى عليه السلام بشر بنبي يأتي من بعده وبعد مجيء محمد ﷺ لم يستطع الذين كفروا من النصارى على طول أربعة عشر قرناً أن يعارضوا معجزته القرآن الآية الظاهرة على صدق رسالته فمن قامت عليه الحجة في رسالة محمد ﷺ ولم يتبعها لم يكن من الذين اتبعوا عيسى عليه السلام بل هو ممن خالفوا أمره وشريعته وهو من الذين كفروا ،وبهذا الفهم الواضح يكون أتباع محمد ﷺ هم الذين اتبعوا عيسى عليه السلام وبذلك كان المسلمون فوق النصارى على الرغم من ضعف قوتهم المادية.

إن النصارى ولحد اليوم يخشون من فتح حوار بين الأديان أو بين شرائع هذه الأديان إنهم مهزومون في قرارة أنفسهم وإن ارتفعت سطوتهم وملكوا وسائل التدمير.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾

هكذا الأمر هو نفسه إن الله ختم رسالاته بالإسلام، وأنبياءه ورسله بمحمد ﷺ والمالك أعلم بخلقه وشرعه إننا فوقهم منهجاً ورسالة إنسانية ونزاهة حباً ورحمة عدلاً وجهاداً وتلك هي قوائم الحياة لا ما هم عليه من ضد ذلك كله.

﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

إن الله بشر عيسى عليه السلام برفعه إليه وتطهيره من أن يتدنس بمكر أعدائه كما بشر ﷺ بأن الذين يتبعون تعاليمه والتي منها إتباع محمد ﷺ عند بعثته، هؤلاء وأولئك سيكونون فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة وفي يوم القيامة سيعرض الجميع على الله وهم فريقان: الأول: اليهود الذين لم يتبعوا عيسى عليه السلام إلى حين بعثة محمد ﷺ والثاني: اليهود مع النصارى من الذين لم يتبعوا محمداً ﷺ .

﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾

وعد ووعيد بشارة ونذارة مرجع الكل إلى الله لا ظلم اليوم ولا تحريف.

﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

الخطاب يتحدث عن مسألة خاصة وهو موقف الكفر والإيمان بالرسل والاختلاف في ذلك ولهذا جاء النص على الحكم فيما كانوا فيه يختلفون فقط وإن كان الحكم عاماً وشاملاً في ذلك اليوم.

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾

قلنا المقصود بالذين كفروا ليس الذين يكفرون بالله ولا بعموم الأنبياء والمرسلين وإنما المقصود بهم أناس من أتباع موسى عليه السلام يؤمنون بالله وبموسى والتوراة ولكنهم يريدون أن يقفوا في وجه إرسال الرسل من بعد موسى عليه السلام إنهم يريدون أن يتحكموا على الله فلا يرسل بعد رسولهم رسولاً إنهم لا ينتمون إلى اليهودية حباً في الله بل ينتمون إلى الله حباً باليهودية والفارق كبير وكبير جداً بين أن تحب غير الله من أجل الله وبين أن تحب الله من أجل غيره الأول إيمان والثاني كفر الأول ينظر إلى الله أولاً والثاني ينظر إلى الخلق أولاً.

﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾

﴿فَأُعَذِّبُهُمْ ﴾

إنه عذاب مفزع حقاً إنها المواجهة مع الحق نفسه جل جلاله لو وجه هذا التهديد ملك من ملوك الدنيا إلى أحد رعاياه لارتعدت منه الفرائص ولكابد الليل قلقاً وأرقاً فكيف به إذا صدر من ملك الملوك وبصيغة المضارع التي تقتضي التجدد؟.

﴿عَذَابًا شَدِيدًا ﴾

الشدة: القوة وشديد صيغة مبالغة فهو عذاب قوي جداً.

﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ﴾

يكفي من عذاب الدنيا لهم أن الله لا يكلؤهم بل يكفي من العذاب أن يُحْرم

الإنسان من لذة الإستناد في كل شؤونه إلى الله رب العالمين فكيف به إذا سلط عليه أول ما سلط نفسه وأهله كيف به إذا انفرط عليه أمره وصحته وأسباب حياته أنى له السعادة وقد فرغ قلبه من جلال الله.

﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾

صدق ابن عطاء الله السكندري حيث قال:" جل ربنا أن نعامله نقداً فيعاملنا نسيئة"(١).

﴿وَٱلْأَخِرَةِ﴾

وأقل ما فيها الحرمان من لقاء الله والنظر إلى وجهه الكريم وأما أصناف العذاب المعدة للكافرين في جهنم فتقشعر لذكرها الأبدان.

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾

وأنى لهم ثم أنى لهم إذا كان الله هو نفسه المعذب فمن ينصرهم على الله رحماك يا رب.

وبعد هذا التحليل الموجز لهذه الآية نتساءل: هل هذا الخطاب موجه أصالة للذين كفروا؟ أم هو موجه ظاهراً للذين كفروا ولكن المقصود به أهل الإيمان؟ والراجح هو الثاني فإن الذين كفروا لو صدقوا بمثل هذا الخطاب لآمنوا إنه خطاب للذين آمنوا إخباراً وتخويفاً.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾

في الذين كفروا اكتفى بذكر الكفر منهم لأن من كفر فقد بلغ القمة في استحقاق العذاب ولكن "في الذين آمنوا" فلا يستحق الإنسان على مجرد الإيمان

---

(١) الحكم العطائية ص:٣٠

أعلى المراتب من النعيم، الكفر عملية هدم لا تبقي ولا تذر والإيمان بناءٌ بنّاء بحاجة إلى كل الحاجيات والتكميليات ليكون البناء جميلاً والسكن فيه مريحاً وممتعاً.

﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾

تحتمل الألف واللام في الصالحات عدة وجوه: فإن كانت هذه الصالحات معهودة عند من سمع هذا الخطاب كانت عهديه وإن كان مقصود الشارع استيفاء كل أفراد الصالحات دلت على العموم وإن كان المقصود بالصالحات الأعمال المفروضة والتي هي مثل أركان الإسلام كانت الألف واللام دالة على الكمال.

ولا يغيب عن البال أن جمع المؤنث السالم إذا تجرد عن القرائن تكون أفراده أقل من جمع المذكر السالم والإثنان أقل من جمع التكسير.

﴿فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ﴾

أي يعطيهم أجورهم وافية كاملة غير منقوصة فجازاهم مع إحسانه لهم وعليهم وإنما جاء في هذه الآية بالفعل الدال على الغيبة لينزههم عن الحضور في مقام الجلال مع الذين كفروا، ثم هل المملوك يستحق أجراً على مالكه؟ إنه أعطانا وجودنا وصحتنا ووفقنا لفعل الخير وإليه ثم جازانا جزاء الأُجراء بل جزاء الكرماء الحسنة بعشر أمثالها فله الحمد والمنة والثناء والمجد.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

قد يقال أن هذه التعقيبة تليق بالآية السابقة أكثر من موقعها هنا!! فلماذا جاءت هنا؟ ونجيب عن ذلك بما يأتي: إن نفي الحب لا يستلزم الكراهية فلو قيل في الذين كفروا إن الله لا يحبكم لكان لهم متنفس بالخلاص ولتعارض مع إيعادهم بالعذاب الشديد ولكن ذكر التعقيبة هنا فيه نوع من إدلال المؤمنين وأن ما يعطيهم

ربهم كأنه- ولله المثل الأعلى- لا منة له عليهم فإن هذا حقهم ولا يمكن أن يظلمهم حقوقهم لأنه لا يحب الظالمين فكيف يظلمهم هو ﷻ ؟ ولو جاز لنا التعبير لقلنا: إنها مباسطة ومجاملة من حضرة الحق ﷻ لعباده أو كما يسميها علماؤنا السابقون- بالتنزل الإلهي-،إنه يجازيهم بالوفاء الكامل ويقول لهم أنا لا أحب الظالمين نعم الربُّ ربنا.

وبهذا تنتهي قصة عيسى عليه السلام

الفصل الثالث عشر

في الحِجاج بين نبينا محمد ﷺ وبين أهل الكتاب

الفصل الثالث عشر

في الحِجاج بين نبينا محمد ﷺ وبين أهل الكتاب

﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ آل عمران: ٥٨ ـ٦٨.

في هذه الآيات الكريمات يصل الحِجاج بين النبي ﷺ وبين أهل الكتاب ذروته ويقف الفريقان وجهاً لوجه في نظرتهما إلى عيسى وإبراهيم فالنبي ﷺ يعلن أن عيسى عليه السلام عبد من عباد الله اصطفاه الله لنبوته ورسالته بعد أن ختم به الإعجاز في خلق الإنسان فقد خلق الله آدم من غير أب ولا أم وخلق حواء من أب

من غير أم وخلق عيسى من أم من غير أب وكذلك يعلن النبيﷺ أن إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً وهي بديهية لا تحتاج إلى دليل ولا جدل وأهل الكتاب يدعون غير ذلك في عيسى وإبراهيم عليهما السلام.

﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾

اسم إشارة أشار به إلى ما سبق من قصص وأخبار عن عيسى وزكريا ومريم وأمها وهو مبتدأ والفعل "نتلوه" خبره

﴿نَتْلُوهُ﴾

نقول تلا فلان فلاناً في السفر إذا سافر بعده وجاء هذا تلو هذا إذا جاء بعده ،هذا هو المعنى اللغوي للكلمة ١ فيكون المعنى على هذا أن ما سبق من قصص عيسى وزكريا ومريم وأمها نذكره لك بعد أن ذكرنا لك ما قبله من الآيات السابقة ومن الذكر الحكيم

﴿عَلَيْكَ﴾

استعمال على يفيد الاستعلاء فالمتلو عليه صلى الله عليه وسلم فيه من الشدة والثقل من ناحية المُنزَل وليفيد استعلاء المنزِل جل جلاله على المنزل عليه صلى الله عليه وسلم ، هذا مع أنه كان ينزل عليه شيئا تلو شيء

﴿مِنَ الْآيَاتِ﴾

قال في الكشاف خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف "٢ تقديره هو من الآيات ومعنى الآية على قول الزمخشري (خبر بعد خبر) ذلك نتلوه عليك وذلك من الآيات لأن تعدد الخبر على نية تعدد المبتدأ وهذا لا يصح إلا بإخراج نتلو عن

معناها اللغوي إلى معنى الإنزال وهو يذهب بجمالية النص بل بروحه أيضاً فإن في معنى الإنزال شيئاً بعد شيء غير الإنزال المطلق والتأكيد على أن ما ذكره الله من أنباء عيسى وزكريا ومريم وأمها عليهم السلام هو صحيح وهو صدق كما ذكره له من الآيات السابقات ليواجه النصارى بثبات وحزم هو روح هذا النص ويذهب به تأويل الزمخشري رحمه الله ، قال أبو محمد ابن عطية " من لبيان الجنس "٣ ويكون المعنى عليه أن ما ذكرناه لك عن عيسى وزكريا ومريم وأمها من جنس الآيات السابقات التي ذكرناها لك قبل هذه وما ذهب إليه أبو محمد هو الراجح في التأويل فإنه يبقي على جمالية النص وروحه في آن واحد وانتقد أبو حيان ما ذهب إليه أبو محمد ابن عطية بما لا يلزم قال : " إن تقدير من البيانية بالموصول فيكون ما قبلها مساويا لما بعدها كأن يكون المتلو من قصص عيسى ومن قبله هو جميع الآيات "٤ وهذا غير لازم فإذا قلت: اشتريت كيلة من القمح لا يصح أن تقدر بالموصول فيقال: اشترى كيلة التي هي القمح كله وأحسب أن ذلك لا يقول به أحد في كل موضع.

﴿مِنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾

أجاز الزمخشري أن يكون اسم الإشارة "ذلك" بمعنى الذي و "نتلوه" صلته و "من الآيات" خبر المبتدأ "ذلك" فيكون المعنى على هذا التقدير الذي نتلوه عليك من الآيات وهذا وإن أجازه الكوفيون[١] إلا أنه يضعف معنى الآية وقوة دفعها في ميدان الحجاج مع الخصوم وأي فائدة جديدة في الإخبار عن ذلك بأنه من الآيات؟

﴿وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾

---

(١) انظر الكشاف ج:١/ ص:٤٣٣. البحر المحيط ج:٣/ ص:١٨٣.

معطوف على الآيات قال أبو حيان: ومن جعلها للقسم وجواب القسم: "إن مَثَل عيسى" فقد أبعد[١].

﴿وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ﴾

أي أن ذلك المتلو من جنس آيات الله ومن القرآن الكريم فإن القرآن هو الذكر وهو الذكر الحكيم وقيل: الذكر الحكيم اللوح المحفوظ الذي نقلت منه هذه القصص وجميع الكتب[٢].

ويطلق الذكر ويراد به ضد النسيان ويطلق ويراد به الصيت والثناء قال تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ أي ذي الشرف، ويطلق الذكر على ذكر اللسان وعلى ذكر القلب[٣].

﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾

يطلق الحكيم ويراد به العالم ويطلق ويراد به: صاحب الحكمة ويطلق أيضاً على: المتقن للأمور[٤].

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾

أجمع المفسرون على أن هذه الآية نزلت عند حضور وفد نجران على رسول الله ﷺ [٥].

---

(١) البحر المحيط ج:١ /ص:١٨٣.

(٢) التفسير الكبير ج:٣ / ص:٢٤٢.

(٣) مختار الصحاح ج:٣ / ص:٩٩.

(٤) مختار الصحاح ص:٦٩.

(٥) التفسير الكبير ج:٣ / ص:٢٤٢.

وكان من جملة شبههم أن قالوا: يا محمد أنت سلمت أن عيسى لا أب له من البشر فوجب أن يكون أبوه الله تعالى الله عما يقول الظالمون فكان الرد عليهم بآدم فإنه لا أب له ولا أم باتفاق أهل الأديان فلتقولوا: آدم ابن الله!!![1] إن عيسى مثل آدم بل آدم أولى بالنبوة إذا كان ما تزعمون صحيحاً لأنه لا أب له ولا أم إنه قياس بالأولى كما يسميه الأصوليون.

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾

ذهب بعض المفسرين إلى تفسير كلمة "مثل" بالصفة ولهذا يكون تقدير الآية عندهم أن صفة عيسى من حيث التكوين بدون أب كصفة آدم بدون أب ولا أم[2]، وقريب من هذا ما قال الزمخشري" إن شأن عيسى وحاله الغريبة كشأن آدم" وأورد الزمخشري على نفسه إيراداً وهو:" فإن قلت: كيف شبه به وقد وجد هو بغير أب ووجد أدم بغير أب ولا أم ؟ قلت: هو مثيله في أحد الطرفين فلا يمنع اختصاصه دونه بالطرف الآخر من تشبيهه به لأن المماثلة مشاركة في بعض الأوصاف ولأنه شبه به في أنه وجد وجودا خارجا عن العادة المستمرة وهما في ذلك نظيران ولأن الوجود من غير أب وأم أغرب وأخرق للعادة من الوجود من غير أب فشبه الغريب بالأغرب ليكون أقطع للخصم وأحسم لمادة شُبهته إذا نظر فيما هو أغرب مما استغربه"[3]، ولكن أبا محمد بن عطية ذهب للتفريق بين قولنا: هذا مِثل هذا بكسر الميم وسكون الثاء وبين قولنا: مَثَل هذا كمَثَل هذا فإن المَثَل

(١)التفسير الكبير:ج:٣ / ص:٢٤٢.

(٢) نفسه:ج٣ /ص:٢٤٢.

(٣) الكشاف:ج١/ ص:٤٣٣.

عنده يختلف عن المِثل المَثَل بالفتح يعني الصورة الذهنية للشيء فيكون معنى الآية أن ما تتصوره النفوس والعقول من عيسى هو مثل المَثَل الذي تتصوره من آدم إذ أن الناس كلهم مجمعون على أن الله تعالى خلقه بدون فحل يقول رحمه الله وكذلك قوله تعالى:" مَثَل الجنة" عبارة عن المُتَصَوَّر منها" قال رحمه الله:" وفي هذه الآية صحة القياس– يقصد أن فيها دليلاً على صحة القياس– أي إذا تصور أمر آدم قيس عليه جواز أمر عيسى" وبهذا ينحل الإشكال في دخول الكاف على مَثَل قل رحمه الله:"والكاف في"كمَثَل آدم" اسم على ما ذكرناه من المعنى" أي على تقدير الجملة هكذا مَثَل عيسى مِثل مَثَل آدم عليهما السلام وأحسب أن الفارق واضح بين المِثل والمَثَل فإنك عندما تقول هذا مثل هذا تقصد الشبه في الوجود الخارجي وأما إذا قلت: هذا مَثَل هذا على الصورة الذهنية فلا يصح لأنه لا يتصادق في الوجود، الوجود الخارجي مع الوجود الذهني على شيء واحد فيجب أن تقول مَثَل هذا كمَثَل هذا وهنا تقع المشابهة في الصورتين الذهنيتين وهو كلام واضح على الرغم من عدم ظهور هذا الفارق لأبي حيان رحمه الله[1] وقول أبي محمد هو نفسه ما جعله أبو حيان قولاً ثالثاً في تفسير المَثَل حيث قال رحمه الله:" وجعل بعضهم المَثَل هنا من ضرب الأمثال وقال: العرب تضرب الأمثال لبيان ما خفي معناه ودق إيضاحه لمَّا خفي سر ولادة عيسى من غير أب لأنه خالق المعروف ضرب الله المَثَل بآدم الذي استقر في الأذهان وعُلم أنه وُجد من غير أب ولا أم كذلك خلق عيسى عليه السلام بلا أب ولابد من مشاركة معنوية بين من ضُرب به المَثَل وبين من ضُرب له المَثَل من وجه واحد أو من وجوه لا يشترط الإشتراك في سائر الصفات

---

(١) البحر المحيط ج: ٣/ ص:١٨٤ .

والمعنى الذي وقعت فيه المشاركة بين آدم وعيسى عليهما السلام كون كل واحد منهما خلق من غير أب"[١]، فأنت ترى النص على المشاركة المعنوية وهي ذهنية لا خارجية فلله درك بن عطية.

﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾

أي فهذا المثل المضروب إنما هو عند الله" إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم" والصورة العلمية الثابتة في علم الله- ولا يقال الصورة الذهنية لعدم جواز إطلاق ذلك في جناب الله تعالى.

﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾

ذكر الله خلق آدم ونص على جميع المراحل في خلقه فذكر أنه خلقه من تراب ومن ماء ومن طين ومن طين لازب ومن صلصال من حمأ مسنون ومن صلصال كالفخار، وهي جملة تفسيرية لصورة المعلومية عند الله ﷻ.

﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾

جاءت ثم التي تفيد الترتيب مع المهلة لتحكي لنا مراحل خلق آدم وإن شئت أن سمِّها مراحل لتطوره من تراب ثم ماء ثم من الاثنين طيناً ثم طيناً لازباً ثم من حمأ مسنون ثم صوره وببسه فصار كالفخار إنها مراحل تقتضي الزمن من حيث حاجة المخلوق لا من حيث قدرة الله ثم قال للصورة الكاملة "فإذا سويته ونفخت فيه من روحي" كان آدم ولا أب ولا أم، وقد مر بنا شرح تعلق الخطاب بمَن قبل أن يكون المخلوق في الخارج.

---

(١) البحر المحيط ج: ٣/ ص:١٨٤-١٨٥ .

ولعل ما ذهب إليه ابن عطية في تفسير المثل كان حكاية لكون الحق يقول للصورة العلمية كن فتكون خارجاً والله أعلم.

﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾

الحق من ربك: أي هذا الحق أو هو الحق فالحق خبر مبتدأ محذوف يدل عليه السياق وهو تأكيد للدعم المقدم لرسول الله ﷺ أن ما قلناه لك وما نقوله الحق لا غيره وهي صورة لما ينبغي أن يكون عليه الداعية إلى الله من اليقين والثبات وهو ما يحتاج إليه أكثر الدعاة اليوم.

﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾

لا: ناهية و"تكن": فعل مضارع مجزوم بلا الناهية والضمير المستكن في تكن اسمها ومن الممترين الجار والمجرور خبرها والتقدير: فلا تكن ممترياً ،وقد ذكرنا غير مرة أن النهي إنما يصح أن يوجه إلى القادر على القيام بالمنهي عنه فتقول للقادر على القيام وهو غير قائم: لا تقم فإن كان عاجزاً عن القيام فلا يصح أن تقول له لا تقم وكذلك إذا كان الشخص متلبساً بالقيام فلا يقال للقائم لا تقم بل يقال له اقعد أو غير ذلك مما هو غير القيام، وإنما قدمنا هذا لأن بعض المفسرين استظهر من هذا النهي إشكالا فقال: إنه "خطاب في الظاهر مع النبي ﷺ وذلك غير جائز" وأجاب عما استشكله بجوابين: أولهما: أن الخطاب للأمة وإن كان ظاهره مع النبي ﷺ ،وثانيهما: أنه خطاب مع النبي ﷺ والمعنى: فَدُم على يقينك وعلى ما أنت عليه من ترك الإمتراء"(١).

﴿مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾

(١) التفسير الكبير ج:٣ /ص: ٢٤٥. وانظر البحر المحيط ج:٣ /ص: ١٨٧.

الامتراء في الشيء: الشك فيه والمرية: الشك بكسر الميم وقد يُضمُّ، والفعل الثلاثي منه: مَرَوَ يَمرُوُ يقال: مراه حقه: جحده وماراه: جادله[١]، فنقل الفعل إلى باب-افتعل- امترو فصار بقلب الواو ألفاً أمترا وقال الراغب: الامتراء: استخراج الرأي للشك العارض ويجعل عبارة عن الشك ولم يكن ﷺ ممترياً ليكون فيه ذمٌّ مَن شك في عيسى عليه السلام[٢].

وأحسب أن خطاب النبي ﷺ في مثل هذا للدلالة على بقاء البشرية فيه ﷺ وإمكان وقوع ذلك منه ولهذا سمي الأنبياء بالمعصومين.

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ﴾

أي فمن حاجك في عيسى عليه السلام وادعى فيه غير ما علمناك عنه مع وضوح الحجة فيه وإزالة الشبهة التي ضلوا طريق الإسلام لله بسببها فلا تشغل نفسك بحجاجهم فليس بأيديهم حجة تدعوك مسؤولية الدعوة إلى الله العمل على إبطالها وليس في أنفسهم شك هم بحاجة إلى كشفه وبيانه إن الطريق واضحة وهم كفروا بالوحدانية مع استيقانهم بها ويقينهم بأن قائدهم العناد في الرأي والاعتزاز بالشرك إنهم مع نفوسهم ومطامعهم إنهم مع أحقادهم وحسدهم ولهذا لا ينفع معهم إلا معارضة هذه النفوس بما تحب بوضع أنفسهم وأبنائهم ونسائهم أمام خطر جديّ إذن إنه التحدي لتعريض النفوس والأبناء والنساء للهلاك للّعنة توضع على من هو

(١) مختار الصحاح ص:٢٦٠.
(٢) البحر المحيط ج: ٣/ص: ١٨٧ .

كاذب من الفريقين أنا ومن آمن معي وأنتم ومن أصر على كلمة الشرك معكم،فلو كان النصارى لهم في أنفسهم بعض يقين أو شبه يقين لأقبلوا مزهوّين بالفخر وهم يطمعون بالنصر وأنّى لهم.

إن قانون المباهلة باق إلى يوم القيامة يقبل العمل به معهم كل دعاة الإسلام وحماته من أي لسان كانوا وأي لون أرادوا إنا نتحداهم دائماً وأبداً أن ندعو أبناءنا وأبناءهم ونساءنا ونساءهم وأنفسنا وأنفسهم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين في عيسى عليه السلام نحن نقول أنه بشر وهم يقولون أنه ابن الله.

﴿حَآجَّكَ ﴾

أصلها حاججك من باب المفاعلة أي أنت تعرض حجتك وهو يعرض حجته.

﴿فِيهِ ﴾

أي في عيسى عليه السلام أي في أنه عبد من عباد الله جل شأنه.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ ﴾

أي من الأدلة الواضحة التي لم تدع شيئا من شك في نفوسهم.

﴿فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ ﴾

تعالَوا: قرأ الجمهور بفتح اللام لأن أصل الكلمة: علَو يعلُوُ فإذا نقلتها إلى باب تفاعل قلت: تعالَو فإذا جعلتها للجمع قلت: تعالَوُوا فإذا صغت منه فعل الأمر حذفت واو الفعل فبقيت تعالَوا لأن الواو الأولى تحذف في الجزم مثل لم يتعالَوا وفي الأمر كذلك ومن قرأ بضم اللام خرج عن الأصل في الكلمة وعن القياس

أيضاً لأن المعتل الآخر من الأفعال يحذف منه حرف العلة في النهي وفي الأمر كما ذكرنا[1].

وتعالوا: معناها المجيء إلى مكانٍ عالٍ ولا يدعى إلى التعالي إلا من كان في سُفلٍ إلا أن كثرة الاستعمال لهذه الكلمة بمطلق المجيء صارت تستعمل بمعنى هلمَّ أو أقبل قال في الكشاف:("تعالوا" هلموا والمراد المجيء بالرأي والعزم كما تقول تعال نفكر في هذه المسألة)[2] وأحسب في التعبير بتعالوا إشارة لسفالتهم.

﴿تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ﴾

أي تعالوا أيها النصارى ندع نحن وإياكم أبناءنا وأبناءكم والمقصود أن النبي ﷺ ومن حضر معه من المسلمين في ذلك المجلس ويقابلهم في الطرف الآخر وفد نجران ، ولو أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يخص نفسه لقال : تعالوا ندع أبنائي وأبناءكم إلى آخر من يدعون أحسب أن النص ظاهر في هذا المعنى ولو جيء برجل يعرف العربية ولم يطلع على ما يقوله المفسرون لم يفهم إلا هذا المعنى.

ثم إذا حملنا النص على النبيﷺ وخاصته كما يقال، ألا يضع شبهة في نفوس النصارى أن العرب الذين معه على الإسلام لم يطمئنوا على صدق مقالته ﷺ وإلا لأشركهم في الدعوة، ثم كيف يوافق وفد نجران أن يقفوا كلهم وأبناءهم ونساءهم وهم مجاميع كبيرة ليراهنوا على أنفسهم مع من ينظرون إليه ﷺ بالعداوة ولا يحضر إلا هو وعلي رضي الله عنه وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم أيكون هذا رهان عادل؟

---

(١) انظر البحر المحيط ج:٣/ص: ١٨٨.

(٢) الكشاف ج:١/ ص: ٤٣٣-٤٣٤.

يقف مجموع يزيد على المائة يستمطر اللعنة على رهان؛ كذب أو صدق لهذا الخبر مع عدد لا يتجاوز خمسة أشخاص؟!! وأيم الله لو كان الأمر كذلك لكان بيدهم الحق في رفض هذه المباهلة ولكنها النزعة المذهبية والطائفية التي تدفع بالإنسان إلى نسيان الهدف الأصيل للرسالة ولوحدانية الله ﷻ، اللهم كما أنك خالقنا ومالكنا فوجه قلوبنا إليك وأنسنا الانتماء إلى غيرك واحفظنا لك يا رب العالمين.

﴿وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾

أي أنفس المسلمين من الذين حضروا المناقشة مع وفد نجران وأنفس النصارى من الذين حضروا في الوفد هذا ما نفهمه ويفهمه معنا كل من لم تكن له أفكار يريد أن يلبسها بلباس النص، ولا شك أن هذا شأنه وهو المسؤول أمام الله عنه.

﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾

لم تستعمل هذه الكلمة "نبتهل" ولا شيء من مشتقاتها في القرآن الكريم إلا في هذا الموضع فقط فهي الكلمة اليتيمة في القرآن الكريم وهي تحتمل وجهين:

الأول: "نبتهل" بمعنى نجتهد في الدعاء لأن الابتهال من باب الافتعال فيدل على الاجتهاد في الشيء مثل الاكتساب.

الثاني: أن تكون "نبتهل" مأخوذة من قولهم: بهله الله أي لعنه فنبتهل على هذا المعنى بمعنى نتباهل مثل نقتتل بمعنى نتقاتل، والمباهلة بهذا المعنى أن يقول كل طرف:عليه بهلة الله إن كان كذا.

رجَّح القول بالوجه الأول الإمام الرازي قائلا: والقول الأول أولى لأنه يكون قوله "ثم نبتهل" أي ثم نجتهد في الدعاء ونجعل اللعنة على الكاذب وعلى الوجه الثاني يصير التقدير: ثم نبتهل أي أي ثم نلتعن "فنجعل لعنة الله على الكاذبين

وهي تكرار[١]، وذهب في الكشاف إلى الثاني وبدأ به[٢] وأحسب أنه الراجح من الوجهين والتكرار الذي توهمه الرازي غير مانع لأنه تكرار يقتضيه التباهل من الجانبين فإذا قال لهم: ثم نتلاعن فنجعل اللعنة على الكاذبين لا يعد ذكر اللعنة بعد التلاعن معيباً بل هو الذي يقتضيه السياق.

﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ﴾

ترى أن القرآن يجعل الكلمة التي نقولها واقعة كما قلناها وقد نبهنا على ذلك في الكلام على تحليل قول أم مريم "أعيذها" ولم تقل: اللهم أعذها وكذلك هنا: فلا يقال: اللهم العن الكاذبين ليكون طلباً يتردَّد بين القبول والرد بل تأتي الجملة بصيغة الخبر كأن يقولوا: لعنة الله على الكاذبين وفي ذلك دلالة على أنَّ الله يكون معنا على ما نكون عليه ويدلك على ذلك: أنك لا تقول في الاستعاذة: اللهم أعذني من الشيطان بل تقول: أعوذ بالله من الشيطان فإذا اتخذت الله ملاذاً ومعاذاً فقد كان.

وإذا تأملت النص القرآني وجدته قد أغفل الكلام عن نتيجة هذا العرض فلم يحك لنا عن النصارى هل قبلوا التحدي فابتهلوا أم خافوا على أنفسهم فأبقوا عليها، إن الله ﷻ يريد أن يبقى النص حياً مفتوحاً أمام الدعاة إلى الله وبذلك كفل القرآن الكريم للنص البقاء في حلبة الصراع إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولهذا السبب اخترت التخفيف من كلام طويل ذكره المفسرون في ما لا طائل تحته في تفسير النص من حيث بيان النتيجة.

---

(١) التفسير الكبير ج:٣ / ص: ٢٤٨-٢٤٩.

(٢) الكشاف ج:١/ ص:٤٣٤.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

الإشارة إلى ما قص الله ﷻ عن عيسى وغيره من القصص وأعيد التأكيد على أحقية ما ذكره في قصة عيسى وأمه وغيرهما ليدعم الثقة في نفوس الدعاة وهم يرون وفداً من علماء النصارى يصرون على مقالتهم في عيسى وأنه ابن الله أو أن الألوهية حلت فيه،كما أن النص القرآني كما يصارع النصارى في فريتهم في الغلو في عيسى عليه السلام يصارع في نفس الوقت اليهود الذين يحُطون من قدر عيسى عليه السلام فهو برزخ بين الجهتين أو وسط بفتح السين يقول للنصارى لا تغلوا ولليهود لا تسفلوا بعيسى عليه السلام.

﴿هَٰذَا﴾

اسم إن و"هو": ضمير فصل "القصص": خبر إن ويجوز أن يكون "هو" مبتدأ و"القصص" خبره والجملة خبر "إن"، وهذه الوجوه الإعرابية لا تعطي مذاقاً تحليلياً إلا في مسألة هامشية وهي إن اعتبار الخبر جملة أقوى منه مفرداً وأن اللام في "لهو" تفيد زيادة تأكيد إن هذا القصص هو الحق لا غيره ومن أجل هذين الوجهين ذكرنا وجهي الإعراب.

﴿ٱلْقَصَصُ﴾

مصدر من قصَّ تقول: قص يقص قصًّا وقصصاً بالإدغام والفك ويجوز أن يكون القصص بمعنى: المقصوص كالقبض بمعنى: المقبوض[1] والأكل بمعنى المأكول.

---

(١) البحر المحيط ج:٣ / ص:١٩٢.

وقال الرازي :أصل القصص" اتباع الأثر يقال: خرج فلان قصصاً في أثر فلان وقصاً وذلك إذا اقتصَّ أثره ومنه قوله تعالى في سورة القصص:﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾[1] أي اتبعي أثره وقيل للقاص إنه قاص: لإتْباعه خبراً بعد خبر وسوقه الكلام سوقاً فمعنى القصص: الخبر المشتمل على المعاني المتتابعة"[2].

﴿ٱلْحَقُّ﴾

حقَّ يحِقُّ بكسر الحاء حقاً أي وجب وثبت وتحقَّق عنده الخبر: صح[3].

والصدق: ضد الكذب، وقد صدق في الحديث يصدق صدقاً[4].

إذن فلنا أن نسأل: هل يوجد فارق بين قولنا: هذا القصص الحق وهذا القصص الصدق أو الصادق؟

فالأمر الواقع في الخارج مثل حياة زيد يقال عنه حق لأنه موجود ثابت والإخبار عن حياة زيد بالكلام أو بغيره يسمى صدقاً ولا يسمى حقاً لأن كلامه متصادق مع الواقع الخارجي، ولا يقال للكلام حقاً لاحتماله الصدق والكذب في آن واحد فإذا تحققنا من الخبر كأن ذهبنا إلى زيد فوجدناه حياً نقول صح الخبر بحياة زيد، وإذا عرفنا هذا فلنعد إلى الآية.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾

الإشارة إلى ما أخبرنا الله عنه فهل يريد الحق ﷻ أن يقول لنـــا: إن مـــا

---

(١) القصص: ١١.

(٢) التفسير الكبير ج:٣ / ص:٢٥٠.

(٣) مختار الصحاح ص:٦٨.

(٤) سورة ص:١٥٤.

أخبرتكم به حق باعتبار مطابقته للواقع؟ أو يريد أن يقول لنا: أن كلامي عما أخبرتكم به كان صادقاً ليس فيه احتمال للكذب؟

من الواضح أن الثاني لم يكن ليخطر ببال مسلم فضلاً عن محمدﷺ إذا كان لا مناص من اعتبار "الحق" صفة للقصص فالراجح أن تكون كلمة القصص المراد بها المقصوص وليس القص بمعنى الفعل الذي هو الكلام لأنه عند ذلك أي لو أراد الكلام لكان يقول: إن هذا لهو القصص الصدق هذا ما بدا لي في تحليل هذه الكلمة والله أعلم بمراده من كلامه.

﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾

﴿ما﴾

نافية وهـي في النفي فرع عن لا النافية فإن لا النافية هم أم الباب فـي النفي ولهذا يكون النفي بلا أقوى منه بما ويدلك على ذلك أن العرب في لسانها أجازت النصب في الاسم الواقع بعد ما ولم تجزه في الواقع بعد لا فيصح عربية أن نقرأ وما من إله إلا الله بالفتح على الاستثناء ولكن لم ترد قراءة بذلك(١)، والفتح أمارة الضعف ويدلك على ذلك أيضاً شيوع مجيء من التي لبيان الاستغراق في الجنس ولو كانت ما مفيدة هذا الاستغراق في نفي ما بعدها لما كان من داع إلى استخدام من، كيف وأنت ترى أن جواز نصب الجلالة وارد مع مجيء مِن؟ وعلى هذا كانت لا إله إلا الله أبلغ في النفي من ما من إله إلا الله(٢)، ولهذا أيضاً كانت كلمة الوحدانية التي يدخل بها الإنسان الإسلام إنما هي: لا إله إلا الله وذلك: لأن لا

(١) البحر المحيط ج:٣ / ص:١٩٢.

(٢) انظر التفسير الكبير ج:٣ / ص: ٢٥٠-٢٥١ حيث عكس المسألة ولهذا نبهنا عليها.

إذا انتصب الاسم بعدها دلت على نفي الحقيقة نفياً مطلقاً بحيث لا تدع مجالاً لتوهم أن فرداً من أفراد المنفي لم يدخل في النفي فإذا استثنيت واحداً من هذه الأفراد بقي النفي شاملاً لغيره من أفراد المنفي، وأحسب أن التعبير في هذه الآية بصيغة "ما من إله إلا الله" لأنه في مقابلة خصوم يقولون بوجود إله في عيسى عليه السلام فلو قال هنا: لا إله إلا الله لكان فيه مصادرة لآرائهم وفي ذلك قطع سبيل الدعوة بينه وبينهم فهو تنزل من أجل كسب الخصم إلى الحق فيما أحسب.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

الكلام في إعراب هذه الجملة كالكلام فيما قبلها فلا نعيده.

﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

قال أبو حيان: إشارة إلى وصفي الإلهية وهما: القدرة الناشئة عن الغلبة فلا يمتنع عليه شيء والعلم المعبر عنه بالحكمة فيما صنع والإتقان لما اخترع فلا يخفى عليه شيء وهاتان الصفتان منفيتان عن عيسى عليه السلام [(١)].

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾

يصح أن يكون الفعل "تولّوا" ماضياً ومضارعاً حذفت تاؤه[(٢)] وتولوا عن ماذا؟ لم يذكر النص ذلك وهو مفهوم من قرينة السياق أي تولوا عن الإقرار بالوحدانية لله. قال الزمخشري: فإن تولوا عن التوحيد[(٣)] وهو تعبير بعيد عن

(١) البحر المحيط ج:٣ / ص: ١٩٢.

(٢) المصدر نفسه ج:٣/ ص:١٩٢.

(٣) الكشاف ج:١/ ص:١٣٥.

السلامة ديناً ولغةً فإنك لن تجد كلمة التوحيد جارية على لسان الشارع لا في كتاب ولا في سنة ثم هو خروج عن استعمال اللغة إلا بتكلف التأويل فإن التوحيد تفعيل أي جعل ما ليس بواحد واحداً بإزالة غيره وذلك لا يصح في جانب الحق فإنه الواحد الأحد فلا تقول بالتوحيد إلا مع افتراض وجود الشريك ولا وجود له أصلاً فقل بوحدانية الله لا بتوحيده.

الفارق بين ولّوا وتولّوا أن الإخبار عنهم بأنهم ولّوا يدل على مطلق الانصراف لأن دلالة الفعل المجرد إنما هي على أصل الحدث وأما تولوا فهي على الحركة والتجدد في دلالتها على الحدث لأن نقل الفعل من فَعَلَ إلى فَعَّل فيه زيادة وبنقله إلى تفعّل فيه زيادة أخرى فالتولي في الآية وإن كان الراجح فيه أنه ماضٍ وليس مضارعاً إلا أنّ في التعبير بتفعّل لذهابهم وعدم سماعهم لما يقال لهم من الحجة مزيد بيان عن حالهم.

وكان الظاهر أن يكون جواب الشرط في هذا التعبير: فإن تولّوا فهم مفسدون ولكن القرآن لا يريد أن يفزعهم إنه كلام الله والله أرحم بعباده من أنفسهم إنه يريد أن يبقي لهم شيئاً لعلهم يُسْلموا وجوههم لله ويقروا بوحدانيته ﷻ ولهذا عدل عن القول: فهُم مفسدون إلى " فإن الله عليم بالمفسدين" كأنه يقول لهم صلى الله عليه وسلم من هم نحن أم أنتم؟! وهذه قضية يؤمنون بها وإذا فهمت هذا فلا داعي لتأويل العلم بالعقاب كما ذهب إليه أبو حيان(١) وإلى ما ذهبنا إليه ألمح الزمخشري حيث قال:" فإن الله عليم بالمفسدين" وعيدٌ لهم بالعذاب المذكور في قوله

---

(١) البحر المحيط ج:٣ / ص:١٩٣.

تعالـــى:﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ [1]﴾[2] وفي هذا الأسلوب في محاورة الخصوم زاد للدعاة وأي زاد.

﴿المفسدين﴾

من هم المفسدون ألا ترى أن أكثر الطغاة في العالم يغضب لو قلت له أنت مفسد؟ ألا ترى أن أكثر الدول إغراقا في الإنحراف عن الفضائل لا يرضيها الوصف بالفساد؟ هل الفساد حقيقة نسبية يصح الاختلاف فيها أو عليها؟ عشرات الأسئلة يمكن أن تطرح للتفتيش عن أجوبة.

من هم المفسدون؟ يمكن أن يُصنَّف الفساد من حيث النظر إلى الإنسان إلى فساد فكري وفساد نفسي ويمكن للباحث أن يصل إلى نتيجة مفادها أن الإنسان إذا كان صحيح الفكر والنفس فلا يمكن توصيفه بالفساد لأن الفساد علة تعود أسبابها إما إلى فكر الإنسان وإما إلى شخصيته النفسية وآيات القرآن وهي تؤشر إلى المفسدين لا تخرج عن هذين الميدانين فيما أحسب.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾

في هذه الآية الكريمة شدد القرآن الكريم الخناق على الذين اختصهم الله برسالته وأنزل عليهم كتبه وكلماته فبعد أن ضايقهم من الناحية النفسية في الابتهال إلى الله وإنزال اللعنة على الكاذب من أي الفريقين كان وبدون تخصيص وظهر

---

(١) النحل: ٨٨.

(٢) الكشاف ج:١ / ص:٤٣٥.

ترددهم ونكسوا على أقدامهم وكانوا بين إحدى الفضيحتين إما نزول اللعنة عليهم وعلى أبنائهم ونسائهم وإما فضيحة المكابرة والعناد وانكشاف أمرهم أمام تابعيهم بل ظهورهم بالضعف والخور أمام أبنائهم ونسائهم.بعد هذه المضايقة النفسية شدد عليهم الخناق في التوقيع على البنود المتفق عليها في كل الكتب الإلهية والتي اتفقت عليها جميع الأنبياء والمرسلين فكانوا أمام خيارين لا ثالث لهما: إما التصديق عليها فتبطل دعوى النبوّة لعيسى عليه السلام وحلول الألوهية فيه وما شاكل ذلك من الإنحراف في الفكر والعقيدة وإما أن تنزل عليهم لعنة الله بدون ابتهال بل بالرفض لكلمات الله وآياته.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾

تسميتهم بأهل الكتاب في مثل هذا الخطاب الذي يدعوهم فيه إلى إبرام الاتفاق على العناصر المشتركة في كل الديانات هذه التسمية من باب التذكير لهم بأن الله اختصهم بكتبه فلا يليق بهم أن يتنكروا لعناصر الإيمان بالله.

"أهل الكتاب"

يقول لهم أنتم أهله فكيف تكفرون بما يأمركم به أوّلاً توافقون من تزعمون أنهم ليسوا أهل كتاب إذا كانوا هم يدعونكم إلى الاتفاق على ما ينص عليه كتابكم؟ إنه إحراج شديد فعلاً.

وأهل الكتاب هم أهل الكتابين من اليهود والنصارى فالمراد بأهل الكتاب في كل آيات القرآن الكريم أهل التوراة من يهود وأهل الإنجيل من النصارى، وأما الكتب الأخرى فلم يبق منها شيء يثبته النقل أو يصدقه العقل إلا ما تناثر هنا وهناك من تعاليم مطموسة وتقاليد منكوسة يتعلق بها بعض فئام الناس لا يمثلون أمة ولا ينتهون إلى دين ثابت.

﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾

كلمة: تطلق على ما يقابل الكلام ويراد بها الكلمة الواحدة مثل الاسم أو الفعل أو الحرف وتطلق ويراد بها الكلام في مسألة معينة، فيقال للمقالة التي تتحدث عن أمر واحد كلمة والمراد في الآية المعنى الثاني لا الأول كما هو واضح.

﴿سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾

أي مستوية بيننا وبينكم لا يختلف فيها القرآن والتوراة والإنجيل ولا تعجب من ذلك فإن في الإنجيل الموجود إلى الآن في أيدي النصارى والمعترف به من رجال الكنيسة بالاتفاق أنهم أمروا بعبادة الإله الواحد.

﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾

هذا هو البند الأول ، العبد ضد الحر تقول عبدٌ بيِّن العبودة والعبودية وأصل العبودية الخضوع والذل والتعبيد: التذليل يقال : طريق معبَّد والتعبيد أيضاً الاستعباد وهو اتخاذ الشخص عبداً وكذا الاعتباد ، والعبادة: الطاعة، والتعبد التنسك[١].

أي أن لا نطيع إلا الله وذلك لأن الطاعة عبادة والعبادة طاعة يقال: فلان طوع يديه أي منقاد له[٢]، ويُفهم من هذا أن الانقياد لغير الله هو عبادة لغير الله ولا تسمى الطاعة انقياداً إلا إذا ألقيت مقادك إلى غيرك يقودك حيث يشاء هو لا أنت

(١) مختار الصحاح ص:١٧٥.

(٢) المصدر نفسه.

أي لم يعد لك خيار هذه هي العبادة حقاً وذلك لأن الانقياد هو الخضوع يقال: قاده فانقاد والمِقْوَد: الحبل يشد في الزمام أو في اللجام تقاد به الدابة[1].

﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾

وهو البند الثاني: يقال: شرك زيد عمرا في البيع وفي الميراث يَشْرَكُه مثل علمه يعلمه إذا صار شريكا في بيعه وميراثه ويقال: هذا شِرْك فلان أي حصته أو نصيبه من المال المشترك أرضاً أو عقاراً أو غير ذلك،وتقول من الرباعي: أشركت زيداً في مالي إذا جعلته شريكا لك في مالك فأصبحتما شركاء بهذا المال لكل واحد منكما حق التصرف به لأن له شِرْكٌ به[2].

أي: ولا نجعل شيئاً شريكا بعبادتنا لله مع الله فالجملة الأولى نفت أن نعبد غير الله ولكنها لم تنصَّ على نفي الشِّرْكة والجملة الثانية نفت الشركة في العبادة لتقع العبادة خالصة لله،والتعبير القرآني: لا نشرك يدل على أن الشريك غير موجود إلا إذا جعلته أنت شريكاً.

﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾

هذا هو البند الثالث:

﴿وَلَا يَتَّخِذَ﴾

الاتخاذ من باب الافتعال والثلاثي منه: أخذ يأخذ فلما نُقل إلى باب الافتعال قيل: إأْتخذ يأتخذ فقلبت الهمزة واواً فصار إوتخذ ثم قلبت الواو تاءً وأدغمت في

(١) المصدر نفسه: ٢٣٣.

(٢) المصدر نفسه: ١٤٤-١٤٣.

التاء فصارت إتخذ يتخذ بتشديد التاء[١] وباب الافتعال يدل على التعمُّل مثل: اكتسب فما تتخذه أنت لشيءٍ كأنه كان لغير ذلك الشيء أو أنه لا يصلح أن يكون هو بل أنت الذي تجعله كذلك.

ولا يعقل أن يكون الجنس الواحد أو النوع الواحد بعض أفراده رباً والبعض الآخر مربوباً ضرورة اشتراكهما في مفهوم الجنس أو النوع فمثلاً جنس الإنسان كلهم يشتركون في الإنسانية والإنسانية في كل إنسان بالتساوي فلو زاد فرد من أفراده أو نقص في تحقُّق معنى الإنسانية فيه لما جاز ولما صح أن يقال عنه أنه إنسان وهكذا في كل مفاهيم الأجناس والأنواع وفي هذا النص إلزام للنصارى إذ كيف يصح أن يكون عيسى عليه السلام رباً للناس وهو يشترك معهم في الإنسانية؟وإذا كان الرب يعني المالك فكيف يصح أن يكون الفرع مالكاً لأصله، الإنسانية أصل وعيسى فرع منها وهي سابقة عليه في الوجود فكيف يصح أن يكون مالكـها؟!!! ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[٢].

﴿من دون الله﴾

كأنهم يحسون في داخل نفوسهم أن ما اتخذوه رباً أقرب إليهم مـن الله أو هم أقرب إليه من الله نسأل الله السلامة، قال الرازي: وإنما ذكر الله تعالى هذه الثلاثة لأن النصارى جمعوا بين هذه الثلاثة فيعبدون غير الله وهو المسيح عليه السلام ويشركون بالله غيره لأنهم يقولون إنه ثالث ثلاثة: أب وابن والروح القدس وأما

---

(١) مختار الصحاح ص: ١٢.

(٢) الحج: ٤٦.

الثالثة وهو اتخاذ بعضهم أرباباً من دون الله فكانوا يأخذون التحليل والتحريم من أحبارهم لا من الله وكانوا يسجدون لأحبارهم ويطيعونهم في معصية الله[1].

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾

"اشهدوا بأنا مسلمون" أراد الله ﷻ أن يذكر بهذه الشهادة بما مر من إشهاد الحواريين لعيسى عليه السلام "واشهد بأنا مسلمون" ومعنى الإسلام هناك هو إسلام الوجه والقلب والشعور لله رب العالمين ويدخل فيه مسمى الإسلام الاصطلاحي من حيث شمول العام لكل أفراده أو من حيث صدق المجمل على أي فرد من أفراده.

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

يقول الزمخشري: زعم كل فريق من اليهود والنصارى أن إبراهيم عليه السلام كان منهم وجادلوا رسول الله ﷺ والمؤمنين فيه فقيل لهم: إن اليهودية إنما حدثت بعد نزول التوراة والنصرانية بعد نزول الإنجيل وبين إبراهيم وموسى ألف سنة وبين إبراهيم وعيسى ألفان، فكيف يكون إبراهيم عليه السلام على دينٍ لم يحدث إلا بعد عهده بأزمنة متطاولة؟

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

"أي فهل أنتم مجانين أفلا تعقلون حتى لا تجادلوا مثل هذا الجدال المحال"[2].

---

(١) ينظر التفسير الكبير ج:٣/ ص: ٢٥٢.

(٢) الكشاف ج:١ / ص: ٤٣٥.

﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾

ها: للتنبيه و"أنتم" مبتدأ و"هؤلاء" خبره "حاججتم" جملة مستأنفة مبينة للجملة الأولى: يعني: أنتم هؤلاء الحمقى وبيان حماقتكم وقلة عقولكم أنكم جادلتم "فيما لكم به علم" مما نطق به التوراة والإنجيل[1].

﴿فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾

﴿فِيمَا ﴾

أي في شيء أو في أمر "لكم" الخطاب مع أهل الكتاب وكأنه لهم خاصة "به" الضمير يعود على ما وإنما قدم الجار والمجرور وهو يفيد الاختصاص مع ما أفادته "لكم" من الاختصاص لبيان اختصاصهم به فعلاً ولبيان أنا لا نكذبكم بهذا الاختصاص وهو أسلوب من أساليب الترفق بالخصم ليهتدي مع علمك بأنه على خطأ في فهم ما عنده من نصوص العلم الإلهي وعلمك بتحريفه لبعضها.

﴿عِلْمٌ ﴾

العلم: هو صورة الشيء في الذهن ومنهم من يقول: حصول صورة الشيء في الذهن ومنهم من يقول: عند الذهن لا في الذهن[2]ويمكن الاعتراض على تفسير العلم بالصورة بأن ليس لكل ما يعلم صورةٌ فبعض المعلومات لا

(١) المصدر نفسه.

(٢) انظر شرح ملا عمر علي گلنبوي برهان ص:٣.

تخضع للتخيُّل أصلاً كاستحالة الجمع بين النقيضين مثلاً فإنه لا صورة له لا خارج الذهن ولا داخله.

قال بن عطية:" فيما لكم به علم" أي على زعمكم[1] وذلك لأنهم يفسرون النصوص على ما تشتهيه نفوسهم قال أبو حيان: أي تدَّعون علمه[2].

﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾

﴿فَلِمَ﴾

استفهام المتعجب من حالهم إنهم يقولون مالا يعلمون مكابرةً وعناداً.

ولو أبقوا على أوهامهم لما فضحهم الله إنهم لا علم لهم فيما يؤمنون به ولا يكتفون بهذا بل يريدون أن يثبتوه لغيرهم وفاقد الشيء لا يعطيه كيف تثبت للناس ما لم يكن ثابتاً عندك؟ وفي هذا تنبيه لكل عامل بالدعوة إلى الله أن يتثبَّتوا مما يعرضون على الناس فإذا تحققوا من ثباته استطاعوا أن يعرضوا على غيرهم ما عندهم، وأحسب أن ما عاب به القرآن الكريم أهل الكتاب أصبحنا الآن نقع فيه في صورة أو أخرى.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

"والله يعلم" كل العلم الإلهي الذي لا طريق للفكر إليه إنما يعلمه الله ويعلمه من علَّمه الله فطريق العلم به واحد وهو تلقي العلم به من الله تعالى ولهذا قال:" وأنتم لا تعلمون".

---

(١) البحر المحيط ج:٣ / ص: ١٩٨.

(٢) المصدر نفسه ج:٣ / ص: ١٩٩.

ولأن ما يكابرون بالحجاج فيه من العلوم الإلهية والله ﷻ يقول لهم" أنا ما أنزلت لكم هذا النوع من العلم أو أني أنزلته ولكنكم أعملتم فيه التحريف والتأويل بما تشتهيه نفوسكم وأنا أعلم بذلك. وهذا الخطاب خطاب قرآني فكيف يخاطبهم به وهم بعد لم يؤمنوا له؟ ويجاب عن ذلك: بأن الخطاب القرآني لم يكن يخاطب أهل الكتاب مباشرة وإنما يخاطب من نزل عليه القرآن أولاً وكل دعاة الإسلام ثانياً فالنبي ﷺهو الذي يخاطبهم به يحاججهم بل ويجاهدهم به جهاداً كبيراً ومن بعده كل الداعين إلى الله.

ويجوز أن يحمل العلم في الآية على العموم أي وأنتم لا تعلمون شيئاً "والله يعلم" لأنه هو الذي خلق كل المعلومات فكيف لا يعلمها وأما أنتم والمخلوقون جميعاً فلا تعلمون لأني لو لم أخلق المعلوم فماذا تعلمون؟ ولو لم أهب لكم وسيلة العلم فبمَ تعلمون؟

﴿ مَاكَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَاكَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

هل تستحق هذه المقولة أن تُردّ؟ هل من يصل تفكيره إلى هذا المستوى من الهبوط يستحق البيان أو المناقشة؟ ألم يكن العقلاء من أهل الكتاب يدركون مستوى الجهل والظلام الذي ألم بعقولهم فيبادروا إلى الإيمان بالكتاب الجديد من ربهم وهو يتبسط معهم أشد من تبسط الآباء مع أبنائهم؟رحماك يا رب كيف يصل من ضل عن طريقك إلى التصديق بأن من مات يمكن أن ينتسب إلى من أتى بعده بالإتباع في الدين أو في الرأي؟

﴿ مَاكَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ﴾

الأصح بل الصحيح في كان الناقصة أنها تدل على الحدث وليس فيها دلالة على الزمن وأنت ترى أن كان التي تدل على مطلق الكون وهو الوجود

دخلت عليها ما النافية فيكون المعنى نفي مطلق الوجود أي ما وجد ولا كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانياً في وقت من الأوقات لأن نفي الكون يستلزم نفي الزمن الذي يقع فيه ومثل هذا التعبير بالنفي لمطلق الكون والوجود قوله تعالى:﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ ﴾(١)

﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ﴾

أي ولكن كان وجوده وجود الحنيف المسلم هكذا كان وهذا واقعه.

"**الحنيف**"

هو اسم لمن يستقبل الكعبة في صلاته ويحج إليها ويضحي ويختتن ثم سمي من كان على دين إبراهيم حنيفاً(٢).

﴿مُّسْلِمًا ﴾

أي مسلماً وجهه وقلبه لله وكل الأنبياء والمرسلين ومتبيعهم في وقت سريان شرائعهم وكتبهم يقال عنهم إنهم مسلمون.

هذا ما تدل عليه آيات القرآن وتوهَّم من توهم أن إبراهيم كان مسلماً بمعنى الإسلام الاصطلاحي أي دين القرآن المنزل على محمدﷺ لا يختلف عن وهم اليهود والنصارى في شيء ضرورة تبعية اللاحق للسابق لا العكس.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

هاجر إبراهيمعليه السلام مع والده إسماعيل وزوجه هاجر إلى مكة المكرمة ليعيد

---

(١) المؤمنون:٩١.

(٢) البحر المحيط ج: ٣ / ص: ٢٠٢.

بناء البيت الذي وضعه الله لعبادته ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ ﴾[1] وعيَّن الله ﷻ لإبراهيم مكان البيت إذ محت آثاره السيول وعوامل التعرية الأخرى يقول تعالى:﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ ﴾[2]، فماذا يقال عن إبراهيم بعد أن وجد الناس البيت الذي بناه مملوءً بالأصنام ولا يقوم بالعبادة فيه إلا المشركون؟ إن القرآن الكريم وهو يقدم لنا هذا النص كان يعالج بعض الأوهام وأنواعها من التخرصات والظنون في عقول بل أوهام بعض الناس.

وهل يمكن أن يكون حنيفاً مسلماً ويكون في ذات الوقت من المشركين؟ يمكن الجواب عن هذا التساؤل: بأن الفقرة الثانية جاءت مؤكدة لمضمون الفقرة الأولى لأن إسلام الوجه والقلب لله لم يُبْقِ لمن أسلم شيئاً يشرك به هذا أولاً وثانياً: إن المتتبع لآيات القرآن الكريم يجد هاجِس الشرك قريباً من قلوب الكثير من الناس مع إعلان الإيمان منهم، وإذا كان الشرك يتناول حتى خلجات القلوب في ميلها إلى نظر المخلوقين مع الله كانت الطهارة من لوثة الشرك مطلقاً لا يصل إليها إلا الصِّدِّيقون.

﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

في هذه الآية الكريمة انعطف القرآن الكريم في الحديث من جهة إلى جهة أخرى فبعد أن كان النبيﷺ هو الذي يقوم بدور المخاطِب بأمر من ربهﷻ مع أهل الكتاب تدخل الحق لحسم النزاع في إبراهيم عليه السلام بهذا البيان الإلهي إنها شفرة انتقال يستخدمها القرآن الكريم في التحول من خطاب إلى آخر.

---

(١) آل عمران: ٩٦.

(٢) الحج: ٢٦.

﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ﴾

قـال ثعلب: لم يقل أحد في أولى أحسن مما قاله الأصمعـي: وفلان أولى بكذا: أي أحرى به وأجدر ويقال: هو الأولى وفي المرأة: هي الوَلْيا[1]، وقريب من قول ثعلب ما قاله علي بن عيسى: أولى الناس بإبراهيم: أحقهم بنصرته[2] ولكن الزمخشري في الكشاف فسر أولى بغير هذا قال: إن معنى الآية: إن أخصهم به وأقربهم منه من الولْي بسكون اللام وهو القرب[3] ويرِد على تفسير الزمخشري أن أولى لو كان بمعنى القرب لقال إلى إبراهيم أو من إبراهيم ثم التعقيبة في آخر الآية "والله ولي المؤمنين" لا تناسب تفسيره.

﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾

أي في زمانه وبعد إلى مجيء ناسخ لدينه وهؤلاء هم الطبقة الأولى .

﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾

العطف على خبر إن وهو "للذين اتبعوه" وهوﷺ الطبقة الثانية وذكر أبو حيان هنا وجوهاً للإعراب لا فائدة فيها في تحليل النص إلا صناعة الإعراب.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾

أي المسلمون الذين آمنوا بالقرآن وإنما جاء هنا التعبير بالذين آمنوا بدل الذين اتبعوا لأن الإيمان بالقرآن يستدعي الإيمان بجميع الكتب وجميع من أنزلت

---

(١) مختار الصحاح ص: ٣٠٦.

(٢) البحر المحيط ج:٣ /ص:٢٠٣.

(٣) الكشاف ج:١ / ص:٤٣٦.

عليهم والذين منهم إبراهيم عليه السلام وكتابه، وبذلك استحق أتباع محمد ﷺ أن يوصفوا بالإيمان المطلق فلم يقل آمنوا بمحمد ولا بالإسلام ولا ..ولا .

﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

بالنصرة والمعونة والتوفيق والإنعام والإكرام(١).

والولي: ضد العدو يقال منه: تولاه وكل من ولي أمر واحد فهو وليُّه وقال ابن السكيت: الولاية بالكسر: السلطان وبالفتح: والكسر: النصرة وقال سيبويه: الولاية بالفتح المصدر والولاية بالكسر: الاسم(٢).

ولما والاه المؤمنون بالإيمان به وبكتبه وبرسله والاهم بالنصرة والتأييد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾(٣) فمن عادى المؤمنين فقد جعل نفسه مع الله في العداء وجهاً لوجه إذا نازعتك نفسك في عداء مؤمن فانظر لنفسك من تعادي، لو تعامل المسلمون وهم يستحضرون هذا الشعور لساد بينهم الوفاق ولأحبوا جميع أهل الإيمان من أجل وليهم ولما اعتدى أحد منهم على أحد إذ كيف يعتدي مؤمن على من كان الله وليه؟ اللهم أغفر وأرحم.

---

(١) التفسير الكبير ج:٣ / ص:٢٥٥.

(٢) مختار الصحاح ص: ٣٠٦.

(٣) الحج: ٣٨.

الفصل الرابع عشر

في مكايد أهل الكتاب لدين الإسلام وأهله

الفصل الرابع عشر

في مكايد أهل الكتاب لدين الإسلام وأهله

﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ آل عمران: ٦٩ - ٨٠

في هذا الفصل يكشف الله وهو العليم الخبير للمؤمنين سَوءَةَ أهل الكتاب يكشف أحقادهم وحسدهم ومناكدتهم لآيات الله مع علمهم بها ونيابتهم عن الشطيان في أقبح أفعاله وأعماله فألبسوا الحق بالباطل ليكتموا جمال الحق على عمد منهم ومكروا بالضعفاء ممن آمن منهم ليعيدونهم إلى الكفر وهم يشهدون فآمنوا أول النهار وكفروا آخره وتواصوا على ذلك ليفتحوا طريق الردة عن الحق والأسوة بالخروج عليه وفي الخروج منه وتحللوا عن المسؤولية الأخلاقية فخانوا الأمانة وكذبوا على الله في إباحته لهم ذلك ثم عاد عليهم خُلقهم السيئ وعدا عليهم فلووا ألسنتهم عن سبيلها وأجروها في غير مجراها فزوروا على الله في كتابه سفهاً وجهلاً يقولون هذا من عند الله وهم يعلمون أنهم كاذبون، ثم عدا شرهم على رسولهم فألبسوه ثوب الألوهية وهو عبد الله ففضحهم الله في ذلك وكشف كيدهم وما يعملون فتقذرهم الخُلق الرفيع ولعنتهم الأمانة بما خانوا مكانتها والصدق بما كانوا يفترون فصد أهل الأيمان عنهم بعد أن استيأسوا من صلاحهم ولله الأمر من قبل ومن بعد ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾

تقول: وددت لو تفعل كذا بكسر الدال الأولى أي تمنيت وكذا لو قلت: ودِدت لو أنك تفعل كذا فلا يختلف المعنى[1].

﴿طَّآئِفَةٌ﴾

أي جماعة لأن الطائفة من الشيء: قطعة منه[2].

---

(١) مختار الصحاح ص:٢٩٧. انظر التفسير الكبير ج:٣ /ص:٢٥٥ حيث فارق الرازي بينهما.
(٢) نفسه ص:١٧١.

﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾

قال في الكشاف: هم اليهود دعوا حذيفة وعماراً ومعاذاً إلى اليهودية[1]

وأود في مثل هذا النص أن المفسرين لو لم يذكروا طائفة بعينها ولا أفراداً ممن دعوهم بعينهم فإن ذلك لا يغني النص ولا يزيده وضوحاً فيبقى في محيط ذكر المثال لا أكثر.

﴿لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾

تقول: أضللت فلاناً إذا كنت تعلم أنك تضله وذلك لأن الفعل لا ينسبه الفاعل إلى نفسه إلا إذا كان قاصداً ما فعل لأن أفعل: للتعدية،ولكنك يصح أن تقول: أضل فلان فلاناً وإن لم يكن الفاعل قاصداً لأنك تخبر عن فعله لا عن قصده فإن كان المخبَر عنه قاصداً صح من الجهتين يقول: أنا أضللته وتقول عنه أنه أضله. والظلال: ضد الرشاد وأضله: أضاعه وأهلكه وضللت الدار: إذا لم تعرف موضعها والقاعدة: أن كل شيء مقيم لا تهتدي إليه تقول: ضللته[2]، والمعنى: أن طائفة من أهل الكتاب تمنت إضلالنا أي القدرة على ذلك مع ما بذلوا من جهد ومشقة.

وهذا المقطع من النص جاء يحكي لنا ما يحاك ضدنا من مكر وخديعة في جانبنا ويحكي لنا مدى اليأس الذي كان يقطع قلوبهم وما وصلوا إليه من إحباط ونزق وقلق فلم يكونوا يودون إضلالنا بل يودون لو يضلونا فهذه الكلمة ـ لو ـ

---

(١) الكشاف ج:١ /ص:٤٣٦.

(٢) مختار الصحاح ص:١٦٣-١٦٤.

هي التي أخبرتنا عن وصولهم وقناعتهم بالعجز عن إضلال المسلمين هذا هو تحليله من حيث الحديث.

﴿وَدَّت﴾

فعل ماضٍ فهي خبر عن طائفة مضت هذا مدلول حروف الكلمة ولكن الناس هم الناس وفي الماضي كانوا أتقى لله منهم اليوم، وأقرب إلى الصدق والأمانة فما بالك بأهل الكتاب اليوم؟ وقد انسلخوا عن كل فضائل الدين بعد أن مقتتها رذائلهم وما يشتهون.

﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾

إن الكاذب أول ما يكذب على نفسه فإذا كذب على نفسه في داخلها استطاع أن يظهر بهذا الكذب على الناس وإذا عرف الناس أنه كاذب أو أن لديهم من اليقين ما يخالف قوله، بقي الناس على ما هم عليه من اليقين وعلى معرفتهم بأنه كاذب وعاد المسكين بلعنة الكذب على نفسه فقط، وهكذا المضلون وهم يحاولون إضلال الناس فيبدؤون بإضلال أنفسهم عن حب الفضيلة وعن محبة فاعليها ويدأبون ليل نهار بالتفكير بالرذائل وما يوصل إليها من زينة وشهوة فتلبسهم الرذيلة أولاً لتظهر بهم ويظهروا بها فإذا تبين للناس أمرهم واشتهرت مساوئهم، نبذهم الناس نبذ الحصاة فلم يعودوا إلا برذائلهم كما عادت رذائلهم بهم وذلك تصديق قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾(١).

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾

كيف يشعر الضال أنه ضال؟ لو علم بضلاله لطلب الهداية أفلا يكفي من

---

(١) فاطر: ٤٣.

يحاول إضلال الناس أنه انحرف عن محاولة هدايتهم؟ أفلا يكفيه أنه لا يستطيع الدعوة إلى الطريق المضل إلا بعد أن يقف على رأس هذا الطريق أو يسير عليه؟ اللهم إنا نعوذ بك أن نَضِل أو نُضل.

﴿ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴾

"لِمَ" أصلها: لما لأنها "ما" الموضوعة للاستفهام ودخلت عليها اللام فحذفت الألف من أجل التخفيف ولأن حرف الجر "اللام" صار كالعوض عن الألف ولأن الألف أيضاً وقعت طرفاً فإذا حذفت دلت الفتحة عليها ومثل: لمَ عمَّ وبم في قوله تعالى:﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴾[1] وفي قوله تعالى في سورة الحجر:﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ الآية الرابعة والخمسون فإذا أردت أن تقف على هذه الحروف وقفت بالهاء: لمه وعمَّه وبمه[2].

﴿لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾

" قال في الكشاف:أي بالتوراة والإنجيل وكفرهم بها أنهم لا يؤمنون بما نطقت به من صحة نبوة محمدﷺ وغيرها أو تكفرون بالقرآن ودلائل نبوة الرسولﷺ أو تكفرون بآيات الله جميعاً[3].

﴿وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴾

---

(١) النبأ: ١.

(٢) التفسير الكبير ج:٣ / ص:٢٥٥.

(٣) الكشاف ج:١ / ص:٤٣٦.

أي تشهدون نعت النبيﷺ في الكتابين أو تعلمون أنه حق[١] بعد أن أصروا على عنادهم ولم يقبلوا بأي عرض لا الابتهال ولا المصادقة على البنود الثلاثة المتفق عليها لم يبق إلا إظهار ما يخفون وكشف ما يسرون وتحديهم بالتكذيب واتهامهم بالكذب على مجمع من الناس ومسمع.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

﴿تَلْبِسُونَ﴾

جاءت مادة "ل ب س" على وزنين الأول: لبس يلبِس مثل ضرب يضرِب ومعناه الخلط تقول: لبس زيد الأمر على فلان أي خلطه ومن قوله تعالى:﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[٢] وتقول: في الأمر لُبْسة بضم اللام أي شبهة يعني ليس بواضح والثاني: لبِس يلبَس على وزن علِم يعلَم وهذا بمعنى اللُّبس تقول: لبس الثوب يلْبَسه لُبْساً[٣]،وإذا عرفت هذا فتلبسون في الآية بمعنى تخلطون لا على وزن ضرب وجاء في بعض القراءات: تَلبسون بفتح الباء فيكون معنى الآية: يلبسون الحق أي يتظاهرون به بالباطل أي ليس حبا بالحق وإنما للتغرير والمراء وهذه قراءة يحيى بن وثاب، وجاء في قراءة أخرى: تلبِّسون بتشديد الباء وهي تدل على التعدية والتكثير[٤].

﴿ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾

---

(١) الكشاف ج:١ / ص:٤٣٦.

(٢) الأنعام: ٩.

(٣) مختار الصحاح ص:٢٤٧.

(٤) الكشاف ج:١ / ص:٤٣٦.

الباطل: ضد الحق ويقال للعاطل عن العمل: بطّال والاسم: البطالة[1].

﴿وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ ﴾

يقال: كتم الأمر إذا أخفاه لئلا يطلع عليه أحد والفارق بين كتم وخفي إن الخفاء قد يقع بغير فعل فاعل فتقول: خفي كذا ولكنك لا تقول كتم كذا إلا وأنت تريد فعل فاعل ولهذا يقال للسر الذي لا يُرغب في إفشائه سر كاتم أي مكتوم[2] ويدل على ذلك أيضاً أن خفي فعل لازم بخلاف كتم وتكون هذه الجملة حال مؤكِّدة لأن من خلط الحق بالباطل فقد كتمه.

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

أي وأنتم تعلمون الحق، وتعمدتم في كتمانه بخلطه بالباطل، قال الرازي: وتحتمل أن تكون وعيداً أي وأنتم تعلمون بعقاب من يكتم الحق[3] وهو احتمال معقول ولكن الأول أكثر ظهوراً.

﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

هذه واحدة من طرق بعض اليهود الخبيثة لزعزعة أصحاب الديانات الأخرى عن دياناتهم ليسلم لهم دينهم وأتباعهم.

﴿ءَامِنُواْ﴾

أمِن يأمَن أمْناً وأماناً والاسم: أمانة من باب فهِم وسلِمَ تقول: أمِـن زيـدٌ

---

(١) مختار الصحاح ص:٣١.

(٢) المصدر نفسه ص:٢٣٧.

(٣) التفسير الكبير ج:٣ / ص:٢٥٧.

عمراً أي لم يخف زيد من عمرو وتقول آمن زيد عمراً أي أن زيداً جعل عمراً في أمن.

وأصل: آمن: أأمن فهو من المزيد مثل أنزل فسُهِّلت الهمزة الثانية فصارت آمن وهي من الأمن، وتقول: آمن الله المتقين أي جعلهم في أمن من عقابه فهو المؤمن ولا تقول: آمن المتقون الله ولا أنا أو فلان مؤمن اللهَ فإن الله هو المؤمن عباده وليس العكس.

ولكنك تقول: آمن زيد بالله فتعدِّيه بالباء لأنك ضمَّنت آمن معنى: أقر أو اعترف فمعنى: آمن زيد بالله اعترف أو أقر زيد بالله وكذلك نقول: آمنت بالله أو بآيات الله أو باليوم الآخر وغير ذلك، وكذلك إذا عدَّيت آمن باللام فقلت: آمن زيد لعمرٍ بحقه على تضمين آمن معنى اعترف أو أقر.

وكذلك تأتي آمن متعدية بعلى فتقول: آمنت زيداً على مالي أي جعلته أميناً عليه[1].

وإنما أطلنا بتحليل هذه الكلمات لأنها سوف تأتي على كل هذه الوجوه في هذه الآية وفيما بعدها بقليل.

﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾

أي اعترفوا وأقروا بالدين الجديد المنزل على الذين آمنوا أي المسلمين والمقصود بهذا الاعتراف الخديعة فقط ولا تنس أن الخطاب من هذه الطائفة من اليهود لأتباعها ليقوموا بهذا الدور الخبيث ومن العجيب أن الكلمات التي يوصون بها أتباعهم هي نفسها الكلمات التي قالها فرعون وهو يغرق في مياه البحر، قال

(١) انظر مختار الصحاح ص: ١٨. البحر المحيط ج:٣ /ص: ٢١٢.

فرعون "آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنتْ به بنو إسرائيل"[١] لم يذكر موسى عليه السلام ولا التوراة ولكنه كان خيراً من هذه الطائفة في صدق التوجه إلى الإيمان فقال وأنا من المسلمين فلولا أنه في حال اليأس لقُبل منه إيمانه ولكن هذه الطائفة تريد المكر والخديعة لا غير.

﴿وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾

أي أوله لأن أول النهار هو الذي يواجهك منه فسمي وجهاً للنهار"[٢].

﴿وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾

أي أعلنوا كفركم به آخر النهار وهذا مكر يراد به إعطاء قوة دفع وتشجيع لمن تحدثهم أنفسهم بالردة عن الدين الجديد حسب تقديرهم هم لأن أفكارهم المريضة لم تكن تتصور معنى الثبات على الدين الحق لا سيما وهم يرون أنفسهم في حل من تزوير الدين وكتابه والتقول على الله ورسله فأنى لهم معرفة الصدق في القول والأمانة في العقيدة؟ إنهم يرون الناس في أنفسهم ولا يرون أنفسهم في الناس وتلك علة انحرافهم.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

كانوا في الموقف السابق في موقف المتمني الذي يحزُّ في نفسه الأسى والحزن إذ لم يكونوا قد قدموا أسباباً يمكن أن توصلهم إلى ما يريدون وهذه مرتبة التمني في اللسان العربي وأما الآن وبعد أن قدموا أخبث ما في أنفسهم من خديعة ومكر ودهاء حتى صار ما فعلوه يقوم مقام الأسباب في إضلال المؤمنين فزمّت

---

(١) سورة يونس ٩٠

(٢) الكشاف ج:١/ ص: ٤٣٦.

بهم مطامعهم وتوهموا أنهم بذلك يرجون لا يتمنون فقالوا: لعلهم يرجعون خابت أفكارهم وبطل ما كانوا يصنعون، ولك الآن أن تنتقل إلى ذلك الزمن المبارك وهم يخططون في الظلام مثل هذا الكيد والخديعة فتلمع شمس الوحي وتفضح سرهم، ما كان موقفهم؟ كيف كانوا يفسرون إخبار النبيﷺ بكل ما كانوا يعملون؟ ما هو موقف أتباعهم؟ ما هو أثر مثل هذه الصدمة على نفوسهم؟ أسئلة محيرة فعلاً إذا تتبعتها وتناولتها بالتحليل الواحد تلو الآخر بان لك طبع اليهود وخبثهم ومكرهم وتجلت لك معجزة القرآن الكريم، وفكر ثانيا ألم يكن إعلام أهل الكتاب اليوم هو ابن إعلامهم في الأمس؟ كيداً وفسادا ومكرا وخديعة؟

﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾

هذه متصلة بالتي قبلها كأنها ملحق توضيحي لها فهي من كلام اليهود باتفاق المفسرين.

﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾

فيها وجهان للتأويل:

الأول: ولا تؤمنوا أي ولا تقروا ولا تعترفوا إلا لنبي يقرر شرائع التوراة أي لنبي من أنبياء بني إسرائيل فأما غير ذلك أي إذا جاء نبي بغير الشريعة بأن يأتي بكتاب جديد وشريعة جديدة فلا تعترفوا به،قال الرازي:" وهذا هو مذهب اليهود إلى اليوم"

الثاني: ولا تؤمنوا وجه النهار وتكفروا آخره إلا لأجل من تبع دينكم من اليهود فإنهم إذا رأوكم تؤمنون أول النهار وتكفرون أخره ازداد ثباتهم على

اليهودية لأن من في نفسه شبهة ويريد أن يسلم يقول لو كان دين محمد حقاً لما دخل فيه فلان وفلان ثم كفروا به في نفس اليوم[1].

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾

هذا يشبه ما نسميه المداخلة بل هي فعلا مداخلة من قبل الحق ﷻ كأنه يقول لهم وهو جل جلاله يسمع ما يتواصون به من مكر وخديعة: إن الهدى إنما هو هدى الله فسواء جاء به نبي من بني إسرائيل أو من غيرهم فإنكم لم تؤمنوا بموسى لأنه منكم ولا لأنه جاءكم بالتوراة بل آمنتم به لأنه يحمل إليكم هدى الله يقول الرازي رحمه الله :"إن الذي هم عليه دين موسى إنما ثبت ديناً من جهة الله لأنه تعالى أمر به وأرشد إليه وأوجب الانقياد له وإذا كان كذلك فمتى أمر الله بعد ذلك بغيره وأرشد إلى غيره وأوجب الإنقياد إلى غيره كان نبيا يجب أن يتبع وإن كان مخالفاً لما تقدم لأن الدين إنما صار دينا بحكم الله وهدايته فحيثما كان حكم الله وهداية الله وجبت متابعته"[2]، رحم الله الرازي وغفر له فالناس كلهم بحاجة إلى هذا اليقين وهم يتبعون طوائفهم ومذاهبهم وأيم الله لو وضع المسلمون هذه الروح نصب أعينهم وهم يدرسون هذه الطوائف والمذاهب لضاقت شقة الخلاف ولزالت نزعة العصبية فيما بينهم.

﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾

في هذه القطعة من الآية وجهان:

الأول: أن تكون من جملة كلام الله الذي سميناه مداخلة ويؤيـد هذا الوجه

(١) انظر التفسير الكبير ج: ٣ / ص: ٢٥٩.

(٢) التفسير الكبير ج: ٣ /ص: ٢٥٩.

ما جاء في قراءة ابن كثير:" أأن يؤتى..." بالاستفهام، وهذا الوجه ظاهر من النص لأن الاستفهام في هذه الحالة لتوبيخ اليهود وهو يشبه ما نسميه العتب على موقفهم هذا ،وهو رد ما يأتي من الله على أي رسول إذا خالف التوراة فكأنه يقول لهم موبِّخاً وعاتباً أتريدون أن تكفروا بالقرآن الذي أنزلته لأنني أنزلت كتاباً بعد كتابكم وأرسلت رسولاً بعد موسى؟ الهدى هداي لا هدى موسى ولا هدى محمد ﷺ أم لا تريدون أن تؤمنوا بمحمد لأن كتابه سوف يحاجكم على ما حرفتم وبدلتم في دينكم؟ ولكن يرِد على هذا الوجه قوله تعالى بعده:"قل إن الفضل بيد الله..." فإن الأول لو كان من الله لما قال: قل بل كان يوصل أن الفضل بيد الله بكلامه السابق لأنه مُصَدَّر بقل، ويجاب عن هذا الإيراد: بأن الله وبخهم على عنادهم بقضيتين **الأولى:** "أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم" **والثانية:**"أو يحاجوكم عند ربكم" فكانت الإجابة **الأولى:**" إن الهدى هدى الله" للأولى والثانية للثانية.

الوجه الثاني: أن تكون من كلام اليهود فإنهم يعملون هذه المكيدة فيؤمنوا أول النهار ويكفروا آخره مخافة أن يؤتى غير بني إسرائيل من الدين والرسالة مثل ما آتاهم الله حسداً من عند أنفسهم ومخافة أن يأتي الكتاب الجديد فيفضح تزويرهم وأكاذيبهم وعلى هذا الوجه تكون المداخلة الأولى على قولهم السابق آمنوا... الخ وتكون المداخلة الثانية على حسدهم وعلى خوفهم من كشف تزويرهم[1]، وأجدني أميل إلى الوجه الثاني وما ذكره الرازي رحمه الله من إشكالات قد لا يخلو منها وجه من وجوه التأويل فلولا الإشكال لما وُجدت هذه الوجوه فارجع إليه إن شئت.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾

---

(١) انظر الوجهين في التفسير الكبير ج:٣ / ص: ٢٥٩-٢٦٠.

قال أبو حيان: هذا توكيد لمعنى " قل إن الهدى هدى الله" وفي ذلك تكذيب لليهود حيث قالوا: شريعة موسى مؤبدة[1].

﴿ٱلْفَضْلَ ﴾

الزيادة أي ما يزيد عن حاجة صاحبه ثم كثر الاستعمال لهذه الكلمة في معنى الإحسان والخير[2].

﴿بِيَدِ ٱللَّهِ ﴾

من الأفضل عدم التأويل فمُرْها كما جاءت لأنك كيفما أولتها فسوف لن تخرج عن دائرة التشبيه حساً أو معنى.

﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾

فالملك ملكه والهداية هدايته ولا إله غيره.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

الله واسع في فضله يختار من يشاء من خلقه إلى من يشاء وهو عليم بالهدى لكل أمة فينزل لكل عصر ما يناسبه ولكل أمة ما يصلحها إلى أن أتم الله دورته التعليمية على يد أنبيائه ومرسليه فختم الدورة بالقانون الأعم ليصلح لجميع الأمم على يد محمد ﷺ .

﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

يقول العلماء: إن لله من خلقه خواص في الأزمنة والأمكنة والأشخاص فاختص الله من الأزمنة ليلة القدر وشهر رمضان والأشهر الحرم والعشرة من ذي

---

(١) البحر المحيط ج: ٣/ص: ٢١٧.

(٢) التفسير الكبير ج: ٣ / ص: ٢٦١.

الحجة ويوم الجمعة والاثنين وغير ذلك، واختص من الأمكنة الكعبة المشرفة ومكة وعرفات والمشاعر كلها وبيت المقدس والمسجد النبوي والمساجد كلها وغير ذلك كثير واختص من الأشخاص ملائكته وأنبياءه ورسله وأولياءه والعلماء والشهداء وحملة القرآن وغير ذلك كثير.

هؤلاء أشخاص وأزمنة وأمكنة جعل رحمته فيها اختصاصاً إلهياً وإن كان في بعض الأشخاص بما قدموا من عمل فالملائكة والأنبياء والمرسلون ليس من جهتهم اكتسابٌ لما اختصهم الله به[1].

وإيتاء الفضل أعم من الاختصاص فكل اختصاص هو فضل وليس كله فضل اختصاص ولهذا جاءت هذه الآية وفيها "يختص برحمته من يشاء" وذكر قبلها أن الفضل بيد الله وبعدها وصف الله بأنه "ذو الفضل العظيم" فكان ذو الفضل يناسب الأولى وذو الفضل العظيم يناسب الاختصاص بالرحمة.

﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

قبل الدخول في تحليل مفردات هذه الآية وتركيباتها ينبغي أن نقدم نبذه مختصرة عن تحليلها من حيث المعلوم الكلي الذي تطرحه هذه الآية ولنجعل هذا التحليل على صفة السؤال ثم نتبع ذلك بالإجابة عليه، هل جاءت هذه الآية مدحاً لأهل الكتاب أم ذماً؟ أحسب أن الآية جاءت تلطف الجو بين المسلمين وأهل الكتاب إن كل أمة لا تخلو من هذين الصنفين: الأمين والمماطل وذكر الأمناء منهم بهذا

---

(١) انظر التفسير الكبير ج: ٣/ ص: ٢٦١-٢٦٢.

الوصف "بقنطار" وتقديمه على الذم يستدعي الاعتذار عن أهل الكتاب فكأنه يقول إن كان فيهم الرديء ففيهم المحسن،كذلك ذكر الدينار في جانب المماطلة حيث لم يبلغ به إلى الأدنى وهو الدرهم في زمن نزول القرآن بل قد يوجد أقل من ذلك، أضف إلى ذلك أن القرآن الكريم ذكر مستندهم الديني في المماطلة إذن فالجاهل بأن هذا المستند مزور وغير صحيح عن الله قد يكون معذوراً وهو أحسن حالاً من المماطل الذي يعلم أن المماطلة ممنوعة في الدين ثم يماطل ولعل أروع ما في هذه الآيات أنها لم تسم الطائفة باسمها ولا من أي أهل الكتاب هي مع أن المفسرين ذكروا في تفسيراتهم اليهود بل اسم الشخص أيضا، إن الله رب الجميع فلم يصادر حسناتهم ولم يسم المسيء بل ذكر المحسن قبل المسيء لأن الهدف هدايتهم لا تعييرهم والتلطف بهم لا الإساءة إليهم، نكتفي بهذا ونعود إلى ما يلزم من تحليل الألفاظ.

﴿إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾

التعبير بإنْ التي تفيد الاستقبال وكذا مجيء الشرط والجزاء بصيغة المضارع للدلالة على أن هذا خُلُق فيهم وليس عمل جيل دون آخر، و"إن" مع إفادتها الاستقبال الا أنها إنما يعبر بها عن الشك في وقوع ما بعدها أو صعوبته وهي تحكي لنا تردد المسلمين في كل عصر في استئمانهم على أموالهم، "والقنطار وكذا ذكر الدينار فيما يأتي المراد من ذكرهما هنا ليس المقدار بل ما يمكن أن يستأمنوا عليه وما يجوز أن يماطلوا بأدائه"[1].

﴿يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾

(١) التفسير الكبير ج: ٣ /ص: ٢٦٣.

أدى دينه تأدية قضاه والاسم الأداء ويقال: فلان آدى من فلان أي أحسن أداءً ويقال أيضاً: تأدّى إليه الخبر أي انتهى[1].

﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾

أي كما كان منهم من يصل إلى أفضل صور الأداء في الكثير فإن منهم من يصل إلى أدنى حالات الأداء في القليل هذا النوع لا يؤدي إليك حقك إلا ما دمت أي إلا في حالة دوامك "عليه قائما" أي تَقْصر قيامك عليه فلا تتركه يستريح من مطالبتك حتى يُخيّل إليه أنك فوق رأسه دائماً تطالبه بما عليه من حقك[2]، وأنت ترى أن هذا الأداء للمعنى بوساطة الألفاظ صعب وفي هذه الكمية القليلة من الكلمات أكثر صعوبة ولكنه الله وكتابه.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾

أي ذلك الأداء السيء إنما كان بسبب أنهم قالوا.

﴿قَالُوا۟﴾

تحتمل هذه الكلمة وجهين: الأول: أنهم قالوا فعلاً ذلك القول والثاني: أن قالوا بمعنى اعتقدوا أي كان هذا رأيهم في دينهم. والظاهر من النص هو الاحتمال الثاني لأن ذلك لو كان قولاً ثابتاً في دينهم لم يعمل به البعض ويتركه البعض الآخر ولهذا قال عنهم "ويقولون على الله الكذب" أي ينسبون آراءهم إلى الدين وما هي من الدين والله أعلم.

﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾

---

(١) مختار الصحاح ص:١٢.

(٢) الكشاف ج:١ / ص: ٤٣٨.

أي لا يتطرق علينا عتاب ولا ذم في الدنيا ولا عقاب ومحاسبة في الآخرة إذا حبسنا أموال الأميين أي العرب أو إذا أكلنا أموالهم واستبحنا حريمهم لأن كتابنا أي التوراة إن كانوا من يهود والتوراة والإنجيل إن كانوا من النصارى لم يجعل للأميين في كتابنا حرمة[1]،نعم تذكر التوراة في سفر التثنية ما نصه "وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستبقِ منه نسمةً ما بل تحرِّمها تحريماً: الحثيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليوسيين كما أمرك الرب إلهك لكي لا يعلِّموكم أن تعملوا حسب جميع أرجاسهم التي عملوا لآلهتهم"[2] وفي الإنجيل:"أقبلت إليه امرأة كنعانية من تلك البلاد وصاحت ارحمني يا سيدي يا ابن داوود ابنتي فيها شيطان ويعذبها كثيرا فما أجابها يسوع بكلمة فدنا تلاميذه وتوسلوا إليه بقولهم اصرفها عنَّا لأنها تتبعنا بصياحها فأجابهم يسوع ما أرسلني الله إلا إلى الخراف الضالة من بني إسرائيل ولكن المرأة جاءت فسجدت له وقالت ساعدني يا سيدي فأجابها لا يجوز أن يؤخذ خبز البنين ويرمى إلى الكلاب فقالت له المرأة نعم يا سيدي حتى الكلاب تأكل من الفتات الذي يتساقط عن موائد أصحابها فأجابها يسوع ما أعظم إيمانك يا امرأة فليكن لك ما تريدين فشفيت ابنتها من تلك الساعة"[3]،فالأميون العرب في التوراة رجس وفي الإنجيل كلاب فماذا تنتظر ممن ينظر إليك هذه النظرة؟

﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾

ترجم الحق ﷻ رأيهم ذاك الذي لو أعملت فيه فكرك اختصاراً ودقة

(١) أنظر الكشاف ج: ١/ ص:٤٣٨.

(٢) التوراة سفر التثنية الإصحاح ٢٠

(٣) إنجيل متى ٣٤ ومرقص ٧ و٢٤و٣٠ إيمان المرأة الكنعانية

وأعانك عليه قوم آخرون لما استطعت أن توصل المعنى سليماً معافىً في خمس كلمات، النفي بليس وهي فعل ناقص وتقديم علينا ليقولوا هذا خاصة بنا نحن وأما على غيرنا فمن اهتضم حق غيره فعليه سبيل وفي الأميين فقط وأما في غيرهم فليس كذلك وسبيل نكرة أي (أي سبيل عنيف منهم لا يوجد أصلا)لأن ليس تنفي مطلق الوجود فلا سبيل في الدنيا من عتاب وذم من أهل دينهم ولا عقاب في الآخرة من الله .جلّ من أنزل القران.

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾

إذا قلنا: قال زيد عن عمرو الكذب يكون الكاذب عمروٌ ،وزيدٌ إنما نقله عنه فقط ولكننا إذا قلنا: قال زيد على عمرو الكذب يكون الكاذب زيد أي أنه قوّل عمرا ما لم يقله، فهذه الطائفة من أهل الكتاب تكذب على الله أي أنها تقول قال الله في كتابهم كذا وهو لم يقله، قال في الكشاف: "ويقولون على الله الكذب" بادعائهم أن ذلك في كتابهم" "وهم يعلمون" أنهم كاذبون"[1]. وأنت ترى أن القرآن الكريم لا يني بذكر هذه المقولة عن الطائفة الشاذة فيكرر عنهم "وهم يشهدون" "وهم يعلمون" فهم إنما ضلوا عن علم بأن دينهم وكتابهم بريء مما يعملون ويقولون وهذا فيه تزكية لمن يعمل بعمل هذه الطائفة الضالة أو تحييدها عن الصراع على أقل تقدير.

﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾

"بلى" جواب للتحقيق توجب ما يقال لك لأنها ترك للنفي وهي حرف لأنها ضد لا[2]، وقال في الكشاف: "بلى" إثبات لما بعد النفي وهو قوله تعالى "وقالوا لن

---

(١) الكشاف ج: ١ / ص: ٤٣٨.

(٢) مختار الصحاح ص: ٣٤.

تمسنا النار" أي بلى تمسكم أبدا بدليل قوله تعالى بعدها: "هم فيها خالدون" قال الزمخشري هذا في تفسير الآية ٨١ من سورة البقرة[١]، وقال هنا: "بلى" إثبات لما نفوه من السبيل عليهم في الأميين أي بلى عليهم سبيل فيهم[٢]،وذكر الرازي وجهاً آخر وهو أن "بلى" كلمة تُذكَر ابتداءً لكلام آخر يُذكَر بعده وذلك لأن قولهم: ليس علينا فيما نفعل جناح قائم مقام قولهم: نحن أحباء الله فذكر الله تعالى أن أهل الوفاء بالعهد والتقى هم الذين يحبهم الله تعالى لا غيرهم[٣].

وإذا صح ما يقول الرازي من أن بلى تذكر ابتداءً لكلام آخر فيصح أن يوجه ما بعدها بغير ما وجهه هو رحمه الله، والذي يبدوا لي أن ما بعد بلى مقول لإثبات السبيل عليهم في كتابهم فيكون المعنى: بلى عليكم سبيل لأن كتابكم يقول لا سبيل عليكم في الأميين إذا أوفيتم واتقيتم فإن الله يحب المتقين لا الخائنين.

﴿مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ﴾

﴿مَنۡ﴾

فيها احتمالان: الأول أن تكون موصولة أو شرطية قال أبو حيان الأظهر أن تكون شرطية[٤].

﴿أَوۡفَىٰ﴾

قال أبو حيان:" أوفى" لغة الحجاز و "وفى" لغة نجد و"وفَّى" بالتشديد لغة

(١) الكشاف ج:١ / ص: ٢٩٢،٤٣٨ .

(٢)نفسه ج:١ / ص: ٢٩٢،٤٣٨ .

(٣) التفسير الكبير ج: ٣/ ص: ٢٦٤.

(٤) البحر المحيط ج: ٣/ ص: ٢٢٥.

أيضاً"[١] يعني أبو حيان بقوله لغة الحجاز ولغة نجد ولغةً أيضاً كثرة الاستعمال وليس الاختلاف في اللغة لأن الثلاثي المجرد يستخدمه أهل نجدٍ والمزيد بالهمزة "أوفى" يستخدمه أهل الحجاز والمضعَّف يستخدمه آخرون والمضعف "وفًّى" هو المستعمل في العراق بكثرة فيقول من أوفى دينه: وفَّيت دَيني.

﴿وَٱتَّقَىٰ﴾

واتقى ماذا؟ عندما يحذف المعمول الظاهر يراد العموم واتقى الله واتقى النار واتقى السيئات لأن كلمة اتقى تشمل الكل.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾

الجملة جواب الشرط قال في الكشاف: فإن قلت: فأين الضمير الراجع من الجزاء إلى من؟ قلت: عموم المتقين قام مقام رجوع الضمير[٢]، وذلك لأن عموم المتقين قام مقام الضمير في "يحب" أي فإن الله يحبه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

هذا الخطاب يحمل وجهين من المعنى والوجهان مقصودان للمخاطِب وهو الحق ﷻ الأول: طابع إخباري بما يكون عليه المخبَر عنه وهو الذي يشتري بعهد الله ويشتري بيمينه ثمناً قليلاً إما حقيقة وإما بالمقارنة لما يفوته من الخير في الآخرة والثاني: طابع طلبي يحمل معنى النهي كأنه يقول لا تشتروا ...لأن الله ﷻ رتب على العمل الذي أخبر عنه جزاءً بقوله: أولئك لا خلاق لهم، ولا تنس أن

---

(١) الكشاف ج: ١/ ص: ٤٣٨.

(٢) المصدر نفسه ص: ٤٣٨.

سياق الخطاب بهذا الروح الإخباري العام يعد أسلوباً رائعاً من أساليب الدعوة فلا يذكر من فعل وإنما يوجه الخطاب إلى من يفعل وبعد أن كشفنا عن تحليل خطاب النص نعود إلى تحليل مفرداته ومفاصله.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ﴾

الاسم الموصول يفيد العموم فكأنك تقول: إن كل الذين يشترون... والاسم الموصول"الذين" من الأسماء المبهمة ولهذا احتاجت إلى ما يفسرها.

﴿يَشْتَرُونَ ﴾

أي يستبدلون فإن الشراء مبادلة شيء بشيء[1] والتعبير بالفعل المضارع الذي يفيد التجدد لإفادة أن الخطاب إنما جاء لمن كان هذا ديدنه لا لمن فعل ذلك مرة أو مرات متفرقة لأن ترك الفعل دليل على عدم الرضا وعدم الرضا معناه الندم على ما وقع والندم توبة والله يحب التائبين والتوابين.

﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ ﴾

العهد: الأمان واليمين والموثِق والذمة والحفاظ والوصية. وعهِد يعهَد عهداً أي أوصى أو أمر أو نهى فعهد الله كتابه أخباره وأوامره ونواهيه وليس المقصود هنا المُعاهَد أو التعاهد بين اثنين وذلك لأن مصدر عاهد: معاهدة ومصدر تعاهد: تعاهداً ولم يأت النص بذلك أي لم يقل بمعاهدة الله ولا بتعاهد الله وعهد الله: مفرد مضاف فيعم.

﴿وَأَيْمَٰنِهِمْ ﴾

اليمين: القسم وإضافة الإيمان إليهم لإفادة اعتبار كـــل ما يسمونـــه يمينـــاً

(١) انظر الكشاف: ج١/ص٤٣٨ .

وليس اليمين المشروع في الإسلام فإن من التزم بشيء وأقسم عليه بما يراه قسماً ثم تنازل عما التزم به وأهدر قسمه يدخل في هذا الوعيد، واليمين: هي الحلف التي يؤكد بها الإنسان خبره من وعد أو وعيد أو إنكار أو إثبات(١).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ﴾

﴿بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾

مفرد مضاف فيفيد العموم أي بكل عهد لله.

﴿وَأَيۡمَٰنِهِمۡ﴾

جمع مضاف فلا يفيد العموم أي ببعض أيمانهم أو بمجموعة من أيمانهم فيصدق على ثلاثة فأكثر، فيكون الوعيد في الآية متوجهاً إلى الذين يشترون بكل عهد الله ثمناً قليلاً،ويشترون ببعض أيمانهم ثمناً قليلاً، وإنما جاء هذا الفارق بين الاثنين لأن الالتزام بعهد الله أحياناً وعدم الالتزام أحياناً أخرى يدل على وجود الإيمان بالله ومن آمن بالله لا يتوجه إليه مثل هذا الوعيد وذلك لأن ما بين الله وعبده مبني على المسامحة إن الله غفور رحيم.

وأما الأيمان فهي التزام بين العبد وأخيه وهي حقوق يجب الوفاء بها وهي تحمل خطيئتين:**الأولى**: هضم حق المحلوف له، و**الثانية**: اهتضام حرمة ما حلف به.

﴿ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾

له وجهان: إما أن يكون قليلاً حقيقة بأن عصى الله من أجل كسب قليل ومثال ذلك ما يقع به التجار من ارتكاب ما حرم الله من الغش والتغرير مقابل

---

(١) التفسير الكبير :ج٣ /ص٢٦٦ .

كسب قليل ولو تتبعت ما يقع الناس فيه من المحرمات في معاملاتهم لتبين لك أنهم حقيقة يرضون بالثمن القليل في مقابل معصية الله.

والوجه الثاني: أن يكون ما يكسبونه ثمناً قليلاً بالنسبة لما يخسرونه من النعيم في الدار الآخرة.

وجملة يشترون إلى ثمناً قليلاً كلها صلة للموصول" الذين" وصلة الموصول تقوم مقام الصفة للنكرة من حيث كشف الإبهام عنه.

بقي أن ننبه إلى أن الباء في قوله" بعهد الله" تدخل على ما يدفعه المشتري، فالمقصود بالثمن في الآية المثمَّن أي السلعة أو البدل.

وإذا عرفت هذا ينبغي لك أن تعلم أن المفسرين لهذه الآية وكما هو شأنهم في أغلب آي القرآن الكريم يتجهون بالتفسير إلى أسباب النزول فيكون تفسيرهم ذا منحىً شخصي في تفسير المراد من النص ولنقرأ ما يقول الزمخشري:(" يشترون" يستبدلون " بعهد الله" بما عاهدوه عليه من الإيمان بالرسول المصدق لما معهم "وأيمانهم" وبما حلفوا به من قولهم: والله لنؤمنن به ولننصرنه)[1] هذا التفسير لا يعد كاشفاً لكل ما يحويه النص بل يكون تفسيرا بذكر مثالٍ فقط.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾

خبر إن.

﴿لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾

الخلاق: النصيب والنصيب: الحظ الحسن ويطلق النصيب على السهم من

---

(١) الكشاف: ج١ /ص٤٣٨-٤٣٩ .

مال مشترك أي الحِصة.

و"لا" نافية للجنس تعمل عمل إن فيكون النفي فيها عاماً للجنس كله ولهذا لا يصح الاستدراك بعدها لبعض أفراد الجنس فلا يقال: لا رجلَ في الدار لكن زيد في الدار لوجود التناقض بين الأول والثاني وهذا بخلاف ما لو كانت "خلاقُ" بالرفع فلو قيل: لا خلاقٌ لهم احتمل النفي نفي الوحدة ولهذا يصح الاستدراك بعده فتقول: لا رجلٌ في الدار بل رجلان.[1] وإنما أطلنا في تحليل هذه الكلمة لأن بعض المفسرين لما اكتفى بتفسير الخلاق بالنصيب اضطر أن يقول المراد بالنصيب الخير لا الشر ولأن بعضهم أيضاً لما لم يستحضر دلالة النفي على الجنس والفارق بين دلالة المرفوع بعد لا والمنصوب راح يقدر النصيب بالوافر وهو إفساد للمعنى[2].

﴿لَا خَلَٰقَ لَهُمْ﴾

أي لا خلاق لهم مطلقاً سواء كان عن طريق الاستحقاق على ما قدموا من خير أو كان عن طريق إيصال الثواب إليهم من أبنائهم أو غيرهم أو عن طريق الدعاء لهم أو عن طريق العفو عنهم يوم القيامة وذلك لأن الآية إخبار وليست إيعاداً حتى نقول يمكن أن يدركهم العفو الإلهي فالفارق كبير بين أن يقول الحق: من عمل كذا وكذا أعذبه عذاباً أليما وبين صيغة نفي الخلاق بلا الجنسية .

﴿فِي ٱلْأَخِرَةِ﴾

---

(١) ينظر ابن عقيل على الألفية: ج ١ /ص٣٠٨ .

(٢) أنظر التفسير الكبير ج٣ /ص٢٦٦ و البحر المحيط ج ٣ /ص٢٢٦ . ومجمع البيان ج٢ /ص٣٢٧ .

وأما في الدنيا فنصيبهم وافر لأن الله مع كل عبد على ما يكون العبد من نفسه ومن ربه فجميع أعمال الخير التي يعملها الإنسان من أجل الكسب الدنيوي لا يُمنع من نتائجها مؤمنٌ ولا كافرٌ خيِّر ولا شرير ولكن الله سبحانه يعطي المؤمن من فائض إحسانه ما يتنعم به في الحياة الآخرة بناءً على نيته على فعل الخير واستشعاره بالعبودية لربه.

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾

انتقل النص في النفي إلى سياق آخر فلم يقل: ولا كلام لهم مع الله أو لا كلام من الله لهم، لا يكلمهم: ينفي تجديد الكلام مرة بعد أخرى ولا دلالة لنفي المضارع على العموم وهذا يلغي الاستشكال الذي أورده الرازي رحمه الله حيث قال: "ولا يكلمهم الله" ففيه سؤال وهو أنه تعالى قال:" فوربك لنسألنَّهم أجمعين عما كانوا يعملون" الحجر:-٩٢-٩٣- وقال:"فلَنَسألنَّ الذين أرسل إليهم ولَنَسألن المرسلين" الأعراف:٦ فكيف الجمع بين هاتين ألالآيتين ؟."[1]

لو شئت أن تقول إن تقديم المفعول يدل على التخصيص فيكون المعنى: ولا يخصهم الله بكلام فلك ذلك والنص يدل عليه وهو يبعد النص عما استشكله الرازي رحمه الله وهذه ألمعية النص القرآني المعصوم عن الزيغ والخطأ.

﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾

يأتي في تحليل هذه الجملة ما ذكرناه في الجملة التي قبلها فلا نعيده.

والنظر: تأمل الشيء بالعين وقد نظر إلى الشيء[2] والرؤية هي مطلق

(١) التفسير الكبير ج٣ /ص٢٦٦-٢٦٧ .

(٢) مختار الصحاح ص: ٢٧٨ .

حصول الصورة ومنه قوله تعالى:" فلما تراءى الجمعان" ومن المعلوم أنك لا تتأمل شيئاً بعينك إلا إذا كان لك غرض في هذا التأمل إما حبا أو إعجابا أو عطفاً أو غير ذلك.

﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾

مفرد مضاف أي كل يوم القيامة أي كل أجزائه.

﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾

زكى الزرع: أي نما فهو فعل لازم وإذا أردت إيقاع الزيادة والنماء على غيرك احتجت إلى حرف من حروف التعدية أو أكثر فتقول: أزكيتُ الزرع بقيامي عليه أو تقول: زكّيت الزرع كذلك وسميت فريضة المال: زكاة لأن الله تعالى تعهد في كتابه بتعويض المعطي بأكثر مما أعطى وكذلك تزكية النفس إنما تأتي بزيادة فضائلها ولكن لما كانت زيادة الفضائل تصاحب تطهيرها من الرذائل قيل في تزكية النفس أنها التطهير من الرذائل ومن هذا الباب قوله تعالى:" خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها" فقد جمع بين الأمرين وقدم التطهير على التزكية لأن الفضيلة سوف تقعد مكان الرذيلة الكرم مكان البخل ولذلك ورد عن السلف "التخلية قبل التحلية" وهو أمر جارٍ على سنن الطبيعة.

﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾

ولا يزيدهم لأنه تعالى إنما يزيد من له عمل صالح لذلك اليوم وهؤلاء ليس لهم شيء حتى يزيدهم من عطائه ﷻ هذا رأيي في تفسير هذه الكلمة وقد أعرضت عن بعض الكلام في تفسيرها لجلّة من المفسرين لعدم قناعتي بما

كتبوا[١].

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

تقديم الخبر يفيد الاختصاص وكون الجار يُفيد الملك يزيد من معنى الاختصاص فكأنه يقول: لهم لا لغيرهم بل هو ملكهم واستحقاقهم فلم يأتهم من خارج أنفسهم وصدق من قال:" من أضاع حرفا من القرآن أحوجه الله إليه".

﴿عَذَابٌ﴾

نكرة وللنكرة في باب التخويف والترويع ما ليس للمعرفة بل إن الكثير من الذين يقدَّمون للمحاكم على جنايات لهم يستريحون للنطق بالحكم لتبينه لهم وهكذا يبقى أن لهم عذاباً نكرة إلى يوم يلاقونه حمانا الله وإياكم.

﴿أَلِيمٌ﴾

وصف للعذاب بأنه مؤلم أي يسبب الألم وهو ليس صيغة اسم الفاعل بل على صيغة المبالغة هو عذاب مؤلم جدا كيف ؟ وبماذا ؟ وكم ؟ كل هذا مبهم.

ولكن النص تغيرت صياغته عن سابقاته فلو قال ويعذبهم الله عذاباً أليماً لكان جارياً على سنن الجمل السابقة فلماذا هذا التغيير؟ الجملة الاسمية تفيد إثبات الخبر للمبتدأ من غير التعرض لاستمراره وتجدده فمن أوقع الله عليه عذاباً أليماً ولو مرة أو في لحظة صدق الخبر، ولكن لو جاء الإخبار بالجملة الفعلية عنهم ويعذبهم عذاباً أليماً لإفادة التجدد، وهذا من رحمة الله ليبقي باب العفو أو التخفيف مفتوحاً.

---

(١) انظر التفسير الكبير :ج٣ /ص٢٦٧ . والكشاف: ج١ /ص٤٣٩ والبحر المحيط:ج ٣ /ص٢٢٦ .

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا ﴾

الضمير يعود إلى الذين: أي أن الخطاب يتحدث عن جماعة من الذين يشترون بعهد الله...يقومون بلي ألسنتهم.. قوله تعالى:﴿وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾[1] والفرقة: الطائفة من الناس والفريق أكثر منهم[2]، أي أكثر من الفرقة وهذا يعني أنه يصح أن نقول: فرقة من الفريق دون العكس.

﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ ﴾

لوى الحبل فتَلَهُ يلويه لياً ولوى رأسه وألوى برأسه: أماله وأعرض قال في الكشاف:" يلوون ألسنتهم بالكتاب" يفتلونها بقراءته -الكتاب- عن الصحيح إلى المحرف ويجوز أن المراد يعطفون ألسنتهم بشبه الكتاب لتحسبوا ذلك الشبه من الكتاب[3] وقال الرازي: "يلوون ألسنتهم" قال القفّال: معناه أن يعمدوا إلى اللفظة فيحرفوها في حركات الإعراب يتغير به المعنى وهذا كثير في لسان العرب فلا يبعد أن يكون مثله في العبرانية فلما فعلوا ذلك في الآيات الدالة على نبوة محمدﷺ من التوراة كان ذلك هو المراد من قوله تعالى:"يلوون ألسنتهم" وهذا تأويل في غاية الحسن[4]، والدقة في التحليل لهيكل النص تلزمنا التفريق بين هذين التعبيرين:"

---

(١) النساء: ٤٦.

(٢) مختار الصحاح ص: ٢١٢.

(٣) الكشاف ج:١ / ص: ٤٣٩.

(٤) التفسير الكبير ج:٣ /ص:٢٦٨.

يلوون ألسنتهم بالكتاب" و يلوون الكتاب بألسنتهم" حتى لا نقع في خطأ في فهم النص، فما ذكره الزمخشري أقرب إلى لي الكتاب بألسنتهم منه إلى لي ألسنتهم بالكتاب ولا سيما أن "يلوون" من لوى لا من ألوى وإذا قلت لويت الحبل بيدي يكون الملتوي الحبل وليس يدك، وأما ما استحسنه الرازي من تحليل القفَّال وقال عنه: في غاية الحسن فهو حقاً حسن، وهو يصلح للتمثيل للنص فهو واحد مما ينطبق عليه النص ولكن النص أعم من ذلك ومثله ما ذكر الزمخشري تجويزاً بقوله "يعطفون....الخ" فلي اللسان بالكتاب يقع إذا أعطينا الكلمة غير معناها الصحيح أو فسَّرناها بالتأويل البعيد الذي تحتمله لغة النص، أو أضفنا قيوداً على النص ويجمع هذه المعاني الإنحراف في لفظ النص أو معناه والله أعلم.

﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾

الحسبان: الظن والتخمين، والهاء من لتحسبوه قال في الكشاف: تعود إلى ما دل عليه "يلوون ألسنتهم بالكتاب" وهو المحرَّف"(١) وإذا كان جل همهم أن نحسبه دل على أنهم لا يطمعون بيقين وذلك إما لشهرة هذا الفريق بالكذب وإما للمغالاة في عداء المسلمين وإما مخافة الرجوع إلى الصادقين الأمناء منهم على كتاب الله التوراة أو الإنجيل فينبغي أن لا ننسى أن القرآن الكريم جعلهم فريقاً من الذين يشترون بكتاب الله... الخ لا كلهم فهم يحرفون النص التوراتي أو الإنجيلي إما في لفظه أو في معناه ولكن لماذا يريدون أن يقنعونا ولو إلى درجة الظن أن ما يقولوه من كتابهم؟ سياق الآيات لا يدل على أن هذه الطائفة أو الفريق من اليهود أو من النصارى ثم أن أغلب المفسرين يذهب إلى أن الذي عمدوا إليه بالتزوير إنما

---

(١) الكشاف ج:١/ ص: ٤٣٩.

هو صفة النبي محمدﷺ وليس في النص دلالة على هذا أو ذاك، بل سياق هذه الآية والتي قبلها يمكن حمله على إرادتهم التحايل على المسلمين بأن كتابهم لم يجعل عليهم سبيلاً في هضم حقوق الأميين، وعلى هذا فيمكن أن يفسر ليُّ اللسان بالكتاب ادعاؤهم أن كتابهم يقول كذا وكذا وهو عبري وليس بعربي فيفسروه للعرب حسب ما يحلو لهم وبهذا المعنى تكون الآية واضحة الدلالة على هذا الغرض.

وهذا تابع لإخبار الله عنهم أنهم يلوون ألسنتهم بالكتاب لهذا الغرض ولم يقولوا هم أنه من الكتاب بل الذي يقولونه هم إنما هو: "ويقولون هو من عند الله" فيرد الله عليهم "وما هو من عند الله" فيكون تقدير الآية: وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب ويقولون هذا من عند الله وما هو من عند الله لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب، غاية ما في النص أن الله ﷻ قدم الإخبار عن نيتهم ودوافعهم على الإخبار عن قولهم وأحسب أن النص جاء على هذه الصيغة للدلالة على أمرين: **الأول:** أن النية تسبق الفعل من حيث الوقوع فاستحقت التقدم في الحديث عنها.

الثاني: أن في كشف نيتهم قبل ظهورها يستهدف فائدتين: الأولى: تعريف المسلمين بما ينوي هذا الفريق عمله معهم ليكونوا على بينة من أمرهم.

الثانية: إحباط ما ينوي هذا الفريق عمله قبل وقوعه وبعث اليأس في نفوسهم وقد انكشف مكرهم وبان كيدهم وصار المسلمون يتكلمون به قبل وقوعه ،إذا عرفت هذا نجوت من توهم التكرار في النص أولاً واستغنيت عما يذكره بعض المفسرين من الفارق بين الخبرين المكررين حسب وجهة نظرهم(١) وبعد هذا التحليل أنقل لك صورة جميلة من صور عدم المغالاة في تسفيه آراء الآخرين وإن

(١) انظر التفسير الكبير ج: ٣ / ص: ٢٦٨.

كانوا من أشد الناس عداوة وحقداً وكيداً. قال الإمام الرازي رحمه الله متسائلاً: "كيف يمكن إدخال التحريف في التوراة مع شهرتها العظيمة بين الناس؟ وأجاب بما يأتي: لعله صدر هذا العمل عن نفر قليل يجوز عليهم التواطؤ على التحريف ثم أنهم عرضوا ذلك المحرف على العوام وعلى هذا التقدير يكون هذا التحريف ممكناً".

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ وَلَا أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾

ما نافية وكان: تدل على الحدث المطلق غير المقيد زماناً أو مكاناً أو صفة واللام في قوله: "لبشر" للنسبة، كما تقول: ما ضربٌ لزيد أو ما علمٌ لزيد، لأن المقصود بالحدث هو المصدر وهو في كان: الكون أي الوجود أو الثبوت أو ما قارب هذه المعاني والنفي إذا توجه إلى الحدث أفاد نفي الحقيقة لأن الحقائق إنما هي المصادر كالعلم والحياة والوجود وغيرها فيكون المعنى: ما وجود نسبة كذا إلى بشر أي ما ثبت مطلقاً لبشر.

﴿أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾

هذا النص القرآني أنزل على محمدﷺ وهو خاتم الأنبياء والمرسلين وهذا النص من الكتاب الخاتم لجميع الكتب فليس بعده كتاب فلماذا جاء بالفعل المضارع الدال على الاستقبال "يؤتيه"؟ هو يعلم أن نبيا بعده بشرعٍ جديد سوف لن يأتي ولن يكون ثم لماذا لم يأت التعبير هكذا: لم يؤت الله الكتاب... الخ؟ ومن المعلوم أن "لم" تدل على نفي الماضي والحوار مع أهل الكتاب والظاهر أن الحاجة إلى صيغة نفي تدل على نفي هذه المقولة في الماضي وللجواب على ذلك نقول: لو جاء النص

بالنفي الذي يخص الماضي لقال أهل الكتاب منع عمن مضى ولم يمنع عن نفسه أي محمدﷺ وأيضاً إن النص على نفي الماضي إنما يدل على عدم الوقوع لا على عدم إمكان الوقوع فلما جاء النص بنفي الوجود المطلق دل على عدم إمكان وقوع ذلك من أي بشر يختاره الله برسالته وهذا هو معنى عصمة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم من أن يقع منهم ذلك ألا تسجد العقول لمثل هذه النصوص القرآنية المحكمة؟.

﴿يُؤْتِيَهُ﴾

تقول أتى زيد فتسند الإتيان إلى زيد لأن زيدا يصح أن يقع منه هذا الفعل كما تقول: نزل زيدٌ فإذا أردت نسبة الإتيان إلى من لا يصح وقوعه احتجت إلى نقل الفعل إلى صيغة أخرى إما بزيادة الهمزة كما هنا في "يؤتيه" فإن أصل الفعل: أتى يُأأتي مثل أنزل ينزل فسهلت الهمزة الثانية فصار آتى يآتي فوضعت الهمزة على الواو لأن ما قبلها مضموم فصارت يؤتي وإما بنقل الفعل إلى صيغة التضعيف مثل نزل ونزّل فنقل الأفعال من صيغة إلى صيغة أخرى هذا بعض سرها ولهذا الباب من العلم أثر كبير في معرفة علم التحليل في القرآن الكريم .

وإذا علمت ذلك علمت أن القرآن والكتب السماوية لا تأتي هي وإنما يؤتى بها وفي هذا تسميع بالذين يدعون أن النفس إذا زكت من أدرانها وعلاقاتها الطينية نزل عليها القرآن وانطبع في مرآتها وأنى لهم ذلك والمرسلون والأنبياء لا يأتيهم الكتاب ولكن يؤتونه ؟ .

﴿الْكِتَٰبَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾

قال أبو حيان : " الظاهر أن الحكم هنا القضاء والفصل بين الناس" وقـــال

في تعليل الترتيب لهذه الثلاثة: هذا من باب الترقي بدأ بالكتاب وهو العلم ثم الحكم وهو التمكين وهو الفصل بين الناس ثم الرتبة العليا وهي النبوّة وهي مجمع الخير ومثل قوله قال الرازي[١] وإذا أضفت إلى هذا التعليل علمك بأن ما سبق من آيات القرآن الكريم قد سارت في ذكر المحاورة مع أهل الكتاب على هذا الترتيب نفسه حيث كان النقاش أولاً عن الكتاب وموقفهم منهم ثم محاورتهم في الالتزام بعهد الله وهو حكم ثم ختم الحديث عن النبوة وما يتوهمون فيها من النبوة لله أو حلول الإلوهية فيها ازداد التعليل جمالاً .

﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي﴾

ثم : تفيد الترتيب والاستحالة إنما تكون بعد تلقي الثلاثة الكتاب والحكم والنبوة فالكتاب وحده لا يكون عاصماً من ذلك ومثل الكتاب وحده الكتاب والحكم فالاثنان لا يعصمان من ذلك أيضا ولهذا زل الأحبار والرهبان وقد أوتوا الكتاب والحكم ولكن العصمة في الثلاثة الكتاب والحكم والنبوة ،وهذا أيضاً فيه تسميع بالذين يتوهمون العصمة لغير الأنبياء، فالنبي الذي يتلقى كتابه من ربه ويحكم بهذا الكتاب بين الناس يستحيل عليه في منطق العقل والطبع أن يقول: كونوا عباداً لي من دون الله لأن في ذلك مصادرة لنبوته واختلافاً مع كتابه ومناقضة مع حُكمه في هذا الكتاب .

﴿عِبَادًا﴾

وزن فعال هو الجمع القياسي في لغة العرب لما يكون من الأسماء على وزن فَعْلٌ اذا كانت عين الفعل منه ليست ياء مثل عبد فجمعه القياسي على عباد

(١) البحر المحيط :ج٣ /ص٢٣٠ . والتفسير الكبير :ج٣ /ص٢٧١ .

وأما جمع كلمة عبد على عبيد فقليل جدا[١] ولهذا جاءت "عباد" في القرآن الكريم مستعملة بكثرة كاثرة بلغت - ٩٧ - سبعا وتسعين موضعاً في حين لم تستعمل كلمة عبيد إلا في خمس مواضع وكان أبو محمد بن عطية قد استقرأ استعمال الكلمتين في القرآن الكريم وفي شعر العرب فوجد أن عباداً مستعملة في أهل الطاعة وفي مواضع الثناء وأن عبيدا مستعملة في المواضع التي يقصد فيها العقاب أو الذم[٢]. واليك الآيات التي ذكر فيها جمع عبد على عبيد .

١-٢- قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾.[٣]

٣- قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [٤].

٤- قال تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [٥].

٥- قال تعالى: ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [٦].

وإنما نقلنا لك ذلك كله لأن أبا حيان بعد أن نقل عن أبي محمد بن عطيه ذلك الاستقراء حاول أن يشغب عليه بادعاء استعمال كلمة عبيد في القرآن الكريم من أجل الفاصلة[٧]، مع أن الآيتين الأولى والثانية تختلف فاصلتها عما قبلها وعما

(١) البحر المحيط :ج٣- ص٢٣٠ -٢٣١ .
(٢) نفس المصدر .
(٣) آل عمران : ١٨٢ . و الأنفال :٥١ .
(٤) الحج :١٠ .
(٥) فصلت :٤٦ .
(٦) ق :٢٩ .
(٧) البحر المحيط "ج ٣/ص٢٣١ .

بعدها وكذلك الآية الثالثة من سورة الحج ومن الغرابة بمكان أن هذه الآيات الثلاث جاء قبلها كلمة "عذاب الحريق" وأما الآية الرابعة فتختلف فاصلتها عما قبلها وتتفق مع ما بعدها والآية الرابعة هي الوحيدة التي جاءت فاصلتها متفقة مع ما قبلها ومع ما بعدها وهي التي استدل بها أبو حيان فكأن استقراوه هو الناقص.

﴿كُونُوا عِبَادًا لِّي﴾

من المعلوم أن مفهوم العبد ومفهوم الرب من النسب الإضافية لأنه لا يتعقل مفهوم أحدهما إلا بتعقل مفهوم الآخر فهما متضايفان فمعرفة مفهوم العبد تستلزم معرفة مفهوم الرب لأن الشخص إنما يسمى عبدا إذا كان له رب يملكه وذلك كالأبوة والبنوة، ولهذا كانت هذه الجملة كونوا عباد لي مساوية لقوله: أنا ربكم ولو جاء هذا النص بصيغة الأمر في العبادة مثل: اعبدوني من دون الله لما أدى هذا المعنى لأن النسبة بين العباد وبين الربوبية نسبة اقتضاء واستحقاق فلا يتوقف فهم أحدهما على الآخر لأننا يمكن أن نتصور مفهوم الرب بدون أن نتصور واقع عبادة.

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾

تحتمل وجهين: إما أن تعني من دون أن تكونوا عبادا لله والوجه الثاني: من دون الله أي كونوا عبادا لي ولله وأنا أقرب إليكم من الله وتأخير قوله "لي" يرجح الوجه الثاني فلو أراد الأول لقال: "كونوا لي عبادا".

﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّٰنِيِّۦنَ﴾

لكن: حرف عطف للاستدراك والتحقيق يوجَبُ بها بعد نفي[1] أو نهي إذا عريت من الواو[2] مثال ذلك: ما قام زيد لكن عمروٌ ولا يقم زيد لكن عمروٌ ولكنها في الآية لم تتجرد عن الواو ولهذا جاءت جملة بعدها.

﴿رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾

الرباني: منسوب إلى الرب بزيادة الألف والنون كما يقال في رقباني ولحياني وهو أي الرباني الشديد التمسك بدين الله وطاعته[3]، وأما الرِّبيون: بكسر الراء فهم الألوف من الناس الواحد: رِبِّيٌّ[4].

﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾

أي بسبب كونكم عالمين وبسبب كونكم دارسين أو بسبب كونكم ترشدون الناس وتعلمونهم وبسبب كونكم تقومون بتدريسهم وتعليمهم الكتاب الأول على أن تعلمون وتدرسون بدون تضعيف والثاني على قراءة من ضعفهما[5] قال الزمخشري: وكفى به دليلاً على خيبة سعي من جهد نفسه وكد روحه في جمع العلم ثم لم يجعل ذلك ذريعة إلى العمل[6].

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾

(١) مختار الصحاح ص: ٢٥٢.
(٢) البهجة المرضية بشرح الألفية ص:١٣٥.
(٣) الكشاف ج:١ /ص: ٤٤٠.
(٤) مختار الصحاح ص: ١٠١-١٠٢.
(٥) الكشاف ج:١ / ص: ٤٤٠.
(٦) الكشاف ج:١ / ص: ٤٤٠.

قرأ عاصم وابن عامر وحمزة بنصب الراء فيكون المعنى: ولا له أن يأمركم فقدروا أنْ مضمرة بعد لا وتكون لا مؤكدة معنى النفي السابق والتقدير معهود في كلام العرب، وقرأ بعضهم "ولا يأمُرُكم" بضم الراء على الاستئناف والمعنى على هذه القراءة: أنه لا يقع بشر موصوف بما وصف به أن يجعل نفسه رباً فيعبد ولا هو أيضًا يأمر غيره باتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً فانتفى أن يدعو لنفسه ولغيره[1].

﴿أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ﴾

إنما جاء تخصيص الملائكة والنبيين بالذكر لأن أهل الكتاب لم يقع من أحد منهم عبادة غيرهما[2].

﴿أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾

هذا استفهام تعجبي كيف يعقل أن يدعو النبي الناس إلى عبادة غير الله وهو الذي دعاهم إلى إسلام القلب والوجه لله فهل يعقل بعد أن أسلمتم لله على يديه وبدعوته يأتي ليأمركم أن تكفروا من جديد؟

﴿إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾

هذه شهادة لأهل الكتاب أنهم أسلموا لله مع أنبيائهم ثم اعتراهم الانحراف.

---

(١) البحر المحيط ج:٣ /ص:٢٣٣.

(٢) التفسير الكبير ج: ٣ / ص: ٢٧٣.

الفصل الخامس عشر

في أخذ الميثاق على النبين أن يؤمنوا بمن جاء بعدهم من الرسل المصدقين لما معهم

الفصل الخامس عشر

في أخذ الميثاق على النبيين أن يؤمنوا بمن جاء بعدهم من الرسل المصدقين لما معهم

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ آل عمران: ٨١ - ٩١

في هذا الفصل النص على الحقيقة الكبرى وهي أن الله لم يبعث نبياً ولم يرسل رسولا إلا وأخذ عليه الميثاق أن يؤمن بمن جاء من بعده من رسول ونبي طالما كان هذا الاخر يصدق كتاب الأول في كتابه وكذلك أخذ الله الميثاق لنصره وأشهد الله أنبياءه على ذلك"فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين" بعد هذه المقدمة الموجزة ندخل في تحليل النصوص.

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾

العامل بإذ محذوف تقديره: واذكر إذ... وإذ ظرف تفيد المضي بخلاف إذا الموضوعة للاستقبال.

﴿أَخَذَ ٱللَّهُ﴾

إنما أسند الفعل إلى الله لأن مثل هذا الفعل لا يمكن أن يقع إلا منه ﷻ لأنه هو الذي اختصهم برسالته ونبواته.

﴿مِيثَٰقَ﴾

الميثاق العهد والثقة: الأمان تقول: وثقت به أي ائتمنته[1]، و"ميثاق" مصدر مضاف إلى "النبيين" فاحتمل وجهين:

الأول: أن تكون الإضافة من إضافة المصدر إلى فاعله فيكون المعنى أن الأنبياء هم الذين أخذوا الميثاق على أممهم والله أخذ من النبيين ما أخذوه على أممهم

والثاني: أن تكون الإضافة من إضافة المصدر إلى مفعوله ويكون المعنى أن الله هو الذي أخذ الميثاق على النبيين أن يؤمنوا بمن جاء من بعدهم وهو يصدق

(١) مختار الصحاح ص: ٢٩٥.

ما معهم[١].

وأحسب أن الوجه الثاني هو الراجح لأنه يستلزم الأول دون العكس أي أن أخذ العهد على الأعلى يستلزم أخذ العهد على الأدنى ولكن أخذ العهد على الأدنى لا يستلزم أخذ العهد على الأعلى والله أعلم.

وسواء رجحت هذا أو ذلك فالقضية التي يطرحها القرآن الكريم واحدة في حقيقتها وهي إشعار المملوكين بأن الله هو صاحب الأمر والنهي يرسل الرسول اليوم ويرسل غيره بعد غد وينزل الكتاب اليوم وينزل غيره غداً.

هذه الحقيقة التي لا يني القرآن الكريم من ذكرها الخلق لله إذا انتسبوا إلى نبي وكتاب فإنما ينتسبون إليهما من أجل الله وبأمر الله ولا يجوز لهم أن ينسوا نسبتهم إلى الله أولاً عبادا مملوكين له ﷻ وأنهم إذا اتبعوا رسولهم وكتابهم فإنما يتبعون الله الذي أمرهم بذلك لا عصبية لرسولهم ولا لكتابهم.

﴿لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ﴾

﴿لَمَآ﴾

قرأ الجمهور بفتح اللام على أنّ ما اسم موصول والذي بعده صلة له وخبره قوله: "لتؤمنن به" والتقدير: للذي أتيتكم من كتاب وحكمة، فما مبتدأ واللام الداخلة عليه لام الابتداء للتوكيد كما تقول: لزيد قائمٌ والضمير العائد إلى "ما" محذوف تقديره: لما آتيتكموه.

---

(١) انظر الوجهين في التفسير الكبير ج:٣ / ص: ٢٧٤-٢٧٥.

وقرأ حمزة بكسر اللام وما أسم موصول فتكون للتعليل فكأنه يقول: أخذ الله ميثاق النبيين لهذا لأن من يؤتى الكتاب والحكمة يجب عليه التصديق بكل رسول وكتاب مصدقاً لما معه.

وقرأ سعيد بن جبير لمَّا بتشديد الميم ومعناها حين أي حين آتيتكم(١).

﴿ءَاتَيْتُكُم﴾

التأكيد على أن الكتاب والحكمة إنما همـا من إعطاء الله لهم للدلالة على أنه لا يصح لمن يعطى شيئاً أن يتعصب لذلك الشيء ضد معطيه.

﴿مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾

من بيانية أي أن الكتاب والحكمة ليسا كل ما آتيتكم فأول ما آتيتكم وجودكم وعقولكم وتخصيصكم على الخلق بالخلافة والتكريم فإذا كنتم تدينون لي بهذا كله وأني خلقتكم وأنتم عبادي ومماليكي فكيف لا تقبلون مني رسولاً بعد رسول وكتاباً بعد كتاب والكل من عطائي أنا جل جلال الله.

﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾

﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ﴾

الخطاب في جاءكم إما إلى أمم الأنبياء والمرسلين إن قلنا بالوجه الأول من تفسير ميثاق النبيين وإما إلى الأنبياء على الوجه الثاني الذي رجحناه والمهم أن يفهم الناس أنهم يتبعون أنبياءهم وكتبهم لأمر الله بذلك(٢).

﴿رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾

---

(١) انظر التفسير الكبير ج:٣ / ص:٢٧٥-٢٧٦. الكشاف ج:١ / ص: ٤٤١.

(٢) التفسير الكبير :ج٣/ص٢٧٧ .

يتفق العلماء قاطبة أن العقيدة وما يتصل بها أمرٌ تتفق عليه جميع الديانات الإلهية ولهذا يقولون إن العقائد لا يعتريها النسخ ولا التبديل فلا يوصف الله في ديانة بخلاف ما يوصف به في ديانة أخرى فالله الذي أنزل الكتب وأرسل الرسل هو الذي بين لنا عن نفسه ما بيّن في كتبه وعلى ألسنة رسله. وهذا الجانب الإلهي هو المقصود بالتصديق من النبي الجديد وهو البرهان الصادق الذي لا يعتريه شك على صدق النبي الجديد وذلك لأن الله ﷻ الذي لا تدركه الأبصار وليس كمثله شيء لا يعرف وصفه أحد ولا يحيط أحد به علما وكل ما بيد الناس عن الله إنما هو من هذا الجانب أي ما تلقوه عن ألسنة الرسل وما قرؤوه فيما أنزل من كتاب. فإذا جاء رجل يدعي النبوة فإنما يُعرف صدقه بما يذكره عن الله من صفات لأن هذه الصفات لا يمكن أن يعرفها إلا نبي يتلقى عن الله، وهذه العقيدة وما حولها من مفاهيم تكون بمثابة ختم الملك للدلالة على صدق حامل الكتاب أنه جاء من قبل الملك، وأما الشرائع التي تخص تنظيم العلاقة فيما بين الناس أو ترسم شكل العبادة التي يقوم بها المخلوق لخالقه فهذه وتلك لا يمكن أن نفترض مصادقة الدين اللاحق للدين السابق بها، إذ عند ذلك تنتفي الحاجة إلى الجديد من الدين هذا ما أطمئن إليه من معنى النص والله أعلم.

﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾

اللام لام القسم وهذا هو الميثاق وهو العهد لا يرسل الله رسولاً ولا يبعث نبياً الا ويأخذ عليه هذا العهد الغليظ والله لأؤمنن به والله لأنصرنّه، وهذا العهد وهو إيمان السابق باللاحق أُكد بالقسم وبنون التوكيد الثقيلة وبصياغة النص للجماعة ودلالته على أن الجميع قد أخذ عليهم هذا العهد فيه توكيد آخر لما يتضمنه من معنى إشهاد بعضهم على بعض.

وأنت ترى أن الميثاق يحمل بندين: الإيمان والنصرة ولنتمعن فيهما جيداً يؤمن بمن؟ وينصر من؟ وإنما سمي الرسول رسولاً لأنه يحمل رسالة من غيره إلى غيره وهو يكون مشمولاً بالرسالة التي بيده، المرسل يريد إيصال الرسالة والإيمان بالرسول أنه رسول من المرسل يعني قبول هذه الرسالة التي يحملها من المرسل، إذن فالإيمان بالرسول إنما يراد لإيصال الرسالة التي بيده.

ومن المعلوم بداهة أن الرسالة لم يرسلها من أرسلها من أجل أن تقرأ فقط لأن فيها أمراً ونهياً وفيها أخبار وقصص وفيها وفيها فالإيمان بها إنما هو العمل بها والرسول مبلغ ومبين وأسوة، وعلى هذا الفهم يكون البند الثاني "النصرة" إنما هو نصر رسالته ونصر العمل بها على أعدائها وعلى الصادّين عن العمل بها.

﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِيۖ﴾

﴿ءَأَقْرَرْتُمْ﴾

أي على ما تقدم من الإيمان والنصرة وسواء قلنا أن الميثاق على النبيين من الله أو على الأمم من أنبيائها فيطلب الحق إقرار النبيين على ذلك فيقرون على أنهم أعطوا الميثاق أو على أنهم أخذوا الميثاق على أممهم والإقرار: الإثبات والاعتراف والتصديق. والأخذ: بمعنى القبول أي وقبلتم هذا العهد؟

﴿إِصْرِيۖ﴾

أي عقدي وعهدي قال في الكشاف: سمي العهد إصراً لأنه مما يؤصر أي يشد ويعقد ومنه الإصار الذي يعقد به[١].

﴿قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَاۚ﴾

---

(١) الكشاف ج:١ / ص: ٤٤١. مختار الصحاح ص:١٥.

أي قال النبيون أقررنا، وهذا الخطاب مع ما سبق من السياق في خطاب المجموع وما يأتي من الإشهاد يوحي بإمكان أن يكون الله قد جمعهم عليهم الصلاة والسلام وأخذ عليهم هذا العهد والميثاق وهو معنى يوحي به النص ولا يرده السياق وفي القرآن الكريم ما هو مثله من أخذ العهد علـــى ذرية آدم بالإقرار بوحدانيـــة الله ﷻ والله أعلم.

﴿قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾

هذه الآية فيها من معاني التنزيل الإلهي لعباده ما لو استشعره العبد بكله لخر خاشعاً لله رب العالمين، ترى لماذا يتنزل المالك لمملوكيه كل هذا التنزيل؟ عهد وإقرار وإشهاد اشهدوا! لمن وعلى من؟ وأمام محكمة من؟ أترانا نتنزل مع أهلينا مثل هذا التنزُل؟ أترى قادة الناس من الناس يفعلون ذلك مع الناس؟ إنه الرب ونحن العباد إنه المالك ونحن المملوكون لا يمكن أن يعاملنا غير ربنا مثل ربنا ولهذا نقول: الحمد لله رب العالمين.

قال الرازي: وفي تفسير قوله "فاشهدوا" وجوه: **الأول:** فليشهد بعضكم على بعض بالإقرار وأنا على إقراركم وإشهاد بعضكم بعضاً.

الثاني: أنه خطاب للملائكة الحاضرين هذا الميثاق بطريق الإلتفات.

الثالث: أي ليجعل كل أحد نفسه شاهداً على نفسه ونظيره "وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا" وهذا من باب المبالغة(١)، وذكر وجوهاً أخرى استبعدناها عن بحثنا فانظرها إن شئت.

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾

---

(١) التفسير الكبير ج:٣/ ص:٢٧٨.

﴿تَوَلَّىٰ﴾

أي أعرض "بعد ذلك" أي بعد هذا العهد والميثاق.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾

أي بعد ظهور الدليل وهو تصديق ما جاء به الرسول أو النبي الجديد لما جاء به الرسول أو النبي الذي قبله.

﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾

فسق عن أمر ربه: أي خرج وفسقت الرطبة: خرجت عن قشرها قال ابن الأعرابي: لم يسمع قط في كلام الجاهلية ولا في شعرهم فاسق قال: وهذا عجب وهو كلام عربي[١].

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ﴾

﴿تَوَلَّىٰ﴾

فعل الشرط وهو فعل ماض ومن المعروف أن من وجميع أخواتها من أدوات الشرط تقلب الفعل الماضي إلى الاستقبال وسواء في ذلك فعل الشرط وجزاؤه.

وقبل أن نغادر هذه الآية التي كانت كالتعقيبة للآية التي قبلها أفلا يحس القارئ معي أن النص يحمل في طياته روحا استعلائية عظمى؟ هل بالإمكان أن يتحدر هذا النص بهذا العنف العنيف والقسوة القاسية من روح وادعة كلها أمل وعبودية وتبتل؟ أنظر إلى من يوجّه هذا الخطاب ثم تمعن في فهمه وقل لي بعد ذلك ممن يكون؟ إن مثل هذه النصوص تدعو رواد الأدب وقادة النقد الذاتي

(١) مختار الصحاح ص: ٢١٣.

وأساتذة علم النفس ليحللوا هذا الخطاب من جوانبه المتعددة ويقرروا بعد ذلك المصدر الذي يمكن أن يُصدِر مثل هذا القرار هذا أولاً.

وثانياً: لعل القارئ يسأل لماذا تخطيت ما درج عليه أكثر المفسرين من أن هذه الآية والتي قبلها إنما جاءت للتأكيد على أن جميع الكتب والأنبياء السابقين قد بشروا بمجيء الخاتمﷺ وأن الميثاق إنما كان للإيمان به ولنصرته ونعتذر لهؤلاء المحببين بأن الروح العام هو الطاغي على كلمات النص وحروفه وبما أن محمداً ﷺ واحد ممن ينطبق عليه النص فينبغي أن لا نقيد النص الحاكم بالحادثة التي حكم فيها وإلا انقلب المحكوم حاكما والنص بعمومه فيه تصديق لعيسى عليه السلام في حكمه بالكفر على من لم يؤمن به من يهود فيكون بهذا العموم دامغاً اليهود بالكفر مرتين الأولى عندما لم يؤمنوا بعيسى عليه السلام والثانية حين كفروا بمحمد ﷺ وكذلك يبقى النص حاكماً عند مجيء عيسى عليه السلام ويكون نبياً يحكم فينا أمة محمد ﷺ فمن كفر بنبوته لحقه الحكم نفسه وإن كان يحكم بالقران الكريم وبما ثبت أن النبي ﷺ قاله من بيان والله أعلم.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾

الهمزة للاستفهام الإنكاري والفاء حرف عطف والمستفهم عنه بإنكار إنما هو فعل محذوف والتقدير: أيتولون فغير دين الله يبغون؟وقدم المفعول الذي هو غير دين الله على فعله الذي هو يبغون لأنه أهم من حيث الإنكار الذي هو معنى الهمزة وقد توجه إلى الدين الباطل(١).

---

(١) الكشاف ج:١ /ص:٤٤١-٤٤٢.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ﴾

قد يقول قائل: كيف سماه غير دين الله وهم على دين أنبيائهم؟

ويجاب عن هذا بأن الله ﷻ جعل دينه الإسلام له لا تعاليم بعينها فان الشرائع والتعاليم إنما تكون دين الله من حيث أمر الله بها فإذا أبطلها أو أمر بغيرها لم تعد دين الله كالقانون الملغي والنقد الملغي.

﴿دِينِ ٱللَّهِ﴾

دِين: بكسر الدال مصدر دان يدين على وزن عَلِم يعلم وأما الدَّين فهو مصدر دان يدين على وزن باع يبيع.

والدين بكسر الدال: العادة والشأن والجزاء والمكافأة والطاعة والملك فيقال: دانه أي جازه أو كافأه ويقال: دانه أي ملكه[١].

ودين الله :طاعته وأمره ونهيه والاسلام له.

﴿يَبْغُونَ﴾

البغية: بكسر الباء وضمها الحاجة وبغى الشيء طلبه وقولهم: ينبغي لك أن تفعل كذا: من أفعال المطاوعة تقول: بغاه فانبغى مثل كسرته فانكسر[٢].

﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾

قدم الجار والمجرور لإفادة الحصر ومعنى أسلم: انقاد أي أن من في السموات والأرض منقادون لله.

---

(١) مختار الصحاح ص: ٩٧.

(٢) المصدر نفسه ص: ٣٢.

خلق الله بعض خلقه يسير على ناموس بعينه -الكواكب والنبات والأحياء عدا عالمي الإنس والجن من المكلفين وعدا الملائكة المفطورين على الطاعة- وخلق البعض الآخر على الاختيار في مسيره وهم الإنس والجن فلا الذين خلقهم على ناموس بقادرين أن يغادروا هذا الناموس ولا المخلوقين على الاختيار بقادرين أن يغادروا قدرتهم على هذا الاختيار، فالكل مسلم في خلقه على الحالة التي خلقهم عليها[1].

﴿مَن فِي ...﴾

تستعمل من للعاقل والعاقل في اللسان العربي من المخلوقين الملائكة والأنس والجن وشملت هنا غيرهم من غير العاقلين تغليباً للعاقل على غيره هكذا يجيب أهل اللسان في العربية، والذي يصغي إلى القرآن الكريم قد يجيب بغير هذا الجواب فإن الله ﷻ وهو الخبير بخلقه تحدث عنهم بغير ما يعرفه الناس عن خلقه تحدث عن النحل وعن النمل وعن... وعن وقال عن الجميع ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[2].

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾

جمع السماوات وفُراد الأرض ولو كنا نعيش على القمر لقال: السماوات والقمر وهكذا أينما تكون أنت فالباقي سماوات بالنسبة إليك لأن السماء كل ما علاك والعلو والسُّفل من الأمور النسبية هذا ما عنَّ لي والله أعلم.

---

(١) انظر البحر المحيط ج:٣ /ص: ٢٤٧.

(٢) الإسراء: ٤٤.

﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾

الطوع: هو الانقياد والاستسلام تقول: هو طوع يديه أي منقاد له والمطاوعة: الموافقة ومنه أفعال المطاوعة[١]. والطوع: الذي لا تكلف فيه[٢]، وبهذا يكون طوعاً بمعنى إسلاما فكأنه قال: وله أسلم... إسلاماً، والكره: بفتح الكاف ما فيه مشقة قال أبو حيان:" بمعنى أن التكاليف جاءت على مخالفة الشهوات النفسانية فلو لم يأت رسول من الله مبشر بالثواب ومنذر بالعقاب لم يلتزم الإنسان شيئاً من التكاليف كذا قال"[٣]. وفي مختار الصحاح:الكره بالضم: المشقة وبالفتح الإكراه يقال: قام على كره بالضم أي على مشقة وأقامه فلان على كره بالفتح أي أكرهه على القيام[٤] وهو على هذا بمعنى الاستسلام فكأنه يقول: اسلم إسلاماً واستسلاماً.

﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾

فيه احتمالات ثلاثة:

الأول: أن يكون العطف على صدر الآية "أفغير دين الله يبغون...وإليه يرجعون" فيكون على التهديد عند ابتغاء غير دين الله.

الثاني: أن يكون العطف على قوله: "وله أسلم... وإليه يرجعون" فكأنه يقول لهم كيف تبغون غير دين الله ومن في السماء والأرض أسلموا لله ورجعوا إليه في حاجتهم؟

---

(١) مختار الصحاح ص: ١٧٠-١٧١.

(٢) البحر المحيط ج:٣/ ص: ٢٤٧.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) مختار الصحاح ص: ٢٣٩.

الثالث: أن يكون استئناف خبر جديد وهو أن مصيرهم ومنقلبهم إلى الله فيجازيهم بما كانوا يعلمون[١].

وعندما نقول فيه ثلاثة احتمالات أو أن نصاً فيه أقل أو أكثر فإنما ذلك بالنسبة إلى فهمنا نحن البشر الذين يستقون المعنى من ظاهرة النص وهو مصوغ بلغة البشر وما يألفون ويعرفون من معان وأفكار أما بالنسبة للخالق جلّ جلاله فقد صاغ هذا النص وهو على علم بما يحتمل من معان وما يعطي من أفكار، ومن المعلوم أن النص إذا وضع بعلم وكما نقول نحن البشر وعلى عمد لا يجوز أن يوصف أي احتمال بالخطأ لأن الخطأ إنما يوصف به من أخطأ مقصود الناس وهذا إنما يمكن افتراضه في كلام البشر لا في كلام الله تعالى هذا رأيي وهو ما أدين الله به فإن أصبت فبتوفيق الله وإن أخطأت فحسبي أني اجتهدت والله غفور رحيم.

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾

التصدير بقل كالرد على ما يقتضيه الإنكار في الآية السابقة فكأنه يقول: كلا لا نبغي غير دين الله ديناً بل آمنا بالله...الخ.

﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾

أصل الفعل: أمن تقول: أمن زيد أي صار آمناً فإذا أدخلت عليه الأمان قلت: أأمنت زيداً أي جعلته آمناً فإذا عبرت عن نفسك قلت: أأمنتُ بزيد أي أن زيداً

(١) انظر البحر المحيط ج: ٣/ ص: ٢٤٨.

هو الذي جعلك في أمْنٍ وبما أن الفعل الثلاثي مهموز الفاء فإذا دخلت عليه همزة التعدية اجتمعت همزتان فسهّلت الثانية ألفاً فصارت آمن وهي مشابهة لصيغة فاعَلَ فإذا قلت آمن زيد عمرا إن حملتها على المزيد بهمزة صار معناها أن زيدا أدخل أو أعطى الأمن لعمروٍ وإن حملته على المزيد ألفا للمفاعلة صار معناها أن كل واحدٍ منهما أمن صاحبه.

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾

أي بالله وبما أنزل علينا قال في الكشاف: فإن قلت: لمَ عُدِّي أنزل في هذه الآية بحرف الاستعلاء وفيما تقدم من مثلها بحرف الانتهاء؟ قلت: لوجود المعنيين جميعاً لأن الوحي ينزل من فوق وينتهي إلى الرسل فجاء تارة بأحد المعنيين وأخرى بالآخر(١).

﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾

أحسب أن تغيير الخطاب في الكلام على موسى وعيسى والنبيين إلى هذه الصيغة "وما أوتي" بدل "وما أنزل" فيه ترفق بأهل الكتاب إذ كان حبهم وولعهم وتمسكهم بموسى وعيسى وبالنبيين ليس من الولع بالكتاب المنزل بل بما أوتي كل واحد منهم من الآيات على صدق رسالته ونبوته فما أوتي كل منهم أقرب إلى نفوس متبعيهم مما أنزل عليهم فأراد القرآن أو الله في القرآن أن يوصل إليهم رسالة مفادها أن من آمن بمحمد ﷺ وكتابه يؤمن بكل ما أوتي موسى عليه السلام من الآيات وبكل ما أوتي عيسى أيضا بل أراد الله ﷻ أن يقول لهم أن محمداً ﷺ وكتابه أحفظ للأجيال المتعاقبة لما أوتي موسى وعيسى عليهما السلام، ألا ترى أن إيمان من يؤمن

---

(١) الكشاف ج: ١/ ص: ٤٤٢.

اليوم بما أوتي موسى وعيسى من عطاء الإيمان بمحمدﷺ وكتابه وليس من عطاء التوراة والإنجيل؟ إن القرآن قد حفظ ما أوتي موسى وعيسى وما أوتي الأنبياء والمرسلون من قبلهما ومن بعدهما ولولا هذا الحفظ الكريم لرأيت اليهود والنصارى أعجز من أن يثبتوا ذلك أو بعضه ولرأيت الإيمان بما أوتي موسى وعيسى أدنى إلى الخرافة منه إلى الحقيقة.

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾

كل مسلم من عالم وجاهل وعربي وأعجمي وذكر وأنثى يؤمن بأن الأنبياء من لدن آدم إلى الخاتم محمدﷺ إنما يستقون من عين واحدة كلهم يأمرون بما أمر الله وينهون عما نهى الله عنه ليس لهم من ذات أنفسهم شيء من الدين ولا طمع في نبوة أو رسالة، وتلك هي عالمية الإيمان في الإسلام يؤمن أهله بكل ما آمن به من مؤمن بالله ورسالته على أي كتاب كان وأي رسول أو نبي تابع يؤمن أهل القرآن وأتباع محمدﷺ بكل كتاب أنزل وبكل نبي أرسل وبكل إنسان نُبِّئ لا يفرقون بين الإيمان بمحمد والإيمان بنوح أو إبراهيم أو موسى أو عيسى أو غيرهم لا يُعدُّ المسلم مسلماً إلا بأن يؤمن بالكل فلو كفر بواحد عُدَّ كافراً بالكل أليست هذه عالمية الإيمان التي لا يقوم بها دين ولا أهل دين إلا الإسلام وأهله.

والفارق بين لا نفرق ولا يفرق أن الأولى ليست خبراً بل ميثاقاً ولهذا يستغرق الزمن كله وأما لا يفرق فالنفي عن الغير يصدق على غالب الظن أولاً وعلى نفي التجدد ثانياً.

﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾

له أي لله وحده فليس التسليم لكتاب بخصوصه ولا لنبي أو رسول باسمه أو بشخصه آمنا بالله فآمنا بكل كتبه وأنبيائه ورسله لا نفرق بين أحد منهم لأن

المرسل والمنزل واحدﷻ فنحن مملوكون له لا لغيره لا يختلف إنسان عن إنسان في هذه المملوكية رسولا كان أو نبيا أو كان من عامة الناس بل الرسل والأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه أكثر الناس شعورا بهذه المملوكية وأكثرهم أداءً لحقوقها.

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾

قلنا أن الابتغاء الطلب ومن يبتغ: أي ومن يطلب.

﴿غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا ﴾

الإسلام: مصدر أسلم فإسلام الشخص نفسه لربه هو الدين كله هذا هو الدين الذي دعت إليه الكتب المنزلة من الله وهو الدين الذي نادت به الأنبياء والرسل إسلامك النفس لله يجعل من السهل عليك أن تنتقل من التوراة إلى الإنجيل ومن هذين إلى القرآن ومن موسى إلى عيسى ومن عيسى إلى محمدﷺ أجمعين أنظر لنفسك فإن الفارق كبير جدا بين من آمن بالله لأنه أنزل التوراة وبين من آمن بالتوراة لأن الله أنزلها الفارق كبير جدا بين أن تحب الله لأنه أنزل القرآن وبين أن تحب القرآن لأن الله أنزله المسلمون أسلموا لله فتركوا دين الآباء والأجداد ومن تمسك بالتوراة والإنجيل آمن وأسلم للتوراة والإنجيل فترك الله والإيمان به، محمدﷺ علم الناس أن دينه الإسلام لله لا له وبذلك استحق دينه أن يسمى الإسلام وكذلك كان الرسل من قبله ولكن الناس ضلوا الطريق فأسلموا للتوراة وموسى لا لله وللإنجيل وعيسى لا لله هدانا الله وإياهم إلى الإسلام لله لا لغيره وإذا عرفت ذلك لم يبق معنى للخلاف في المراد من كلمة الإسلام في هذه الآية(١).

(١) انظر البحر المحيط ج: ٣/ ص: ٢٤٩-٢٥٠. التفسير الكبير ج:٣ / ص:٢٨٢

﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾

كيف يرضى الملك أن تتبع رسولا وأنت تنسى أنه رسول؟ كيف يرضى الملك أن تعبد الرسول وتكفر بالمرسل؟ تلك وأيم الله ضرورة من ضرورات العقل ما كان ينبغي أن يجهلها أحد.

﴿وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾

قال في الكشاف: "من الخاسرين" من الذين وقعوا في الخسران مطلقاً من غير تقييد للشياع[1] أي أن القرآن لم يذكر الخاسرين من ماذا؟ وذلك من أدلة العموم الذي عبر عنه أبو القاسم الزمخشري بالشياع وهو مصدر شاع يشيع إذا انتشر.

﴿وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ﴾

أي في آخرة الأمر أو في آخرة الحال أو في الآخرة المعهودة وهي الحياة الآخرة.

﴿كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

﴿كَيْفَ﴾

اسم مبهم غير متمكن وإنما حرك لالتقاء الساكنين وهو للاستفهام عن الأحوال وقد يقع للتعجب[2] مثل هذه الآية وذلك لأن الله لا يخفى عليه شيء حتى يستفهم عنه.

---

(١) الكشاف ج:١ / ص:٤٤٢.

(٢) مختار الصحاح ص: ٢٤٥ .

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾

لا زال الخطاب يتحدث لنا عن أهل الكتاب من الذين لم يؤمنوا بالدين الجديد[١]إنهم أمنوا بالله وآمنوا بالتوراة أو بالتوراة والإنجيل وما من كتاب إلهي ولا نبي قبل محمدﷺ يقول للناس أنا الخاتم فلا كتاب بعدي ولا نبي بل إن الكتابين يبشران بمجيء كتاب بعدهما، فإيمانهم اليهود والنصارى يلزمهم عدم الوقوف عندها بعد مجيء الكتاب الخاتم والنبي الخاتم فلما جاءهم القرآن الكريم ومن أنزل عليهﷺ وكفروا به فقد كفروا من جهتين بما في كتابهم من التبشير بالدين الجديد وبالدين الجديد أيضاً فإذا طلبوا الهداية من كتابهم بعد إلغائه ونسخه كانوا كمن يريد التعامل بنقد بعد إلغائه كيف يعاملهم الناس بهذا النقد الملغي؟

﴿وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ﴾

الواو للعطف وشهدوا معطوف على كفروا من عطف الجملة على الجملة والواو لا تقتضي الترتيب لأن شهادتهم قبل كفرهم هذا ما ذهب إليه ابن عطية[٢]، وأحسب أن الذي حسن هذا العطف مع مغايرة الترتيب أن الجملتين موقعهما النعت لقوله" قوماً" والقاعدة في ذكر الصفات المتعددة أن تذكر حسب الأهمية في موضع الخطاب لا حسب النظم الوقوعي في الزمن، وهذا أفضل من اختيار الزمخشري أن العطف على آمنوا المفهوم من إيمانهم وأفضل أيضا من تجويزه أن تكون الواو واو الحال ويقدر "قد" بعدها على تقدير: وقد شهدوا.[٣]

---

(١) البحر المحيط ج ٣ /ص٢٥١ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) الكشاف:ج١ /ص٤٤٢ .

﴿وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ﴾

قال أبو حيان: والرسول هنا: محمدﷺ قاله الجمهور وجوَّز أن يكون الرسول هنا بمعنى الرسالة قال: وفيه بعد[1] والذي يرجح قول الجمهور أن كلمة "رسول" ليست مصدراً بل هي اسم فاعل فكيف يُفسَّر بالرسالة ثم إن الألف واللام الداخلة عليه ترشح أن يكون ما دخلت عليه معهودا ذكراً أو ذهناً وأن يكون له مدخلٌ في الإيمان والكفر بالنسبة لأهل الكتاب الذين كفروا بمحمدﷺ ومن المعلوم أنهم كفروا برسول وهو محمدﷺ ولم يكفروا بعموم الرسالة، على أن النص ليس فيه دلالة واضحة على أنهم آمنوا بمحمدﷺ ودخلوا في الإسلام بل الأقرب في دلالة النص أنهم شهدوا أن هذا الرسول الموصوف عندهم في التوراة والإنجيل حق يجب عليهم الإيمان به ولهذا اضطروا بعد مجيء محمدﷺ أن يزوروا صفته على أتباعهم لكي لا تنطبق عليه صفته فيطالبونهم بالإيمان بهﷺ ومن المعلوم أن أهل الكتاب- اليهود والنصارى- يشهدون أن الرسول الذي صفته في كتبهم حق ولكنهم ينتظرون مجيئه ؟ قاتل الله الضلال والتيه فكم أعمى من قبيل؟!!

﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ﴾

البينات: أدلة النبيين والمرسلين على صدق دعواهم النبوة والرسالة وهي جمع بينة ويكتفي من المفسرين من علق على إسناد الفعل إلى المؤنث المجازي بالقول: أن الفعل إذا أسند إلى المؤنث المجازي ولم يتقدم على الفعل جاز فيه وجهان إلحاق تاء التأنيث وعدم إلحاقها فيجوز أن تقول: جاءتهم البينات وجاءهم البينات، وذهب بعض من لقيتهم من مشايخ العلم إلى التفريق في مواطن الخطاب

(١) البحر المحيط ج ٤ /ص٢٥٢ .

فإن كان هذا المؤنث مجازياً قد كان له أثر وفعل في الواقع جاء الفعل قبله خالياً من علامة التأنيث؛ وإن كان عديم الأثر في موقع الخطاب جاء الفعل مصحوباً بتاء التأنيث، وبناء هذا الفارق كما يقولون على أن التأنيث من مقولة الإنفعال وأن التذكير من مقولة الفعل أي التأثير لا التأثر والله أعلم.

وأنت ترى أن البينات التي جاء بها محمدﷺ على صدق دعواه في غاية التأثر بل التحدي وحقائقها كما تطرب العقلاء بيانا تضرب السفهاء تقريعاً وإهانة.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

لا نافية دخلت على فعل مضارع وهو يفيد التجدد فيكون النفي متوجهاً إلى تجدد هدايتهم فإذا قلت: فلان لا يدرس أو لا يفهم فليس معناه نفي الدراسة والفهم مطلقاً بل نفي التجدد فيهما فإن أردت الدوام والتجدد في النفي قلت: لا يدرس أبداً والهداية هنا هداية الإيصال لأن هداية الدلالة عامة لظالم وغير ظالم.

فيكون معنى لا يهديهم: أي لا يأخذ بأيديهم بل يتركهم إلى نفوسهم فإن شاءوا اهتدوا وإلا فلا ويعد هذا قيدا آخر على المنفي فلا يهديهم دائماً هداية إيصال ويقابل النفي: وقد يهديهم أحياناً هداية إيصال وكم من ظالم هداه الله بدعوة أحد والديه أو بعمل صالح يقوم به فتدركه العناية الإلهية فيأخذ بيديه، غفرانك اللهم.

﴿ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

الألف واللام في " القوم" تحتمل وجهين:

الأول: أن تكون عهدية فيكون النص متحدثا عن صنف بعينهم.

الثاني: أن تكون جنسية فتفيد الاستغراق فيكون النفي متوجهاً إلى نفي الهداية عن كل القوم لا عن بعضهم وبذلك تتلاقى القيود على النفي ويكون المعنى الكلي للآية: والله لا يهدي هداية إيصال دائما كل القوم الظالمين.

﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

أصل الظُّلم وضع الشيء في غير محله[١] واستعمل في منع الحق أن يصل إلى أهله.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾

إشارة إلى قوله" قوما" وقوله "جزاؤهم" أي استحقوه على كفرهم.

﴿أَنَّ عَلَيۡهِمۡ﴾

أن واسمها وخبرها في محل رفع خبر "جزاؤهم" وجزاؤهم وخبره خبر أولئك وإذا عرفت هذا علمت أن اللعنة لم تتوجه إليهم بل أخبر الله سبحانه أنهم يستحقون ذلك على فعلهم، وتقديم خبر أن على اسمها يفيد الاختصاص فهؤلاء هم الذين يستحقون هذه اللعنة.

﴿لَعۡنَةَ ٱللَّهِ﴾

اللعن: الطرد والإبعاد من الخير واللّعنة: الاسم[٢].

أي تعلوهم لعنة الله وتضللهم أينما كانوا فهم بعيدون عن الخير لأنهم كفروا بمن بيده الخير كله "مالك الملك" وهم بعيدون عن الخير للناس لأنهم لم يسلموا لمالك الجميع حتى ينظروا إلى غيرهم بعين الأخوة في مملوكيتهم لله .

﴿أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾

---

(١) مختار الصحاح ص: ١٧٣ .

(٢) المصدر نفسه ص: ٢٥١ .

هذه بديهة من بديهات العقل عندما يطرد الله مخلوقا لا يطرده حتى يتبرأ هذا المخلوق من خالقه ويسلم وجهه لغيره وعندما يتبرأ واحد من أبيه ويطرده أبوه يطرده جميع أخوته لأنه هو الذي تحلل مما يربطه بهم وهو أبوه فعندما تبتعد من الأصل فقد ابتعدت عن جميع فروعه، فمن من الملائكة يقدم إليه بخير وهو قد ابتعد عن الله؟ من يجرأ على ذلك؟ بل من يقدر على ذلك؟ إن الكل يشحذ الخير من الله لنفسه أو لغيره.

﴿أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ﴾

أولئك عليهم لعنة الناس هكذا يكون سياق الكلام فلا يدخلون مع عموم الناس الذين يلعنونهم حتى يمكن استشكال التعبير بعموم الناس وهم من الناس[1] لأن من يخرجه الناس فيلعنوه لا يكون داخلا فيهم.

﴿أَجْمَعِينَ﴾

التأكيد بأجمعين يحتمل وجهين :

الأول: أنها تعود إلى المجموع –الله والملائكة والناس– فهم جميعاً وأجمعين يلعنونهم.

والثاني: أنها إلى الناس فقط– الناس أجمعين– أولئك عليهم لعنة الناس أجمعين وأي إشكال فيها؟ أولئك من الناس عليهم لعنة الناس أجمعين فلا يمكن أن يتبادر إلى الذهن سؤال: كيف يلعنهم الناس أجمعون وهم من الناس إلا على بارد الذهن ركيك السليقة.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾

---

(١) أنظر التفسير الكبير : ج٣ /ص٢٨٥ .

﴿خَٰلِدِينَ﴾

" الخلد: دوام البقاء ويقال: أخلد إلى فلان أي ركن إليه ومنه قوله تعالى:" ولكنه أخلد إلى الأرض"[١] والخَلَدُ: البال تقول: وقع في خلدي أي في قلبي[٢].

﴿فِيهَا﴾

أي اللعنة أي مطرودين دائماً فليسوا من الذين تتجدد اللعنة عليهم وهذا هو الفارق بين قولنا- يلعنه الله- وقولنا- عليه لعنة الله خالدا فيها-،فان التعبير بالفعل المضارع لإفادة التجدد وفيه زيادة التوبيخ وإسماع ما يؤلم وأما الثانية -التعبير بالاسمية- فهو لإفادة استعلاء اللعنة عليهم وخلودهم فيها بدون أن يتجدد لهم اللعن في كل وقت، وعبر عن علو اللعنة في أول الآية وعن مظروفيَّة اللعنة لهم في بداية الآية التي بعدها للدلالة على نزولها -أي نزول آثارها- عليهم وإحاطتها بهم من كل جانب حتى صاروا فيها.

﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾

خفَّف يخفف تخفيفاً: التخفيف ضد التثقيل والثلاثي خفَّ معناه صار خفيفاً[٣]. فالتخفيف تفعيل مصدر خَفَّف ويطلق اذا جُعل التثقيلُ خفيفاً مرةً بعد مرةٍ، والفارق بين لا يُخَفُّ العذاب ولا يُخفَّف العذاب أن الثاني نفي لتكرير التخفيف لا لأصل الخِفَّة والأول عكسه فقول الرازي: فالمعنى أنه لا يجعل عذابهم أخـفَّ[٤]

(١) الأعراف: ١٧٦.

(٢) مختار الصحاح ص: ٨٣.

(٣) المصدر نفسه ص: ٨٢.

(٤) التفسير الكبير ج:٣ /ص: ٢٨٥.

غير سليم لأن صياغة النص على غير ذلك.

﴿عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾

تقديم النفي يفيد التخصيص أي لا يخفف خاصة عنهم العذاب وهذا لا ينفي شمولهم بنوع من التخفيف الذي يعمهم مع غيرهم،على أن نفي المضارع غير نفي الاسم فلو قال النص: لا خفة للعذاب عنهم لكان أشق بكثير فالتجدد الذي يفيده المضارع في الإثبات هو الذي يتوجه إليه النفي وهذه رحمة الله الواسعة في النص القرآني وهو يتحدث عن العذاب.

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾

ينظرون: تحتمل وجهين: أن تكون من أنظر بمعنى التأخير ومنه قوله تعالى: "فنظرة إلى ميسرة" البقرة:٢٨ وعليه جرى الرازي[١] وأن تكون من نُظر بالبناء للمجهول أي لا ينظر إليهم أحد إما كراهة وإما لكونهم في كِنِّ اللعنة وآثارها فلا يراهم أحد.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

إلا: أداة استثناء مما قبلها وهم الذين حقت عليهم اللعنة من الله وملائكته والناس أجمعين جزاءً على كفرهم.

﴿ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾

﴿ٱلَّذِينَ﴾

إسم موصول وهو يدل على العموم فكأنه يقول: إلا كل تائب.

(١) التفسير الكبير ج:٣ /ص: ٢٨٥.

﴿تَابُوا﴾

أي رجعوا من الكفر إلى الإيمان.

﴿مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾

أي من الكفر وإنما عدل إلى التعبير بالإشارة ولم يقل: من الكفر أو من كفرهم ابتعاداً من شبح التذكير بالكفر بعد التوبة لما فيه من الإهانة والتعيير ولهذا قيل: ذِكرُ الجفاء وقت الصفاء من الجفاء ولهذا جاء التذكير بالإيمان في الآية التي بعد هذه فقال:"إن الذين كفروا بعد إيمانهم" ولم يقل: بعد ذلك.

وانظر أيضاً كيف اختلفت صياغة النص والقرآن يتحدث عن التوبة عن صياغتها في النص السابق وهو يتحدث عن جزاء الذين كفروا بعد إيمانهم حيث استخدم الذين الدالة على العموم في التوبة بينما هناك استخدم النكرة – قوماً – واستخدم في التوبة الفعل الماضي الدال على وقوع الفعل بدون تجدد فأعفاهم من ذلك ليقول لهم التوبة مرة تهدم الكفر كله.

﴿وَأَصْلَحُوا﴾

تحتمل وجهين:

الأول: أنهم أصلحوا ما أفسدوا من عقائدهم وأعمالهم وحاولوا إصلاح الآخرين.

والثاني: أنهم دخلوا في الصلاح كما تقول: أصبح زيد إذا دخل في وقت الصباح أي أن الهمزة لا تكون فيه للتعدية(١).

﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

---

(١) الكشاف: ج١ /ص٤٤٣ .

الغفر: التغطية ومنه المِغْفَر للزرد الذي يغطي الرأس يلبس تحت القلنسوة ومنه أيضاً: استغفر الله لذنبه ومن ذنبه[1] وغفور مبالغة من غافر وهذا يعني أن غفران الذنب تغطيته وستره لا محوه وإعدام صورته وإذا غفر الذنب فلا يصل منه إلى فاعله سوء لا في الدنيا ولا في الآخرة.

والرحيم: مأخوذ من الرحمة والرحمة: هي الرقة والعطف واسم الفاعل راحم والرحيم: مبالغة[2] وجميع الأسماء الإلهية يجب أن يراعى فيها ما يليق بجلال الله تعالى.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

كأن الله يقول: إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فأقبل توبتهم وأغفر لهم فإني أنا الغفور الرحيم،وإنما وصف الحق نفسه بهذين الوصفين ليقول لهم إنما أنا الغفور الرحيم دائما وهذه صفتي وهذه أسمائي فلا تقنطوا من مغفرتي ورحمتي، هذا تحليل ألفاظ الآية وأما تحليل الموقف منها فنقول:

إن هذا النص يسقط من حساب الدعاة إلى الله نظرة اليأس والقنوط إلى أي إنسان مهما كان دينه وطائفته ومذهبه وأخلاقه فباب التوبة مفتوح على مصراعيه ويكفيهم أن يتعلموا من هذا النص أن لحظة خير وتوبة إلى الله كافية في إسبال ثوب الستر على الماضي وما فيه من سيئات،بل هي كافية لوقاية المذنب من شر ذنبه في الدنيا والآخرة، وأيضاً فإن النص يجعلنا أمام حذر شديد في إصدار أحكام على الناس في الماضي والحاضر فإصدار حكم بالكفر أو الفسوق على أشخاص بأعيانهم يجعلنا أمام مسؤولية كبيرة وحساب عسير إذا لم تكن أحكامنا يدعمها

(١) مختار الصحاح ص: ٢٠٢ .

(٢) المصدر نفسه ص: ١٠٥ .

أليقين أن أولئك الأشخاص قد غادروا الحياة ولم يتوبوا مما كانوا عليه من انحراف، ولهذا لزم أهل التقوى الحذر فإذا حكموا فإنما يحكمون على الوصف لا على الشخص فإن كان الوصف متحققا في ذلك الشخص لحقه الحكم وإلا فلا.

وإضافة إلى ذلك كله فالنص يعلمنا كيف نراعي مشاعر التائبين فلا نذكِّرهم بما كانوا عليه من إثم أو انحراف طالما أن المسيرة قد اعتدلت والسلوك قد استقام والله من وراء القصد.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴾

﴿ٱلَّذِينَ﴾

اسم موصول لإفادة العموم أي: كل من كفر بعد إيمانه.

﴿ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ ﴾

ازدادوا: أصلها ازتادوا من باب الافتعال مثل اكتسبوا واجتهدوا فقلبت التاء دالاً لتقارب مخرجيهما،أي أنهم كفروا بعد أن آمنوا أي ارتدوا عن الإيمان ثم اجتهدوا في زيادة الكفر والازدياد من الكفر يقع في صور كثيرة فالدعوة إلى الكفر والقتال من أجله والتحزُّب عليه تزيد الكافر كفراً إلى كفره وكذلك الإيمان يزداد بمثل ذلك.

﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ ﴾

فهم كثير من المفسرين معارضة هذا لما تقرر عندهم أن الكافر بعد أيمانه إذا تاب قبلت توبته وإن ازداد من الكفر أضعافاً فحاولوا تأويله بما ينسجم مع ما تقرر عندهم فقال الزمخشري رحمه الله:"لن تقبل توبتهم" عبارة عن الموت على الكفر

لأن الذي لا تقبل توبته من الكفار هو الذي يموت على الكفر كأنه قيل: إن اليهود أو المرتدين الذين فعلوا ما فعلوا مائتون على الكفر داخلون في جملة من لا تقبل توبته"[١].

وذكر الإمام الرازي وجوهاً خمسة في تأويل هذه الكلمة "لن تقبل توبتهم" وجعل ما ذكره الزمخشري واحداً منها وأما الوجه الثاني فهو: أن عدم القبول ناتج عن وقوع التوبة عند الموت والوجه الثالث: أن توبتهم باللسان فقط والرابع: أنهم تابوا عن الزيادة فقط والخامس: نقله عن القاضي والقفّال وابن الأنباري وهو: أن الله تعالى لما قدّم ذكر من كفر بعد الإيمان وبين أنه أهل للعنة إلا أن يتوب ذكر في هذه الآية أنه لو كفر مرة أخرى بعد تلك التوبة فإن التوبة الأولى تصير غير مقبولة وتصير كأنها لم تكن قال أي القاضي وهذا الوجه أليق بالآية من سائر الوجوه لأن التقدير: إلا الذين تابوا وأصلحوا فإن الله غفور رحيم فإن كانوا كذلك ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم وبعد أن سرد الرازي هذه الوجوه قال: "جملة هذه الجوابات إنما تتمشى على ما إذا حملنا قوله: "إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً" على المعهود السابق لا على الاستغراق وإلا فكم من مرتد تاب عن ارتداده توبة صحيحة مقرونة بالإخلاص في زمان التكليف؟ فأما الجواب الذي حكيناه عن القفّال فهو جواب مطرد سواء حملنا اللفظ على المعهود السابق أو على الاستغراق"[٢]

﴿لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ﴾

بعد أن سردنا ما قاله الزمخشري والرازي رحمهما الله نعود إلى تحليل

---

(١) الكشاف ج: ١ ص: ٤٤٣.

(٢) التفسير الكبير ج:٣/ص: ٢٨٦.

كلمات النص فلعلها تسعفنا بشيء من النور نتبين فيه ما أراد هذا النص الكريم، فنقول:

(لن) حرف يدل على تأبيد النفي في المستقبل.

﴿تُقْبَلَ ﴾

بالبناء للمجهول وهذا البناء يفيد الدلالة على عموم الفاعل أي فلن تقبل توبتهم عند أحد.

﴿تَوْبَتُهُمْ ﴾

توبة لفظ مفرد وقد أضيف إلى الضمير ومن المعلوم أن المفرد المضاف يفيد العموم فيكون التقدير: لن تقبل كل توبتهم أي أنها تكون مقبولة في جانب وغير مقبولة في جانب آخر إن هؤلاء كانوا قد آمنوا ثم ارتدُّوا ثم ازداد كفرهم فهل تكون توبتهم مقبولة فتهدم جميع ما تعلق بهم من حقوق في زمن الردة؟ أو أن هذه التوبة تكون مقبولة في جانب الإيمان غير أنهم يُطَالَبون برد المظالم والحقوق إلى أهلها؟ فهم الكثير من الفقهاء من هذه الآية أن المرتد إذا عاد إلى الإسلام يُطالَب بجميع ما ارتكبه من مظالم بل أوجبوا عليه حتى إعادة ما فاته من العبادات فقبول إيمانه شيء وإسقاط الحقوق عنه شيء آخر، ولولا هذا النص الكريم وهذا الفهم منه لكان لكل من يريد العبث بحقوق الآخرين أو التخفف من القيام بالواجبات الدينية سواء العبادية منها أو الاجتماعية أن يرتد عن الإسلام ثم يعود من جديد!! إنه خطر على الإسلام سدّه هذا النص.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴾

ضل الطريق: أي ضاع فلم يعرفه أين هو وهذه هي حالة المرتدين فإنهم

كانوا على الطريق ثم تاهوا عنه فلم يعودوا يعرفونه فإن رجعوا إلى الإسلام عادوا إليه بعد تيههم والله غفور رحيم.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾

﴿فَلَن ﴾

قال في الكشاف: فإن قلت: فلم قيل في إحدى الآيتين "لن تقبل" بغير فاء وفي الأخرى "فلن يقبل" أي بالفاء؟ قلت: قد أوذِن بالفاء أن الكلام بُنِيَ على الشرط والجزاء وأن سبب امتناع قبول الفدية هو الموت على الكفر وبترك الفاء أن الكلام مبتدأ وخبر ولا دليل فيه على التسبب كما تقول: الذي جاءني له درهم لم تجعل المجيء سبباً في استحقاق الدرهم بخلاف قولك: الذي جاءني فله درهم"[١]، فصار الأول اعترافا والثاني جُعلا.

﴿مِنۡ أَحَدِهِم ﴾

أي من أي واحد منهم؟

﴿مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ﴾

أي كل ما يصح أن يُملأ في الأرض "ذهبا" أي نوع من أنواعه.

﴿وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓ ﴾

أي وإن افتدى به فلو هنا بمعنى إن لتعلقها بالمستقبل[٢] قال في الكشاف:

---

(١) الكشاف ج: ١ ص: ٤٤٣.

(٢) البحر المحيط ج: ٣ / ص:٢٥٦.

"فإن قلت: كيف موقع قوله: "ولو افتدى به"؟ قلت: هو كلام محمول على المعنى كأنه قيل: فلن تقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً"[1].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾

﴿لَهُمۡ﴾

أي خاص بهم لأنه جزاء عملهم ونتاجه، وقوله "عذاب أليم" أي عذاب مؤلم جداً لأن أليم من صيغ المبالغة.

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾

تقدم تحليل هذا النص فارجع إليه إن شئت[2].

وبذلك نختم ما بدأناه من محاورة النصوص ومناغاتها ومعاناة التحليل ولأوائها سائلاً المولى جلت قدرته أن يتقبلها على ما اعتراها من علل وتعاورها من زلل وأن يجعلها من مفاتيح الخير لخدمة كتابه وإعانة طلابه إنه نعم المولى ونعم النصير.

(١) الكشاف ج:١ / ص: ٤٤٣-٤٤٤.

(٢) انظر ص: ٥٥-٥٦. من هذا المجموع.

المصادر والمراجع

جريدة المراجع

١. الكشاف ، الزمخشري، دار الكتب بيروت.
٢. التفسير الكبير دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٣. البحر المحيط أبو حيان،دار الفكر بيروت.
٤. حاشية الصاوي على تفسير الجلالين،أحمد الصاوي، دار الجيل، بيروت.
٥. الجامع لإحكام القرآن،القرطبي، دار الفكر، بيروت.
٦. مختصر تفسير ابن كثير، الصابوني دار الفكر، بيروت.
٧. مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية دار الرحمة، القاهرة.
٨. مدارج السالكين ،ابن قيم الجوزية دار الكتب العلمية، بيروت.
٩. لسان العرب ابن منظور، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٠. مختار الصحاح ،الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت.
١١. حياة الحيوان الكبرى ،الدميري دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٢. الأحاديث القدسية د.أحمد فارس دار الفكر، بيروت.
١٣. زاد المعاد ،ابن قيم الجوزية، دار ابن حزم، بيروت.

طبع بمطبعة هيئة إدارة واستثمار الوقف السني